عصمة الأنبياء

ونظرية الإسهاء عند الشيخ الصدوق رحمه الله

تأليف

الشيخ قيصر التميمي

مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

حاز الكتاب على جائزة مهرجان الشيخ الطوسي العالمي للكتاب

عصمة الأنبياء

ونظرية الإسهاء عند الشيخ الصدوق رحمه الله

حاز الكتاب على المرتبة الثانية في مهرجان الشيخ الطوسي العالمي للكتاب
في قم المقدسة / سنة ١٤٢٧هـ

مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية
www.annajat.us
info@annajat.us

تأليف

الشيخ قيصر التميمي

بسم الله الرحمن الرحيم

عصمة الأنبياء عليهم السلام ونظرية الإسهاء عند الشيخ الصدوق

الشيخ قيصر التميمي

منشورات الإجتهاد

الطبعة الأولى / ٣٠٠٠

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

ISBN : 978-964-91259-9-x

الإهداء

إلى سيد الخلائق أجمعين.

إلى صاحب الشفاعة الكبرى والمقام المحمود والعصمة المطلقة.

إلى أبي فاطمة وأخي علي ووالد الحسن والحسين.

إلى أبي القاسم محمد المبعوث رحمة للعالمين.

أهدي هذه البضاعة المزجاة، راجياً من الله تعالى أن يجعلني من المشمولين بشفاعته، إنّه سميع مجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤسسة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خيرة خلقه محمد وعلى آله الطاهرين.

لقد أوتي الأنبياء من الخصائص والملكات والكمالات ما ميّزهم عن سائر البشر، مع المحافظة على خصائصهم البشرية، فكانوا بتلك الخصائص الإلهية أعلاماً للهداية وقناديل للرشاد في ليل الضلالة الداجي، وصاروا أسوة لمن معهم ومن بعدهم، ومثالاً سامياً يقتدي به الناس ويقتفون أثره في سيرهم نحو لقاء الله تعالى.

وكان من الطبيعي أن يتميز أولئك الأنبياء والأصفياء بما قلّدهم الله من قلائد المسؤولية، وألبسهم من حلل التقوى والقرب، فجبلوا على ملازمة رقابة الله لهم وتسديده لخطاهم، وحضوره عندهم، مما أدى إلى هبوط العصمة في ساحات وجودهم المقدس، تلك العصمة التي لا يتطرق إلى خرق جدارها شيطان مريد أو جبار عنيد. كل ذلك لكي يكونوا أدلاء على الله، وأمناء في تبليغ رسالاته، وتكون لله الحجة البالغة.

والكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ وما تضمنته دفتاه يتناول وبشكل تفصيلي«**عصمة الأنبياء المطلقة**» وذلك من خلال عرض الأدلة المتنوعة التي تنسجم مع المستوى العقائدي الشامخ لمسألة العصمة، كل ذلك ببيان علمي وموضوعي رصين.

ومضافاً إلى ذلك كلّه فإن الكتاب تعرّض إلى أكثر الشبهات الواردة

حول العصمة، وأجاب عنها بأجوبة علمية وبيان واضح.

ولأهمية هذا الموضوع بادرت **(مؤسسة الكوثر)** إلى الكتابة في هـذا المجال، فطلبت من أحد محققيها وهو فضيلة الشيخ قيصر التميمـي، أن يكتب في موضوع عصمة الأنبياء، فاستجاب مشكوراً.

ونحن إذ نبتهل إلى الله تعالى في قبول هـذا اليـسير وجعلـه خالـصاً لوجهه الكريم، نأمل أن نكون قد وفقنا في إثراء المكتبـة الإسـلامية فـي أهم مجالاتها، ألا وهو مجال الفكر والعقيدة.

مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

٢٥ رجب المرجب / ١٤٢٧هـ

مقدمة الكتاب

لو أردنا أن نؤرّخ لمبدأ عصمة الأنبياء وحجج الله عز وجل، فلا يسعنا إلا أن نقول إن الله تعالى أدرجها في مفردات بدء خلق الإنسان، كما جاء ذلك في قصة آدم عليه السلام مع الشيطان، تلك القصة التي كانت أنموذجاً يتضمن الخطوط العريضة والأسس العامة لطبيعة الصراع بين قوى الخير والشر.

وكان آدم النبي عليه السلام أول مخلوق أعلنه الله تعالى خليفة في الأرض وعلّمه الأسماء كلّها؛ ليكون قادراً على تحمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن، ثم أمر ملائكته ومخلوقاته الأخرى بالانقياد والطاعة والسجود له، ﴿**فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾[1]، فأعلن إبليس حربه على بني البشر بما اختاره من سوء عاقبته، قائلاً: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾[2] و ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً**﴾[3]، وقد أجابه الله تعالى إلى ذلك، وقال له: ﴿**اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ**

---

(١) الحجر: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) الأعراف: ١٦ ـ ١٧.

(٣) الإسراء: ٦٢.

جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا* وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾[1]، إلا أن إبليس علم أن لله تعالى عباداً مطهرين ومخلصين ومعصومين عن الوقوع في حبائله والخروج عن الصراط المستقيم، فاستثناهم في حديثه عن دائرة سلطانه، حيث ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]، وقد أقرّه الله تعالى على هذه الحقيقة و ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ*إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[3] وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾[4].

وكان الهدف من تدوين هذه التصريحات التي أدلى بها الشيطان في مطلع هبوطه مع آدم إلى الأرض هو التأكيد على عصمة أنبياء الله تعالى وحججه وبيان طهارتهم وأنهم منزهون عن كل رجس ودنس وخطأ، ومبعدون عن كل أنحاء وأشكال الانحراف عن الصراط المستقيم الذي تنكّبه الشيطان وجلس على قارعته.

وقد أدرج الله تعالى هذه الحقيقة في القرآن الكريم وذكر تاريخها وأكّد عليها، وكررها في جملة من آيات ومحكمات القرآن، كل ذلك

---

(١) الإسراء: ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) الحجر: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) الحجر: ٤١ ـ ٤٢.

(٤) الإسراء: ٦٥.

لكي يبين للناس أن هناك وسائط بينه وبينهم يعيشون على الأرض، ويبلّغون دينه وشرائعه كاملة بلا نقص أو حيف أو انحراف، فتكون بذلك الحجة لله تامة لا ريب فيها، ولكي لا يختلج في دخيلة أحد أن العلاقة بين الله تعالى وبين خلقه مقطوعة، أو يتوهم متوهم أن عباد الله تعالى المخلصين والمبعوثين إلى الناس قد يتطرق إلى ساحتهم الذنب أو الخطأ أو السهو أو النسيان أو غير ذلك مما هو خارج عن نطاق صراط الحق المستقيم، ومما قد يجعل الرسل في معرض الشك والريب في نفوس الناس.

وكان القرآن الكريم ولا زال في طليعة الكتب السماوية التي تؤكّد على عصمة الأنبياء المطلقة، كما سيتضح في ثنايا هذا الكتاب.

وأما السنة النبوية المباركة فهي التأريخ الثاني للعصمة المطلقة في الإسلام، حيث جاءت لتؤكد هذا المبدأ وتثير إدراك العقل بأن الحجة لا تكون تامة لله تعالى إلا بعصمة الأنبياء المطلقة، كي لا يتطرق الشك والريب في نفوس الأمة، ولكي يعلم الناس بأن رسالة السماء وحجة الله تعالى وصلت تامة لا نقص فيها.

وأما الفرق والمذاهب الإسلامية التي تشكّلت بعد ذلك فقد أجمعت على مبدأ العصمة، ليكون ذلك تاريخاً ثالثاً مؤيداً لنداء السماء وتصريحات الأنبياء.

ومن هذا البيان الإجمالي لتاريخ العصمة يتضح زيف ما يدعيه البعض

من أن مبدأ العصمة من مبتدعات الشيعة في الإسلام، وأن عبد الله بن سبأ أو مؤمن الطاق أو هشام بن الحكم أو غيرهم هم الذين نشروا فكرة العصمة المطلقة للأنبياء والأوصياء بين المسلمين أو في الوسط الشيعي بالخصوص[١].

وذلك لأن تاريخ العصمة بدأ مع ولادة الإنسان وهبوطه إلى الأرض، كما صرح بذلك القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة، وهي أيضاً نداء العقل السليم.

والكتاب الذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ مبادرة ومحاولة جادّة لبيان تلك الحقيقة وتأكيدها، حيث يبين بالأدلة القاطعة والواضحة أن عصمة الأنبياء المطلقة مبدأ إلهي وقرآني، أكّده الرسل وأدركته العقول، فهي عقيدة راسخة لا تبلى ولا تتغير، ولم تتطور بتأثير المدارس الكلامية وتطورها في الإسلام.

تنويه:

في نهاية هذه المقدمة نجد أنفسنا ملزمين بالتنويه والتنبيه على أن هذا الكتاب جاء ردّاً على جملة من الشبهات التي أوردتها الفرقة الوهابية على عصمة الأنبياء المطلقة، وكان هدفهم من ذلك الطعن في عقيدة الشيعة بعصمة أهل البيت عليهم السلام المطلقة، لأن عصمتهم عليهم السلام امتداد لعصمة

---

(١) لاحظ الفتاوى الكبرى لابن تيمية: ج٤ ص٥١٨، وأصول مذهب الشيعة للقفاري: ج٢ ص٩٤٤.

الأنبياء عليهم السلام، ولذا اهتم الكتاب بالاعتماد على نقل الروايات من الكتب والمصادر السنّية المعتبرة وأقوال كبار مفسريهم، وأما الروايات من طرق الشيعة فنقتصر في ذكرها على المواطن المفصلية في البحث، كما هو الحال في مبحث الأدلة، أو مبحث سهو النبي صلى الله عليه وآله ونومه عن الصلاة.

خطة البحث:

إن البحث في هذا الكتاب يتضمن هذه المقدمة وستة فصول:

الفصل الأول:

ويحتوي على تعريف العصمة وبيان حقيقتها لغة واصطلاحاً، والنقطة التي حاولنا إيصالها في هذا الفصل هي أن تعريف العصمة الاصطلاحي من التعاريف العريقة ويتضمن بنوداً مهمة اتفقت عليها المدارس الكلامية والفِرق الإسلامية، وليست هي لقيطة الفكر الاعتزالي.

الفصل الثاني:

ويتضمن الاستدلال على عصمة الأنبياء المطلقة عن الذنب والمعصية والخطأ والزلل والسهو والنسيان وكل ما يوجب الخروج عن الصراط المستقيم والإخفاق في إصابة الحق والواقع، ويمكن أن نسمي هذه العصمة بالعصمة المطلقة في أفق الزمان، من دون ملاحظة العمود الزمني لحياة الأنبياء.

الفصل الثالث:

يتصدّى هذا الفصل لاستعراض الأدلة العقلية والقرآنية والروائية على عصمة الأنبياء منذ الولادة وحتى الوفاة، وهذا ما نسميه بالعصمة المطلقة في عمود الزمان بالنسبة إلى حياة الأنبياء.

الفصل الرابع:

يستعرض هذا الفصل جملة من الآيات المباركة التي قد يتوهم معارضتها لمبدأ العصمة المطلقة، مع الإجابة عن ذلك التوهم بتفسير الآيات تفسيراً واضحاً ينسجم مع القول بالعصمة، بل يصّب في الاستدلال عليها، فهذا الفصل يصلح أيضاً لحشد بعض الأدلة على العصمة المطلقة مما يصب في رسالة الفصل الثاني والثالث.

الفصل الخامس:

إن هذا الفصل يتضمن استعراضاً مفصّلاً للفرق بين النسيان والسهو، ويخلص إلى الفرق بينهما لغة واصطلاحاً، كما يتضمن أيضاً استعراض الآيات التي نسبت النسيان إلى الأنبياء، ثم الإجابة عما يتوهم من أن الآيات تدل على وقوع النسيان من الأنبياء عليهم السلام وأنهم يتركون الواجب أو يفعلون المحرم أو يخطأون عن غفلة وذهول، وانتهى البحث إلى أن النسيان المنسوب إلى الأنبياء في جملة من الآيات القرآنية لا يتقاطع مع مبدأ العصمة المطلقة.

الفصل السادس:

يتعرض هذا الفصل للإجابة عن الروايات التي دلّت بظاهرها على سهو نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله ونومه عن صلاة الصبح، كما استعرضنا فيه نظرية الإسهاء للشيخ الصدوق وبيناها ببيان جديد ينسجم مع عبارته ثم أجبنا عن النظرية بجملة من الأجوبة.

هذه هي فصول الكتاب، ونتمنى أن نكون قد وفقنا لترسيخ هذه العقيدة الأصيلة في الفكر الإسلامي، والتي تعتبر الأساس في قبول قول النبي وتلقي الدين والشريعة عنه، إن الله تعالى سميع مجيب.

ولا يفوتني أن أتقدّم بالشكر والامتنان لكلّ مَن ساهم في إنجاز هذا الكتاب، وأخصّ بالذكر منهم سماحة آية الله السيد محمد الحسيني القزويني، الذي تابع الكتاب بفصوله وأبدى ملاحظاته القيّمة، وكذا أشكر الأخوة؛ سماحة السيد حاتم الموسوي البخاتي، وسماحة الشيخ شاكر الساعدي، وسماحة الشيخ فلاح عبد الحسن الدوخي، على ما بذلوه من جهد مشكور.

قيصر التميمي

١٣- رجب- ١٤٢٧هـ

الفصل الأول

تعريف العصمة وبيان حقيقتها

* ❊ تمهيد
* ❊ العصمة في اللغة
* ❊ العصمة في الاصطلاح
  * التعريف الأشعري والحشوي لمفهوم العصمة
  * التعريف الاعتزالي لمفهوم العصمة
  * التعريف الشيعي الإثنا عشري لمفهوم العصمة
* ❊ أسباب ومناشئ العصمة

تمهيد:

اتفقت كلمة المسلمين باختلاف مذاهبهم على مبدأ العصمة، وأجمعوا على أنها من صلب العقيدة الإسلامية، كما اتفقوا أيضاً على أن هناك مساحة واسعة من العصمة الخاصة بالانبياء لابدّ من الاعتقاد بها حفاظاً على حقّانية الشريعة وخلوّها من الخطأ والزلل والكذب - والعياذ بالله- .

واختلفوا في الوقت ذاته في بعض المساحات الأخرى للعصمة، وكذا اختلفوا في تحديد من هو المعصوم، إلاّ أن هذا الاختلاف لا يعني أن هناك إبهاماً في أصل العصمة ومفهومها، ذلك القدر الذي لا زال المسلمون متفقين عليه، ولذا يجد المتتبع لكتب الكلام وغيرها أن علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم حاولوا أن يعطوا مفهوماً واضحاً لمعتقد العصمة.

ثم إن المعنى الاصطلاحي - كما سيتضح- لا يبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي، والاختلاف بينهما في سعة العصمة وضيقها، وكذا في تحديد المصاديق وبيان الأفراد الذين يشملهم مفهوم العصمة.

ونحاول أولاً أن نسلّط الضوء قليلاً على المعنى اللغوي لمفهوم العصمة، وسيتضح أن مفردات التعريف الاصطلاحي كاللطف والحفظ وغيرها إنما اقتبست من المعنى اللغوي وتطبيقات اللغويين له في موارده المتعددة، ثم يليه البحث عن الأدلّة حول العصمة المطلقة للأنبياء وردّ الشبهات الواردة عليها.

تعريف العصمة وبيان حقيقتها

العصمة في اللغة:

قال الفراهيدي في كتابه العين: «العصمة: أن يعصمك الله من الشر، أي: يدفع عنك، واعتصمت بالله، أي: امتنعت به من الشر.

واستعصمت أي: أبيت. وأعصمت فلاناً: هيأت له ما يعتصم به. والغريق يعتصم بما تناله يده، أي: يلجأ إليه. والعصمة: قلادة، ويجمع على أعصام»[١].

وفي غريب الحديث لابن قتيبة: «وأما عصم فبمعنى منع، ومنه العصمة في الدين إنما هو المنع عن المعاصي، وقوله: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا مانع، ويقال: قد عصمه الطعام، أي: منعه من الجوع»[٢].

وقال الجوهري في الصحاح: «والعصمة: المنع، يقال عصمه، أي: منعه من الجوع.

والعصمة الحفظ، يقال: عصمته فانعصم. واعتصمت بالله: إذا امتنعت بلطفه عن المعصية.

وعصم يعصم عصماً: اكتسب. وأعصمت فلاناً، إذ هيئت له في الرحل أو السرج ما يعتصم به لئلا يسقط، وأعصم إذا تشدّد واستمسك

(١) الفراهيدي، كتاب العين: ج١ ص٣١٣- ٣١٤، ط ٢- مؤسسة دار الهجرة.

(٢) ابن قتيبة، غريب الحديث: ج١ ص١٠٥، ط١- دار الكتب العلمية.

بشيء خوفاً من أن يصرعه فرسه أو راحلته، وكذلك اعتصم به واستعصم به، وأعصم الرجل بصاحبه: لزمه»[١].

وفي النهاية لابن الأثير: «والعصمة: المنعة، والعاصم المانع المحامي، والاعتصام: الامتساك بالشيء افتعال منه.

ومنه شعر أبي طالب: ثمال اليتامى عصمة للأرامل، أي يمنعهم من الضياع والحاجة»[٢].

وفي لسان العرب: «وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه... واعتصم فلان بالله إذا امتنع به، والعصمة الحفظ. واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية. واعتصم به واستعصم: امتنع وأبى»[٣].

ولكي نقترب من المعنى الاصطلاحي أكثر نلاحظ ما ذكره الراغب الأصفهاني في هذا المجال، حيث قال في المفردات: «العصم: الإمساك، والاعتصام الاستمساك، قال تعالى: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي: لا شيء يعصم منه... والاعتصام التمسك بالشيء... واستعصم: استمسك، كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة، قال: (فاستعصم) أي تحرّى ما يعصمه... وعصمة الأنبياء: حفظه إياهم أولاً بما خصّهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية، ثم بالنصرة بتثبّت الأقدام، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق، قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ

---

(١) الجوهري، الصحاح: ج٥ص١٩٨٦، ط٤- دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ج٣ ص٢٤٩، ط٤ - مؤسسة إسماعيليان، قم.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: ج١٢ ص٤٠٣- ٤٠٥، ط١- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾»[١].

وهذه مقارنة ومقاربة جيدة من الراغب سنستثمرها في بيان المعنى الاصطلاحي للعصمة.

وحاصل كلمات اللغويين:

إنّ العصمة هي المنع والمنعة والامتناع بالشيء واللجوء إليه والتمسك والاستمساك والاحتماء به وملازمته بعد طلبه وتحريه، كل ذلك إباءً وامتناعاً ومنعة وحفظاً للنفس من الوقوع في المحذور، كالغرق والجوع والمعصية والسقوط من الفرس والراحلة والضياع والابتلاء بالفاحشة وغيرها من أفراد الشر، التي تؤلم الشخص وتؤذيه، هذا من طرف الشخص الطالب للعصمة وهو المعصوم أو المعتصم والمستعصم.

وأما الشيء العاصم: فهو المدافع والمانع والمحامي والحافظ والموجب لعدم الوقوع في الشر والمحذور، الذي يأباه الشخص المعصوم ويلتجئ بسببه إلى المانع والمحامي فيتأبى ويتمسّك ويستمسك به طلباً للحماية والوقاية، والعصمة والاعتصام بالله تعالى هو اللجوء إلى لطف الله وتوفيقه، حيث يُهيّئ الله تعالى بلطفه وتوفيقه ما يحفظ الشخص عن الشر وعن الوقوع في المعاصي والفواحش.

هذا هو معنى العصمة وكيفية تطبيقه واستعماله في اللغة، والملاحظة المهمّة في تعاريفهم أنهم استخدموا مفهوم اللطف في تعريف العصمة،

---

(١) الراغب الاصفهاني، مفردات القرآن كريم: ص ٥٦٩- ٥٧٠، ط١- دار الشامية- بيروت.

عندما استعملوه في عصمة الله تعالى عبده من الذنوب والمعاصي.

العصمة في الاصطلاح:

يقع الكلام في العصمة اصطلاحاً ضمن النقاط التالية:

١- التعريف الاصطلاحي عند متكلمي المسلمين وعلاقته بالمعنى اللغوي.

٢- قاعدة اللطف في التعريف الاصطلاحي.

٣- الاختيار الإنساني في تعريف العصمة.

التعريف الاصطلاحي عند متكلّمي المسلمين وعلاقته بالمعنى اللغوي:

لكي يتضح التعريف الحقيقي للعصمة لابد أن نلفت النظر إلى أن الاتفاق على ضرورة ثبوت العصمة للأنبياء وفي التبليغ على أقل التقادير كانت ضريبته ما وقع من النزاع والاختلاف في تعريف العصمة بين الفرق الإسلامية عموماً وكذا بين فرق الطائفة السنية بالخصوص، وذلك من جهة النزاع في سعة مبدأ العصمة وضيقه.

فلم ينفرد الشيعة الإمامية في الاعتقاد بمبدأ العصمة، ولم يكن النزاع فيه سنّياً شيعياً فحسب، كما أراد أن يصور ذلك البعض[(١)] عندما استعرض مفهوم العصمة، والشاهد على ذلك أن الأشاعرة والمعتزلة وأهل الحديث والإثبات من الحشوية - وهم طوائف كلامية وحديثية

---

(١) لاحظ: كتاب أصول مذهب الشيعة، القفاري: ج٢ ص٩٤١ وما بعد.

سنّية- اختلفوا وتنازعوا فيما بينهم في تحديد مفهوم العصمة وبيان أبعاده وحدوده، ونذكر فيما يلي نماذج لكل واحد من هذه الاتجاهات السنية، ثم نعطف الكلام على التعريف الإمامي الإثني عشري لمفهوم العصمة.

التعريف الأشعري والحشوي لمفهوم العصمة:

١ - إمام الحرمين الجويني

قال الجويني في معرض بيانه لتعريف العصمة: «العصمة خلق قدرة الطاعة، والخذلان خلق قدرة المعصية، والعصمة هي التوفيق بعينه، فإن عممت كان توفيقاً عاماً وإن خصصت كان توفيقاً خاصاً، ثم الموفق لا يعصي إذ لا قدرة له على المعصية وبالعكس»(١).

إن هذا التعريف يتضمن كما هو واضح مسألة الجبر في العصمة، وهذا هو رأي الأشاعرة ومن تابعهم في مبحث الجبر والاختيار، ويتضمن أيضاً مسألة التوفيق واللطف.

٢ - عضد الدين الإيجي

قال الإيجي في المواقف: «العصمة: وهي عندنا أن لا يخلق الله فيهم ذنباً»(٢).

وهذا التعريف وإن كان يقتصر على التصريح بمسألة الجبر الأشعري في العصمة، إلا أنه يتضمن مسألة اللطف أيضاً، لأنه هو الداعي إلى أن

---

(١) نقلاً عن شرح المقاصد، التفتازاني: ج٤ ص٣١٢، ط١- منشورات الشريف الرضي.

(٢) عضد الدين الإيجي، المواقف: ج٣ ص٤٤٨، ط١- دار النشر ودار الجيل، لبنان - بيروت.

لا يخلق الله تعالى في الأنبياء ذنباً.

٣ - سعد الدين التفتازاني

قال التفتازاني- بعد نقل تعريف إمام الحرمين مرتضياً له- : «ومن أصحابنا من قال: العصمة أن لا يخلق الله تعالى في العبد الذنب»[١].

وهذا التعريف من التفتازاني يتطابق مع ما سبق من تعريف الإيجي للعصمة.

٤ - الشريف الجرجاني

قال الجرجاني في كتابه التعريفات: «العصمة ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها»[٢].

إن الجديد في تعريف الجرجاني هو تصريحه ببقاء الاختيار في حال العصمة، وهذه مفردة ثانية مهمّة في تعريف العصمة تضاف إلى مفردة اللطف التي نصّ عليها الجويني.

٥ - أبو سعيد عبد الرحمن الشافعي الأشعري النيسابوري

قال النيسابوري في كتابه أصول الدين: «التوفيق خلق قدرة الطاعة، والخذلان خلق قدرة المعصية، ثم الموفق لا يعصي لعدم القدرة، والمخذول لا يطيع لعدم القدرة، والرب تعالى قادر على توفيق جملة العباد وعلى خذلانهم، والعصمة هي التوفيق بعينه.

---

(١) سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد: ج٤ ص٣١٣، ط١- منشورات الشريف الرضي.

(٢)الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات: ص٦٥، ط١- انتشارات ناصر خسرو- طهران.

ثم قد يكون خاصاً عن بعض الذنوب وقد يكون عاماً. واللطف أيضاً خلق قدرة الطاعة»[١].

إن هذا التعريف للنيسابوري صريح في المساواة بين مفهوم التوفيق واللطف من حيث المعنى.

٦- عبد الله بن أسعد اليافعي

قال اليافعي في مرهم العلل: «والتوفيق هو خلق قدرة الطاعة، والخذلان خلق قدرة المعصية، فالموفق لا يعصي إذ لا قدرة له على المعصية، وكذلك القول في نقيضه.

قلت: والمراد بقوله والموفق لا يعصي، أن الموفق بشيء أو في وقت لا يقدر يعصي فيهما مطلقاً إلاّ أن يكون موفقاً مطلقاً، كالملائكة والأنبياء عليهم السلام، وذلك هو العصمة مختصة بهم، وكذلك النقيض المذكور»[٢].

٧- أهل الإثبات من الأشاعرة والحشوية من السلف

قال الأشعري في كتابه المقالات: «وقال أهل الإثبات: التوفيق هُوَ قوة الإيمان وكذلك العصمة»[٣].

وهذا التعريف للحشوية من أهل الحديث يهمّنا كثيراً، لأنه أخذ

(١) أبو سعيد عبد الرحمن النيسابوري، الغنية في أصول الدين: ص١٣٤، ط١- مؤسسة الكتب الثقافية.

(٢) عبد الله بن أسعد اليافعي، مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة: ج١ ص١٦٥، ط١ - دار النشر، دار الجيل، لبنان - بيروت.

(٣) أبو الحسن الأشعري، مقالات الاسلاميين: ج١ ص٢٦٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

التوفيق وكذا الإختيار في مفهوم العصمة، إذ أن قوّة الإيمان لا تخرج الشخص المعصوم عن دائرة اختياره بعد فرض كونه مختاراً.

٨- النووي

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: «قال العلماء لفظ الهدى له معنيان، أحدهما: بمعنى الدلالة والإرشاد، وهو الذي يضاف إلى الرسل والقرآن والعباد، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيّنا لهم الطريق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ و ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

وثانيهما: بمعنى اللطف والتوفيق والعصمة والتأييد، وهو الذي تفرّد الله به»[١].

٩- الراغب الأصفهاني

قال الراغب: «العصمة فيض إلهي يقوى به الإنسان على تحرّي الخير وتجنب الشر، حتى يصير كمانع له من باطنه، وإن لم يكن منعاً محسوساً، وليس ذلك بمانع ينافي التكليف، كما توهمه بعض المتكلمين»[٢].

هذا التعريف صريح أيضاً في اعتبار اللطف والاختيار في مفهوم العصمة.

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم: ٦ج ص١٥٤، ط٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) نقلاً عن فيض القدير، المناوي: ج٢ ص١١٢، ط١، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

١٠- القرطبي

قال القرطبي في تفسيره: «واللطف في الفعل الرفق فيه، واللطف من الله تعالى التوفيق والعصمة»[١].

هذه هي أبرز التعاريف التي ذكرها الأشاعرة حول العصمة، وقد وافقهم عليها أئمة الحديث والسلف من الحشوية وهم أهل الإثبات وغيرهم.

وقد توفّرت هذه التعريفات على أمور ثلاثة لابدّ من التمييز بينها:

الأول: إن العصمة عبارة عن ملكة وقوة إيمان تحصل للعبد بتوفيق ولطف من الله تعالى توجب الطاعة واجتناب الذنوب والمعاصي، وعكسه الخذلان.

الثاني: إن تلك العصمة وذلك التوفيق واللطف من الله تعالى، الذي هو ملكة وقوة إيمان يوجب الطاعة واجتناب المعاصي هل هو بنحو الجبر وموجب للإلجاء، أم أن العبد يبقى محتفظاً بقدرته وإرادته واختياره حتى مع العصمة واللطف والتوفيق؟

وهذا أمر آخر في التعريف سيأتي الحديث عنه.

الثالث: إن العصمة واللطف والتوفيق قد يكون خاصاً وقد يكون عاماً بحسب الأفراد وبحسب امتداد حياة كل واحد منهم، بأن يكون الشخص موفقاً مطلقاً كالملائكة والأنبياء عليهم السلام وهو معنى عصمتهم المختصة بهم،

---

(١) القرطبي، تفسير القرطبي: ج٧ ص٥٠.

وهذا بحث آخر أيضاً سيأتي في بحث متعلّق العصمة.

والحاصل: إن الأشاعرة ومن تابعهم يثبتون أن العصمة هي ملكة وقوة يمنّ الله تعالى بها على جملة من عباده بلطفه وتوفيقه، وإن اختلفوا بينهم في كون تلك العصمة تسلب العبد اختياره وتجبره على الطاعة وترك المعصية، أو يبقى العبد قادراً على ترك الطاعة وفعل المعصية وإن لم يقع منه ذلك.

وحينئذ كيف يصح التفوّه بالقول:

«إن مفهوم العصمة اصطبغ عند الشيعة ببعض الأفكار الاعتزالية كفكرة اللطف الإلهي وفكرة الاختيار الإنساني؟!»[(١)].

التعريف الاعتزالي لمفهوم العصمة:

إن تعريف العصمة لدى المعتزلة واضح، وقد اشتمل على فكرة اللطف والاختيار بوضوح، فلا داعي لتفصيل أقوالهم في هذا المجال، ونقتصر في هذا المجال على ما حكاه التفتازاني من قولهم، حيث قال:

«وفي كلام المعتزلة إن اللطف ما يختار المكلف عنده الطاعة تركاً أو إتياناً أو يقرب منهما مع تمكنه في الحالين، فإن كان مقرباً من الواجب أو ترك القبيح يسمّى لطفاً مقرباً وإن كان محصلاً له فلطفاً محصلاً، ويخص المحصل للواجب باسم التوفيق، والمحصل لترك القبيح باسم العصمة، ومنهم من قال: التوفيق خلق اللطف بعلم الله تعالى أن العبد

---

(١) لاحظ: كتاب أصول مذهب الشيعة، القفاري: ج٢ ص٩٤٧.

يطيع عنده. والخذلان منع اللطف، والعصمة لطف لا يكون معه داع إلى ترك الطاعة، ولا إلى ارتكاب المعصية مع القدرة عليهما، واللطف هو الفعل الذي يعلم الله تعالى أن العبد يطيع عنده»[(١)].

ومن الواضح الجلي أن الأفكار الأشعرية والاعتزالية متوافقة في الأمر الأول المتقدم في تعريف العصمة، وهو أنها ملكة وقوة إيمان بلطف وتوفيق من الله تعالى توجب فعل الطاعة واجتناب المعاصي، يبقى الاختلاف مع بعض الأشاعرة في مسألة الجبر والاختيار وهذا أمر آخر.

التعريف الشيعي الاثني عشري لمفهوم العصمة:

إن التعريف الشيعي للعصمة يتضمن جانبين مهمين من جوانب العصمة، وهما:

أولاً: قاعدة اللطف في التعريف الاصطلاحي

لقد جاء في التعريف الاصطلاحي الشيعي - كما سنذكره لاحقاً- إن العصمة لطف من فعل الله تعالى بالمكلف يحول دون الوقوع في المعصية.

وهذا المعنى في التعريف ليس خاصاً بالمعتزلة ولا بالشيعة الامامية، بل هو مما اتفقت عليه المدارس الكلامية وتابعهم عليه أهل الحديث والحشوية من أهل الإثبات، فلا خلاف في أن العصمة لطف وتوفيق وامتنان من الله تعالى على بعض عباده، لأسباب ومناشئ وحيثيات

---

(١) سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد: ج٤ص٣١٣، ط١- منشورات الشريف الرضي.

توفرت فيهم أوجبت أن يصطفيهم الله تعالى بالعصمة والطهارة.

وقد اتضح ذلك من عرض التعريف الأشعري والحشوي والمعتزلي للعصمة، وكذا ما سيأتي لاحقاً من التعريف الشيعي الإمامي الاثني عشري لمفهوم العصمة، حيث تبين أنهم جميعاً قد اشترطوا قيد اللطف والتوفيق في مفهوم العصمة، بل إن التعاريف اللغوية اشتملت على ذلك أيضاً، فليس مفهوم اللطف خاصاً بالمعتزلة، كما يُتهم الشيعة باقتباسه منهم، وإنما هي فكرة عامة اتفقت على ذكر حقيقتها المدارس الكلامية وأهل الحديث أيضاً.

ويضاف إلى ذلك: أن الذي يتّهم الشيعة بالاقتباس من المعتزلة لم يأت بتوثيق تاريخي واحد يثبت ما زعمه من تأثر التعريف الشيعي للعصمة بالمفاهيم الاعتزالية.

ثانياً: الاختيار في تعريف العصمة

جاء في القسم الثاني من تعريف العصمة: أن حقيقة العصمة لا تعني أن الشخص المعصوم يصبح مجبراً على فعل الطاعة وترك المعصية، وإنما يبقى محتفظاً باختياره الانساني، وهذا قول كافة الفرق الإسلامية، إلاّ بعض من شذّ عنهم من الأشاعرة، حيث ذهب بعضهم إلى أن القضاء والقدر سالبان للإختيار الانساني، فلا اختيار مطلقاً سواء مع العصمة أم مع غيرها، وسواء كان فعل الطاعة أو المعصية، ومن هذا المنطلق بنى بعضهم على أن العصمة هي أن يخلق الله تعالى في المعصوم الطاعة، ولا

يخلق فيه الذنب والمعصية، وأن الموفّق والمعصوم لا يعصي ويفعل الطاعة؛ لعدم قدرته على غير ذلك.

وهناك من تحرر من الأشاعرة عن الالتزام بمقولة الجبر وآمن بالاختيار الإنساني، وعندما جاء إلى تعريف العصمة أدخل فكرة الاختيار فيها، كما تقدم عن الشريف الجرجاني وغيره، وهكذا فرقة الماتريدية، التي تعد حركة قريبة ومعاصرة للوسط الأشعري، ومناهضة لمسألة الجبر في المنهج الأشعري.

ثم إن مبحث الجبر والاختيار ليس محلّه هنا، وإنما يذكر في مباحث التوحيد والقضاء والقدر، ولا تنافي - كما سيتضح - بين القول بالعصمة وبين القول بالحرية والاختيار، كي يقال:

إن مفهوم العصمة سابق لمذهب الشيعة في القدر[١].

أسباب ومناشئ العصمة:

لكي تتضح فكرة عدم التنافي بين مبدأ العصمة وبين الاختيار الانساني، نشير بنحو الاختصار إلى حقيقة ذلك اللطف الذي كان الشخص بموجبه معصوماً.

ومجمل القول في ذلك: إن اللطف عبارة عن العلم القطعي والشهودي الوجداني لحقائق الأمور وعواقب الأعمال، بحيث يوجب قوة الإرادة ويخلقُ في نفس الإنسان دافعاً ووازعاً قوياً يصدّه عن الوقوع في

---

(١) لاحظ: كتاب أصول مذهب الشيعة، القفاري: ج٢ ص٩٤٧.

مخاطرها وعواقبها الأخروية، وهو علم لا يداخله ريب ولا يعتريه شك وتسقط دونه الحجب فيرى صاحبه رأي العين ويلمس لمس الحس تبعات المعاصي وترك الطاعات ولوازمها وآثارها في الدنيا والآخرة، ذلك العلم الذي قال الله عزّ وجلّ فيه: ﴿كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾(١)، فمثل هذا العلم يخلق من صاحبه إنساناً مثالياً، لا يخالف قول ربه مثقال ذرة، ولا يتعدّى الحدود التي رسمها له في حياته قيد أنملة، فالعلم بعواقب الأمور يجنب الشخص الوقوع في الهلكات بمحض إرادته واختياره، وذلك كمن يعلم علماً يقينياً بأن السم قاتل؛ إذ أن ذلك يوجب امتناع الإنسان عن تناوله بمحض إرادته وتمام اختياره، وكذلك نحن نجزم بنحو الحتم أن الإنسان العاقل العالم وصاحب المحل الرفيع والمكانة السامية في المجتمع لا يخرج عارياً إلى الشارع أو السوق أو محل عمله، مع أن عدم خروجه كذلك بتمام اختياره وقوة إرادته لعلمه بفقدان كرامته وسقوط مروءته بإتيان ذلك الفعل، وحينئذ ما ظنّك بالأنبياء الذين أطلعهم الله تعالى على عواقب الأعمال ونتائجها وقبائح المعاصي؟!

كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾(٢).

وجاء في حق داود وسليمان عليهما السلام قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَوَرِثَ

---

(١) التكاثر: ٥-٦.

(٢) البقرة: ٣١.

سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾[٢].

وقال عزّ وجلّ لنبيه الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

وقال تعالى في حق نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۞ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٤].

وقد حكى الله تعالى أيضاً عن النبي يوسف عليه السلام قوله: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٥].

وقال يعقوب عليه السلام لبنيه عندما كانوا يلومونه لبكائه على يوسف: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٦].

---

(١) النمل: ١٥- ١٦.

(٢) الجن: ٢٦- ٢٧.

(٣) البقرة: ١٤٥.

(٤) يوسف: ٢٢ - ٢٤.

(٥) يوسف:٣٣.

(٦) يوسف: ٨٦.

كذلك قال تعالى في النبي لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾[1].

إذن هذا العلم الإلهي الخاص هو اللطف الذي اصطفى الله تعالى به أنبياءه ورسله وخلفاءه على العالمين، وهو الذي صار سبباً ومنشأ لملكة التقوى العالية ودرجة العصمة الكاملة والبرهان التام الذي اعتصم به يوسف عليه السلام عن الوقوع في الفاحشة؛ إذ لم يكن من الجاهلين، فالإنسان إذا بلغ بعلمه الإلهي الخاص درجة عالية وقصوى من التقوى لا ترى في حياته آثار المعصية والتمرد على أوامر الله تعالى؛ لاستشعاره مقام الخالق وعلمه اليقيني بمقام الربوبية والألوهية الشامخ.

كل ذلك بالاختيار والإرادة القوية النابعة عن ذلك العلم الراسخ، فلا تنافي بين العصمة وبين الاختيار، بل إن قوة الإرادة والاختيار من مبادئ العصمة، فبالإرادة القوية يصبح من الممتنع عليه الوقوع في المعصية وإن كان صدورها منه ممكناً ذاتاً، كما في أفعال الله تعالى، فمع أننا نعلم بامتناع وقوع الظلم من الله تعالى، كذلك نعلم أن الله تعالى ليس مجبراً على ترك الظلم، وإنما ذلك بمحض الإرادة الإلهية القاطعة.

نصوص التعريف الشيعي للعصمة:

وعلى طبق هذا البيان جاءت تعاريف العصمة في كلمات علمائنا:

ففي اللوامع الإلهية للمقداد السيوري قال:

---

(١) الأنبياء: ٧٤.

«العصمة ملكة نفسانية يمنع المتصف بها من الفجور مع قدرته عليه، وتتوقف هذه المكلة على العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات؛ لأن العفة متى حصلت في جوهر النفس، وانضاف إليها العلم التام بما في المعصية من الشقاوة والطاعة من السعادة، صار ذلك العلم موجباً لرسوخها في النفس فتصير ملكة»[1].

وقال الشيخ المفيد:

«العصمة من الله لحججه هي التوفيق واللطف والاعتصام من الحجج بها عن الذنوب والغلط في دين الله تعالى، والعصمة تفضّل من الله تعالى على من علم أنه يتمسك بعصمته، والاعتصام فعل المعتصم، وليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح، ولا مضطرة للمعصوم إلى الحسن، ولا ملجئة له إليه، بل هي الشيء الذي يعلم الله تعالى إنه إذا فعله بعبد من عبيده لم يؤثر معه معصيته له، وليس كل الخلق يعلم هذا من حاله، بل المعلوم منهم ذلك هم الصفوة الأخيار.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[4]»[5].

---

(١) جمال الدين مقداد السيوري، اللوامع الإلهية: ص٢٤٤، ط٢- مكتب التبليغ الإسلامي- قم.

(٢) الأنبياء: ١٠١.

(٣) الدخان: ٣٢.

(٤) ص: ٤٧.

(٥) الشيخ المفيد، تصحيح الاعتقاد: ص١٢٩، ط٢- دار المفيد- بيروت.

والحاصل:

١- إن مسألة اللطف وإدراجها في التعريف ليس أمراً خاصاً بالشيعة والمعتزلة، بل يشمل الأشاعرة وأهل الحديث والإثبات من الحشوية، وقد ذكره أهل اللغة أيضاً.

٢- إنه لا تنافي بين العصمة والاختيار، وأما مقولة الجبر في العصمة والمعصوم فهي خاصة بقسم من الأشاعرة الذين آمنوا بمبدأ الجبر الإنساني، فالأساس الذي سارت على ضوئه مدارس الكلام الإسلامية هو القول بالاختيار والبناء عليه، سواء من المعتزلة أو الشيعة أو غيرهم، ولا معنى للقول بأن التعريف الشيعي للعصمة وأخذ الاختيار فيه مقتبس من الأفكار الاعتزالية.

الفصل الثاني

عصمة الأنبياء
حدودها و أبعادها

* تمهيد
* المبحث الأول: الأدلة العقلية على العصمة المطلقة
* المبحث الثاني: الأدلة القرآنية على العصمة
* المبحث الثالث: الأدلة من السنة النبوية على العصمة المطلقة

عصمة الأنبياء حدودها وأبعادها

تمهيد:

هناك بعض النقاط المهمة التي لابد من الإشارة إليها تمهيداً للولوج في هذا الفصل الذي يتضمّن مباحث الأدلة على أبعاد العصمة المطلقة وحدودها، وهي كالتالي:

أولاً: الشبهات المُثارة حول العصمة المطلقة للأنبياء

قبل الدخول في بيان حدود العصمة والأدلة الدالّة عليها يجدر بنا الوقوف على بعض الشبهات التي أثيرت حول عصمة الأنبياء المطلقة، وقد حاول بعض الكتّاب أن يسلّط الضوء على جملة منها في بعض كتبه المؤلّفة ضدّ الشيعة، ونشير فيما يلي إلى أهم تلك الشبهات التي ذكرها:

١ - لا عصمة مطلقه لأحد من البشر حتى الأنبياء، [أصول مذهب الشيعة، القفاري، ج٢ ص٩٤٢][١].

٢- القرآن الكريم يبين أن لا عصمة مطلقة لأحد من البشر، فهذا آدم عليه السلام أبو البشر قد عصى ربه فغوى، كما يقول القرآن العظيم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ولو كان معصوماً كالعصمة المزعومة للأئمة ما عصى ربه [مسألة التقريب: القسم الأول، القفاري ص٣٢٥].

---

(١) ملاحظة: لقد أرجع القفاري البحث في هذه النقطة إلى كتابه (مسألة التقريب)، حيث ينكر هناك العصمة المطلقة لكل أحد، وحاول أن يستدل على ذلك ببعض ظواهر الآيات القرآنية - مسألة التقريب، القفاري، القسم الأول: ص٣٢٥ - ط٦ دار طيبة - السعودية.

٣- إن آدم عليه السلام اعتبر ذنبه من الظلم، الذي تعتبره الشيعة مضاداً للعصمة: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإذا لم يكن هذا ذنباً فلم حاسبه الله سبحانه وعاقبه بإخراجه من الجنة واعتبر عمله ظلماً؟ [مسألة التقريب: القسم الأول، القفاري. ٣٢٥].

٤- إنّ الله جل شأنه لم يقر الرسول (صلّى الله عليه وسلم) على أخطاء وقع فيها، وهو أفضل الخليقة، وهو ما ينفي دعوى العصمة المطلقة، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾، ويقول جل شأنه: (عَبَسَ وَتَوَلَّى)(٣)، [مسألة التقريب: القسم الأول، القفاري، ص٣٢٥].

٥- ويذكر سبحانه في آيات كريمة أنه له (صلّى الله عليه وسلّم) ذنوباً، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾(٤)، وقال سبحانه:

---

(١) الأنفال: ٦٧.

(٢) التوبة: ٤٣.

(٣) عبس: ١.

(٤) غافر: ٥٥.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[1]، هذا في حق أفضل الخلق فكيف أئمة الشيعة؟! [مسألة التقريب: القسم الأول، القفاري، ص ٣٢٥ - ٣٢٦].

٦- إنّ المجلسي يُسبغ على أئمته العصمة من المعصية كلّها، ومن الخطأ والسهو والنسيان، من أول حياتهم إلى آخرها، بما لم يتحقق لأنبياء الله ورسله، كما يدلّ على ذلك صريح القرآن والسنة وإجماع الأمة، فهي غريبة على الأصول الإسلامية، [أصول مذهب الشيعة، القفاري، ج٢ ص٩٤١ -٩٤٢].

٧ - إنّ نفي مطلق السهو والنسيان عن الأنبياء والأئمة تأليه لهم وتشبيه لهم بمن لا تأخذه سنة ولا نوم، [اصول مذهب الشيعة، القفاري ج٢ ص٩٤٢- ج٣ ص١٣٤٤].

٨ - قد يكون مبدأ العصمة ورثته الشيعة عن المذهب المجوسي، [أصول مذهب الشيعة، القفاري، ج٢ ص٩٧٢].

حصيلة هذه الشبهات:

١- إن العصمة المطلقة تشبيه للبشر بمن لا تأخذه سنة ولا نوم.

٢- لا عصمة مطلقة منذ الولادة لأحد من البشر، بصريح القرآن والسنة والإجماع.

٣- الآيات القرآنية تثبت الخطأ والذنب للأنبياء كآدم عليه السلام ونبينا

(١) الانشراح: ٢ - ٣.

الأكرمﷺ وهو خير البشر، فكيف بمن هو دونه؟

٤- إن مبدأ العصمة ورثته الشيعة من المذهب المجوسي.

ثانياً: العلاقة بين عصمة الأنبياء وعصمة الأئمة

لا بد من التنويه إلى أن العصمة التي تثبتها الشيعة للإمام إنما هي امتداد لعصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام، والعصمة التي تعتقدها الشيعة للأئمة من أهل بيت النبي الأكرمﷺ هي ذات العصمة المطلقة، التي تثبتها لأنبياء الله ورسله، وللنبي الأكرمﷺ بالخصوص، ولا يزيدون على ذلك شيئاً، وحيث أن عقيدتهم في الأنبياء والرسل - وخصوصاً أولي العزم منهم- أنهم معصومون من المعصية كلّها، ومن الخطأ والغفلة والسهو والنسيان من أول حياتهم إلى آخرها، كذلك يكون الأئمة والأوصياء، الذين هم امتداد واستمرار لخط النبوة والرسالة والهداية في الأمة.

ثالثاً: الأقوال في عصمة الأنبياء

كانت العصمة ولا زالت من الأبحاث المحورية التي شغلت الباحثين والمفكرين الإسلاميين على اختلاف فرقهم ومذاهبهم، ومن هنا نلمس أسباب الاختلاف الواسع وكثرة الأقوال في هذه المسألة، والذي يهمنا من نقل الأقوال هو أن تتجلى لنا خطة البحث وأهميته بصورة واضحة، ولذا نكتفي بما أورده العلامة المجلسي في هذا المجال، حيث قال:

«اعلم أن الاختلاف الواقع في هذا الباب بين علماء الفريقين يرجع إلى أقسام أربعة :

أحدها: ما يقع في باب العقائد.

وثانيها: ما يقع في التبليغ.

وثالثها: ما يقع في الأحكام والفتيا.

و رابعها: في أفعالهم وسيرهم عليهم السلام.

وأما الكفر والضلال في الاعتقاد فقد أجمعت الأمة على عصمتهم عنهما قبل النبوة وبعدها، غير أن الأزارقة من الخوارج جوزوا عليهم الذنب، وكل ذنب عندهم كفر، فلزمهم تجويز الكفر عليهم، بل يحكى عنهم أنهم قالوا: يجوز أن يبعث الله نبياً علم أنه يكفر بعد نبوته!.

وأما النوع الثاني وهو ما يتعلق بالتبليغ فقد اتفقت الأمة بل جميع أرباب الملل والشرائع على وجوب عصمتهم عن الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ عمداً و سهواً، إلا القاضي أبو بكر فإنه جوز ما كان من ذلك على سبيل النسيان وفلتات اللسان.

وأما النوع الثالث وهو ما يتعلق بالفتيا فأجمعوا على أنه لا يجوز خطاؤهم فيه عمداً وسهواً إلا شرذمة قليلة من العامة.

وأما النوع الرابع وهو الذي يقع في أفعالهم فقد اختلفوا فيه على خمسة أقوال:

الأول: مذهب أصحابنا الإمامية، وهو أنه لا يصدر عنهم الذنب لا صغيرة ولا كبيرة ولا عمداً ولا نسياناً ولا لخطأ في التأويل ولا للإسهاء من الله سبحانه، ولم يخالف فيه إلا الصدوق وشيخه محمد بن الحسن بن الوليد رحمهما الله، فإنهما جوزا الإسهاء لا السهو الذي يكون من الشيطان، وكذا القول في الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

الثاني: أنه لا يجوز عليهم الكبائر ويجوز عليهم الصغائر إلا الصغائر الخسيسة المنفّرة، كسرقة حبة أو لقمة، وكل ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضعة، وهذا قول أكثر المعتزلة.

الثالث: أنه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة على جهة العمد، لكن يجوز على جهة التأويل أو السهو، وهو قول أبي علي الجبائي.

الرابع: أنه لا يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ، لكنهم مأخوذون بما يقع منهم سهواً وإن كان موضوعاً عن أممهم، لقوة معرفتهم وعلو رتبتهم وكثرة دلائلهم وإنهم يقدرون من التحفظ على ما لا يقدر عليه غيرهم، وهو قول النظام وجعفر بن مبشر ومن تبعهما.

الخامس: أنه يجوز عليهم الكبائر والصغائر عمداً وسهواً وخطئاً، وهو قول الحشوية وكثير من أصحاب الحديث من العامة.

ثم اختلفوا في وقت العصمة على ثلاثة أقول:

الأول: أنّه من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله سبحانه، وهو مذهب أصحابنا الإمامية.

الثاني: أنّه من حين بلوغهم، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوة، وهو مذهب كثير من المعتزلة.

الثالث: أنه وقت النبوة، وأما قبله فيجوز صدور المعصية عنهم، وهو قول أكثر الأشاعرة ومنهم الفخر الرازي، وبه قال أبو هذيل وأبو علي الجبائي من المعتزلة.

إذا عرفت هذا فاعلم أن العمدة فيما اختاره أصحابنا - من تنزيه الأنبياء والأئمة عليهم السلام من كل ذنب ودناءة ومنقصة قبل النبوة وبعدها- قول أئمتنا سلام الله عليهم بذلك المعلوم لنا قطعاً بإجماع أصحابنا رضوان الله عليهم، مع تأيده بالنصوص المتضافرة حتى صار ذلك من قبيل الضروريات في مذهب الإمامية»(١).

والبحث في هذا الفصل يختص بمسألة عصمة الأنبياء في أفعالهم، أي عصمتهم من الذنب والسهو والخطأ والغفلة والنسيان، وهذا ما يمكن أن نسميه بالعصمة في أفق الزمان ومن جهة الإتيان بالفعل في الزمن الواحد، وأما عصمتهم من ناحية الوقت، أي منذ الولادة إلى الوفاة، فهذا ما سيأتي بحثه في الفصل اللاحق.

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار: ج١١ ص٨٩- ٩١، مؤسسة الوفاء- بيروت.

الأدلة على عصمة الأنبياء المطلقة

(من الذنب أو السهو والخطأ والغفلة والنسيان)

إنّ الأدلة على العصمة المطلقة كثيرة ومتنوعة، فقد دلّ على عصمة الأنبياء والرسل بتلك المنزلة الرفيعة - أي من الذنب والسهو والخطأ والغفلة والنسيان- صريح العقل والقرآن والسنة، ونشير فيما يلي إلى جانب منها ضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: الأدلة العقلية على العصمة المطلقة

لقد تعرض لذكر الأدلة العقلية حول العصمة جملة المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة وعلماء الشيعة الإمامية[1].

ويمكن إجمال الأدلة العقلية المذكورة في المقام بالنحو التالي:

الدليل الأول: العصمة وتربية الأمة

لا شك إن الهدف من بعثة الأنبياء هو تزكية نفوس الناس وتصفيتهم من الرذائل وغرس الفضائل فيهم وتطهير قلوبهم من دنس الذنوب، ومن الواضح أن ذلك يتوقف على إذعان من يُراد تزكيته وتربيته لصدق المربّي وإيمانه بتعاليمه والوثوق المطلق به، وإلا لفقدت التربية أثرها وانتفت الغاية من بعثة الأنبياء، ولا يتحقق الوثوق المطلق بالنبي ما لم

---

(١) لاحظ: المقداد السيوري، إرشاد الطالبين: ص٣٠١- ٣٠٣، مكتبة المرعشي العامة - إيران - قم ١٤٠٥ هـ الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص٩ وما بعدها، التفتازاني، شرح المقاصد: ج٥ص٥١- ٥٢، ط١، منشورات الشريف الرضي.

تثبت له العصمة بجميع مراتبها؛ لأن ما ينافي العصمة من المعصية أو الخطأ أو السهو أو النسيان يؤثر سلباً على ثقة الناس بأنبيائهم في إبلاغ الرسالة تامة كاملة عن الله تبارك وتعالى، خصوصاً وأن عموم الناس لا يفرّقون في حياتهم اليومية والمعاشية وفي معاملاتهم العرفية بين الانحراف الذي يقع من النبي في الرسالة التي بعث بها إليهم وبين الانحرافات الواقعة من النبي المبعوث في يوميات حياته، الخارجة عن دائرة وظائفه الرسالية، فإذا رأوا شخصاً معرضاً للذنب والخطأ والسهو والغفلة والنسيان ولو في بعض جوانب حياته غير المرتبطة بهم مباشرة، فإن طباعهم ونفوسهم تنفر وتأبى أن تقبل منه أمراً بالغ الأهمية والخطورة وهو البعثة من ربّ السماء بقانون وشريعة ترسم للبشرية مسيرتها التكاملية، لأن فطرتهم تمنعهم عن أن يأمنوا على علاقتهم مع خالقهم وتنظيم حياتهم فيما بينهم من مثل هكذا أشخاص، كما جاء التصريح بهذه الحقيقة وهي التزكية والتربية في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1]، وهذه الغاية الإلهية تنتفي في حال عدم العصمة؛ لفقدان الوثوق بالنبي المبعوث، ولذا نجد أن الله تعالى حفظ نبيه الأكرم عن تلك الصورة المسيئة لشخصيته الكريمة، حتى راح يُلقّب في قومه منذ نعومة أظفاره بالصادق الأمين.

ومضافاً إلى ذلك كلّه يلزم التضليل وإغراء الناس بالجهل في حال عدم العصمة، وهو قبيح لا يصدر من الحكيم جلّ وعلا في حقّ خلقه

---

(١) البقرة: ١٢٩.

من البشر، الذين هيأ لهم كل سبل وأسباب الهداية والرشاد، رحمة منه بهم وإتماماً لحججه البالغة عليهم.

الدليل الثاني: التناسب بين عظمة النعمة وقبح الذنب

لو صدر الذنب عن الأنبياء وكان ذلك الذنب صغيراً لكان حالهم في استحقاق الذم عاجلاً والعقاب آجلاً أشدّ من عصاة الأمة التي بعثوا إليها؛ وذلك لأن الله تعالى أنعم على أنبيائه ورسله بأعظم النعم وهي مقامات النبوة والرسالة، والعقل والنقل دلّ على أن كل من كانت نعم الله تعالى عليه أكثر وأوفر كان صدور الذنب عنه بكل أشكاله أفحش وأقبح، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾(١)، وليس ذلك إلا لنعمة اقترانهن بالنبي الأكرم ﷺ، ولا شك أن نعمة النبوة والرسالة أعظم وأشدّ من الاقتران الدنيوي بالذات المباركة لنبينا الأكرم ﷺ، وتلك المقامات الشامخة تستلزم أن يكون علمهم بالله تعالى أكثر وأتم من علوم سائر البشر بربهم، وهو يستتبع منهم كثرة المعرفة والخضوع والخشوع لبارئهم، المنافي لصدور الذنب منهم وإن كان صغيراً، فلو صدر عنهم الذنب مع ذلك كلّه، لكان حالهم في استحقاق الذم والعقاب أشدّ من آحاد عصاة الأمة، وهو باطل بالضرورة والإجماع.

ويضاف إلى ذلك لزوم وجوب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وردّ شهادتهم في الأمور الدنيوية والمعاشية، فضلاً عن الوحي والأحكام

---

(١) الأحزاب: ٣٠.

الإلهية، وكانو ا بذلك أدون حالاً من عدول رعيتهم، واحتاجوا أيضاً إلى من يسدّدهم ويرشدهم ويمنعهم عن الخطأ وينبههم على نسيانهم، وكان ذلك المرشد أحق بالاتباع منهم، وكانوا في تلك الحالة ظالمين، لتعديهم حدود الله **﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾**(١)، والظالم لا ينال المقامات الإلهية من النبوة والرسالة والإمامة؛ لقوله تعالى: **﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**(٢).

وهذا الدليل الثاني خاص بمسألة العصمة عن مطلق الذنب كما هو واضح.

الدليل الثالث: العصمة فرع من دوحة العلم والتقوى

ذكرنا سابقاً أن اللطف الإلهي هو ركيزة العصمة وأساسها، وقلنا إن اللطف هو العلم الخاص الشهودي الذي اصطفى الله تعالى به أنبياءه ورسله وخلفاءه في الأرض، وهو ما أوجب قوة نفسانية وحالة معنوية وملكة ربانية راسخة يمتنع الشخص ببركتها اختياراً من نفسه عن الوقوع في القبائح والمفاسد الواقعية والحقيقية للأعمال، التي اطلع بعلمه الخاص على مخاطرها الدنيوية والأخروية، حيث يرى المعصوم رأي العين تبعات إتيان المعاصي وترك الطاعات، مما يخلق منه إنساناً مثالياً ربانياً لا يخالف قول ربّه ولا يتعدّى الحدود التي رسمها له في حياته قيد أنملة.

---

(١) الطلاق: ١.
(٢) البقرة: ١٢٤.

وبالإضافة إلى ما تقدّم من الآيات في هذا المجال، هنالك جملة وافرة من الرويات وأقوال العلماء تؤكد هذه الحقيقة.

أما بالنسبة إلى الروايات فهي كثيرة ستأتي الإشارة إلى بعضها، ونكتفي هنا بما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث له مع أحد الزنادقة المشككين ببعثة الأنبياء، حيث قال في وصف الأنبياء:**«ثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عند ذلك أنه له معبّرين وهم الأنبياء وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقال الرسول ووجوب عدالته»**[(١)].

وبما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال:**«إن الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحلمه وما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق كل علم أهل زمانهم»**[(٢)].

وأما الأقوال في هذا المجال، فقد قال العلامة الطباطبائي في وصف الأنبياء:« آتاهم الله سبحانه من العلم ما هو ملكة تعصمهم من اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصي، وتمتنع معه صدور شئ منها عنهم صغيرة أو كبيرة»[(٣)].

---

(١) الشيخ الصدوق، علل الشرائع: ج١ ص١٢٠، المكتبة الحيدرية- النجف الأشرف..

(٢) الشيخ الصدوق، الأمالي: ص٧٧٨، مؤسسة البعثة- قم.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ج١١ ص١٦٢، مؤسسة إسماعيليان- قم.

وقال المناوي في شرحه للجامع الصغير حول علم الأنبياء:

«إن علم الأنبياء المستمد من علم الله، وعلمه لا يختلف باختلاف النسب الزمانية، فكذا علم أنبيائه حالة التجلّي والكشف. فهم لما خلقوا عليه من التطهير والتجرّد عن الأدناس صارت مراءات الكون تتجلّى في سرائرهم، وصار الكون كلّه كأنه جوهرة واحدة وهم مرآته المصقولة التي تتجلى فيها الحقائق والدقائق»(١).

وقال ابن خلدون في تاريخه في خصوص علوم الأنبياء:

«وعلومهم في تلك الحالة [حالة الوحي] علم شهادة وعيان، لا يلحقه الخطأ والزلل ولا يقع فيه الغلط والوهم، بل المطابقة فيه ذاتية لزوال حجاب الغيب وحصول الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة إلى البشرية لا تفارق علمهم الوضوح استصحاباً له من تلك الحالة الأولى»(٢).

الثمار والنتائج:

ويتضح من علاقة العصمة بالتقوى وتفرعها عن العلم الأمور التالية:

١- إن الجهل مرتع الفاحشة

حيث جاء في القرآن الكريم على لسان النبي يوسف عليه السلام أن سبب الوقوع في الفاحشة هو الجهل، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾(٣)، فقد عصم الله تعالى نبيه

---

(١) محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير: ج٦ ص٤٦٨، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) تاريخ بن خلدون: ج١ ص٣٣٨، كتاب التهجّد بالليل، ب١٦ ح١١٤٤، دار الفكر- بيروت.

(٣) يوسف: ٣٣.

يوسف عليه السلام بما آتاه من العلم الخاص، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١]، وقال يعقوب عليه السلام في ذكر هذا العلم اللدنّي: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢]، وقد بين الله تعالى أيضاً في آيات أخرى منزلة ذلك العلم، حيث قال عزّ وجلّ في أمر موسى والغلام الذي معه، عندما كانا يبحثان عن الخضر عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[٣]، وقد استمدّ آصف بن برخيا من ذلك العلم الإلهي الخاص القدرة الخارقة في إحضار عرش بلقيس بأقل من طرفة عين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[٤]، ومن ذلك العلم الخاص أيضاً علم النبي المعصوم بمقام ربّه الشامخ، حيث يخلق فيه ذلك العلم حالة خاصة من التقوى تسمو على درجات التقوى عند الآخرين بما لا يقاس ولا يداني، وهذا هو ما نسميه بحالة وملكة العصمة المطلقة عند الأنبياء، التي تختلف عن العدالة عند الآخرين.

٢- تنام عين النبي ولا ينام قلبه

إن من يكون واقفاً ومطلعاً بلطف الله وتوفيقه بنحو من العلم الشهودي اللدنّي الخاص، بشكل ترتفع فيه الحجب والجهالات لا

---

(١) يوسف: ٢١.

(٢) يوسف: ٨٦

(٣) الكهف: ٦٥.

(٤) النمل: ٤٠.

يتصدّى لمعصية الله تعالى ولا يعترضه السهو ولا الخطأ ولا النسيان للوقوع في قبائح الأفعال التي يشاهدها، ولا تغيب عنه ولا ينام قلبه أو يغفل عن رؤيتها، كل ذلك بفضل واقع العلم الذي اختصه به الله تعالى، وقد جاء في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله:«**إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**»(١)، وقد أدرج الألباني هذا الحديث في ضمن سلسلة الأحاديث الصحيحة(٢).

وقال أيضاً صلى الله عليه وآله:«**إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي**»(٣).

وفي حديث ثالث عنه صلى الله عليه وآله قال:«**إني لست كأحدكم، إنه تنام عيناي ولا ينام قلبي**»(٤).

وقال المناوي في تعليقه على هذه الروايات:

«بل هي [أي قلوب الأنبياء] دائمة اليقظة لا يعتريها غفلة ولا يتطرّق إليها شائبة نوم لمنعه من إشراق الأنوار الإلهية الموجبة لفيض المطالب السنية عليها؛ ولذا كانت رؤياهم وحياً»(٥).

٣- إن السهو والخطأ والنسيان يتنافى ومبدأ العصمة

مما تقدم يتضح أيضاً أن فرض تطرق السهو والنسيان والخطأ إلى

---

(١) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات: ص٤٤١، منشورات الأعلمي- طهران/ ابن سعد، الطبقات الكبرى: ج١ ص٨٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

(٢) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج٤ ص٢٨١، ح١٧٠٥- مكتبة المعارف - الرياض.

(٣) البخاري، الجامع الصحيح: ج١ ص٣٨٥.

(٤) أبو بكر الجصاص، أحكام القرآن: ج٢ ص٤١٧- ٤١٨، ط١- دار الكتب العلمية - بيروت.

(٥) المناوي، فيض القدير: ج٢ص٥٥١، ط١- المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

الأنبياء يخالف ويضاد مبدأ العصمة، التي هي العلم التام بعواقب الأمور، بنحو من الشهود والحس واللمس الحضوري لكبوات الأفعال ومضارّها.

حاصل البيانات المتقدمة:

إنّ العصمة إذا ثبتت لشخص فهي مانعة له عن الوقوع في الذنب والمعصية وكذا الخطأ والسهو والنسيان، سواء في تبليغ الشريعة والأحكام أم في غيرها، وهو ما يسمّى بالعصمة في الموضوعات؛ وذلك لأن العصمة هي الدرجة العليا من التقوى النابعة عن علم خاص حضوري، يرى المعصوم بواسطته توابع الأعمال وعواقبها، ويستشعر عظمة وجلالة الخالق عزّ وجلّ، وهو ما يصدّه عن المخالفة والعصيان ويرفع عنه حالة السهو والخطأ وما يوجب الغفلة والنسيان، فإذا وصل الشخص إلى الدرجة القصوى من العلم الشهودي والتقوى فإنه يبلغ درجة لا يُرى في حياته أثر للتمرّد والعصيان والتجرّي، وتكون ساحته نقية عن كل عيب وشين وزلل أو خلل، مضافاً إلى أن الذنب والخطأ والنسيان والسهو من الأنبياء وإن كان صغيراً يرفع الثقة في نفوس الأتباع ويتنافى مع مبدأ التزكية والتربية الذي بعث من أجله الأنبياء مما يوجب نقض الغرض، ويوجب أيضاً استحقاقهم أشدّ الذم والعقوبات.

المبحث الثاني: الأدلة القرآنية على العصمة

لقد تقدم ذكر بعض الآيات المباركة الدالة على عصمة بعض الأنبياء، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(١)، وقال تعالى على لسان زليخا امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ﴾(٢)، وقال عزّ وجلّ على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٣)، ومن مجموع هذه الآيات الثلاث - التي وردت في سياق حادثة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام - يتضح أن البرهان الذي اختص الله تعالى به يوسف عليه السلام هو العلم الربّاني الذي استعصم به فصرف الله تعالى بواسطته عن يوسف السوء والفحشاء؛ ولذا علل يوسف عليه السلام الصبوة إلى النساء والوقوع في كيدهن بالجهل وفقدان البرهان الإلهي. ذلك البرهان الذي كان يوسف عليه السلام مطلعاً عليه وعالماً به، خصوصاً وأنه عليه السلام من المخلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم، فمعرفته بربه تبارك وتعالى وقفت ستاراً حائلاً بينه وبين تلك المرأة التي وقعت في غرام حبّه، وهو مبدأ العصمة الذي نقصده، ولذا قدّم يوسف الصدّيق ذكر ربه عند مراودة امرأة العزيز له على كل شيء حتى ذاته، حيث قال: ﴿مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾(٤) فلم يتعرض لذاته إلا بعد أن ذكر ربّه.

---

(١) يوسف: ٢٤.

(٢) يوسف: ٣٢.

(٣) يوسف: ٣٣.

(٤) يوسف: ٢٣.

وهناك جملة من الأدلة القرآنية حول عصمة الإمام شاملة لعصمة الأنبياء أيضاً موكولة إلى العصمة في مبحث الإمامة.

ولكن مع ذلك نشير إلى بعض الآيات الأخرى التي صرحت بعصمة الأنبياء عموماً، وذلك ضمن القسمين التاليين:

القسم الأول: العصمة في تلقي الوحي وتبليغه

وفيما يلي نكتفي بذكر دليلين على العصمة في تلقي الوحي وتبليغه، وذلك لإجماع المسلمين على ثبوت ذلك للأنبياء جميعاً:

الدليل الأول: الرقابة الإلهي في حفظ الرسالة

قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**﴾[1]، فإن الآية الكريمة دالة بوضوح على أن الله تعالى أظهر أنبياءه ورسله وأطلعهم على غيبه ووحيه وعصمهم في مقام تلقّي الوحي وفي مقام إبلاغه للناس، ذلك بجعل الرصد والرقابة والحراسة الخاصة من بين أيديهم ومن خلفهم - أي تلقياً وإبلاغاً - لكي تصل رسالات الله تعالى إلى الناس تامة كاملة منزهة عن كل نقص وحيف ومصاحبة للحقّ، وتكون الحجة بذلك تامة لله على الخلق.

---

(١) الجن: ٢٦- ٢٨.

الدليل الثاني: نزول الوحي بالحق

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، وهذه الآيات الكريمة واضحة وصريحة في أن الكتاب الإلهي الذي هو الوحي نزل بالحق ومصاحباً له بلا أي افتراق بينهما أبداً إلى أن يصل بأيدي الناس، ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، حكماً عادلاً مستقيماً لا يشوبه الباطل ولا الاختلاف.

ولا نطيل الكلام في هذه المسألة، لأنها تكاد تكون اتفاقية بين المسلمين.

القسم الثاني: العصمة العامة والمطلقة

هناك آيات كثيرة ومتعددة دالة على العصمة المطلقة للأنبياء في القرآن الكريم، نحاول الإشارة إلى بعضها:

الآية الأولى: لا مجال للضلال في ساحة الأنبياء المطهرة

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2] إلى أن قال تعالى لنبيه الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[3]، فهتان

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الأنعام: ٨٤.

(٣) الأنعام: ٩٠.

الآيتان الكريمتان تصفان الأنبياء عليهم السلام بأنهم مهتدون بهداية خاصة من الله تعالى إلى صراطه المستقيم، هذا من جانب.

ومن جانب آخر قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾(١)، وإذا كان الأنبياء ممن هدى الله فما لهم من مضل، فلا يوجد مجال للضلال في ساحة الأنبياء المطهّرة، ومن الواضح أن كل معصية أو خطأ أو نسيان أو سهو في فهم الوحي أو إبلاغه أو تطبيقه وإجرائه والسير على خُطاه يعدّ انحرافاً وزيغاً عن صراط الهداية الحقّة المستقيمة، ويعدّ أيضاً من الضلال الذي هو من نتائج فعل الشيطان وإضلاله.

الإسهاء والإنساء من فعل الشيطان:

إن الآيات المباركة تحصر عمل الشيطان وسلطانه بالإضلال عن الصراط المستقيم، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاً كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾(٣).

ثم إنه قد نسب الله عزّ وجلّ السهو والنسيان والإنساء إلى الشيطان وفعله الذي هو الضلال والإضلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ

(١) الزمر: ٣٦- ٣٧.
(٢) القصص: ١٥.
(٣) يس: ٦٠- ٦٢، وسيأتي البحث فيما قد يتوهم من منافاة هذه الآيات لعصمة الأنبياء.

الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١]، فإثبات الهداية الإلهية الخاصة للأنبياء ونفي الضلال والإضلال عنهم، الذي هو من فعل الشيطان، تبرئة منه تعالى وتنزيه لساحة أنبيائه عن صدور المعصية، ووقوع السهو والنسيان منهم الذي هو من فعل الشيطان ونزغه ووسوسته، ومن ذلك يتضح أن آية إنساء الشيطان التي ذكرناها آنفاً ليس المقصود فيها بالذات هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، بل هي تجري مجرى المثل القائل: (**إياك أعني واسمعي يا جارة**)، فليس الخطاب في الآية متوجهاً للنبي صلى الله عليه وآله كي تكون دالة على تحقق النسيان منه صلى الله عليه وآله، وذلك لأن الشيطان لا مجال لسلطانه في حياة الأنبياء كما ذكرنا.

الآية الثانية: لا سلطان للشيطان على المخلصين

لقد عبّر القرآن الكريم عن أنبياء الله تعالى بالمخلصين، وأن الله تعالى أخلصهم بخالصته وعنايته الخاصة. قال عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ۞ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۞ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[٢]، وقال تعالى أيضاً في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾[٤]، هذا من

---

(١) الأنعام: ٦٨.

(٢) سورة ص: ٤٥- ٤٧.

(٣) يوسف: ٢٤.

(٤) مريم: ٥١.

جهة.

ومن جهة أخرى قد حكى الله عزّ وجلّ عن الشيطان قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]، فهذه الآيات المباركة تبيّن أن الأنبياء - الذين هم القدر المتيقن من العباد المخلصين- منزهون عن إغواء الشيطان لهم وجرّهم واستدراجهم إلى سُبل الضلالة والانحراف عن الصراط المستقيم، ولا شك أن السبب في يأس الشيطان من إغوائهم هو ما يملكونه من تنزيه وصيانة ربانية من الضلال والانحراف، وإلا فلو كان يمكنه إغواؤهم لما تخلّى عن ذلك أبداً، وهذا يعني أن عنوان المخلَص (بالفتح) مساوق لعنوان المعصوم؛ وذلك لأن من لا سبيل للشيطان عليه لا مجال للانحراف والضلال في حياته، بعد أن كان الانحراف والإضلال من سُبل الشيطان وحبائله.

ثم إن ذكر طائفة خاصة من الأنبياء في الآيات المباركة لا يعني اختصاصهم بعنوان المخلص، ولا إثبات عصمتهم دون سائر الأنبياء؛ وذلك لعدم القول بالفصل بين عموم الأنبياء في إثبات العصمة عند المسلمين.

وقال الفخر الرازي بعد استدلاله على العصمة بما تقدّم من الآيات:

«فلمّا أقرّ إبليس أنه لا يغوي المخلصين، وشهد الله بأن هؤلاء - أي الأنبياء- من المخلصين ثبت أن إغواء إبليس ووسوسته ما وصلت إليهم، وذلك يوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم»[2].

---

(١) سورة ص: ٨٣ - ٨٤.

(٢) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص١٢.

الآية الثالثة: عصمة المصطفين

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[(١)].

قال الشيخ الطوسي في تفسيره للآية المباركة:« والاصطفاء إخراج الصفوة من كل شئ، فهم صفوة وغيرهم كدر، فالله تعالى اصطفى هؤلاء الأنبياء بأن اختارهم لنبوته بحسب ما سبق في علمه أنه يكون منهم من القيام بأعباء النبوة والمسارعة إلى الخير والتبرز في الفضل»[(٢)].

وقال الفخر الرازي في تفسير الآية أيضاً:«وهو إن اللفظين، أعني قوله تعالى (المصطفين) وقوله (الأخيار) يتناولان جملة الأفعال والتروك، بدليل جواز الاستثناء، يقال: فلان من المصطفين الأخيار إلا في كذا، والاستثناء يُخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فدلّت الآية على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار في كل الأمور، وهذا ينافي صدور الذنب عنهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ...﴾.

لا يقال: الاصطفاء لا يمنع من فعل الذنب، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قسّم المصطفين إلى الظالم والمقتصد والسابق.

لأنا نقول: الضمير في قوله (فَمِنْهُمْ) عائد إلى قوله (مِنْ عِبَادِنَا) لا إلى قوله ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾؛ لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب»[(٣)].

---

(١) سورة ص: ٤٧.

(٢) الشيخ الطوسي، التبيان: ج ٨ ص٥٧١ _ ٥٧٢، مكتب الإعلام الإسلامي- طهران.

(٣) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص١١- ص١٢.

الآية الرابعة: عصمة فريق من المؤمنين

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)].

قال الفخر الرازي أيضاً:

«فهؤلاء الذين لم يتبعوا إبليس إما أن يقال إنهم الأنبياء أو غيرهم، فإن كانوا غيرهم لزم أن يكونوا أفضل منهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وتفضيل غير النبي على النبي باطل بالإجماع، فوجب القطع بأن أولئك الذين لم يتبعوا إبليس هم الأنبياء عليهم السلام[(٢)]، وكل من أذنب فقد اتبع إبليس، فدلّ هذا على أن الأنبياء صلوات الله عليهم ما أذنبوا»[(٣)].

بل تدلّ الآية على العصمة المطلقة للأنبياء، لعدم اتباعهم إبليس الذي هو مبدأ كل انحراف عن واقع الحق المستقيم، ومنشأ كل خطيئة واختلاف.

الآية الخامسة: الاجتباء عصمة عن اختيار

قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[(٤)]، تقدم عن الفخر الرازي أن الاجتباء

---

(١) سبأ: ٢٠.

(٢) هذا على مذهب الطائفة السنية، وأما على مذهبنا فإن خلفاء الله وأوصياء الأنبياء يدخلون في جملة الأنبياء في عدم اتباعهم الشيطان لعصمتهم وأفضليتهم كما سيأتي.

(٣) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص١٣.

(٤) الأنعام: ٨٦ - ٨٩.

والاصطفاء في مثل هذه الآيات يتناول جملة الأفعال والتروك، بدليل جواز الاستثناء، فالآية تدل على أن الله تعالى اجتبى أنبياءه ورسله في كل الأمور، مما ينافي صدور الذنب عنهم، وكذلك توفرت هذه الآيات المباركة على الهداية الخاصة لأنبياء الله تعالى، ﴿وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ﴾[(١)]، وفي هذه الآيات المباركة دلالة على أن العصمة والاجتباء والهداية الخاصة لا تنافي صدور جملة الأفعال أو التروك من الأنبياء عليهم السلام باختيارهم، فالأنبياء بإمكانهم أن يشركوا بالله تعالى. وإن كان الاجتباء والهدى والعصمة الإلهية مانعة من وقوع ذلك.

الآية السادسة: العصمة المطلقة لمن نال مقام الإمامة من الأنبياء

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[(٢)]

إنّ هذه الآية المباركة تصرّح بأن مقام الإمامة لا يناله إلا من امتحنه الله تعالى وابتلاه بابتلاءات خاصة وأتمها بنجاح، وعندما طلب إبراهيم عليه السلام مقام الإمامة الشامخ لذريته أجابه الله تعالى بأن هذا المقام لا ينال الظالمين ولا ينالونه.

ولاشك أن إبراهيم عليه السلام على جلالة قدره وعظم منزلته عند الله تعالى لا يمكن أن يطلب هذا المقام الإلهي الرفيع لمن كان ظالماً في أيام حياته كلّها، كما أنه عليه السلام لا يطلبه أيضاً لمن كان منحرفاً وظالماً في نهاية

---

(١) الزمر: ٣٧.

(٢) البقرة: ١٢٤.

عمره، فإن هكذا شخص لا يستحق أن ينال الإمامة ويقود الأمة إلى الصلاح، لأنه يجرّها إلى الضلال والانحراف، وهذا مخالف للهدف والحكمة الإلهية من خلق الإنسان، وهو ما لا يخفى على إبراهيم عليه السلام، إذاً فهو عليه السلام لا يطلب الإمامة لهذين الصنفين من ذريته، فينحصر طلبه لمن لا يكون ظالماً طوال حياته، وكذا لمن تلبس بالظلم في فترة من فترات حياته ثم تاب في القسم الأخير منها وهو يطلبها له في حال توبته، وهنا جاء الردّ من الله تعالى في الآية المباركة لينفي صلاحية الصنف الثاني لتسنّم منصب الإمامة، وهو الذي صدر منه الظلم في أول عمره ثم تاب بعد ذلك.

إذن فالإمامة من المقامات الإلهية التي لا ينالها إلا المعصوم عن مطلق الظلم في حياته كلّها، وحيث أثبت القرآن الكريم أن جملة وافرة من الأنبياء جعلهم الله تعالى أئمة وقادة على خلقه فلابدّ أن يكونوا معصومين عن كل أشكال الظلم وأنحائه، وأما الآيات التي أثبتت إمامة بعض الأنبياء فهي كثيرة، منها الآية التي هي محل البحث، حيث أثبتت إمامة إبراهيم عليه السلام وكل من لم يكن ظالماً من ذريته، ومنهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن تلك الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيم * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِين * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِين * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا

(١) الأنبياء: ٦٩- ٧٣.

تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1]، فهذه الآيات المباركة تثبت العصمة للأنبياء المذكورين فيها بواسطة نسبة مقام الإمامة إليهم، وحيث أنه لم يُفصّل أحد في عصمة الأنبياء بين نبي ونبي آخر، فتثبت العصمة المطلقة عن الظلم والذنب لجميع الأنبياء.

ولكن هذه الآية كما هو واضح لا تشمل العصمة عن السهو والخطأ والنسيان، وإنما تختص بمطلق الذنب والمعصية وكل ما ينطبق عليه عنوان الظلم.

الآية السابعة: وجوب الطاعة المطلقة للإنبياء عليهم السلام

لقد أمر الله تعالى الناس بطاعة أنبيائه ورسله والانقياد لهم، ولم يقيد وجوب طاعتهم بأي قيد أو شرط، وهذا ما ورد في جملة من الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2]، وقد حكى الله تعالى في سورة الشعراء عن أنبيائه نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام أنهم كانوا يكررون مطالبة قومهم بالطاعة والانقياد لأوامرهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[3]، وقد دعا الله تعالى الناس إلى طاعة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والانقياد لأوامره في أكثر من ثلاثين آية من آيات القرآن الكريم بلفظ الطاعة، وقرن طاعة الرسول صلى الله عليه وآله بطاعته في جملة من الآيات وقال عزّ وجلّ: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ

---

(١) السجدة: ٢٣- ٢٤.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) الشعراء: ١٠٨- ١١٠- ١٢٦- ١٣١- ١٤٤- ١٥٠- ١٦٣- ١٧٩.

اللَّهَ﴾[١]، فهذه الآيات المباركة أثبتت للأنبياء عليهم السلام وجوب الطاعة مطلقاً، أي في كل الأمور التي من شأنها أن تطاع كالأفعال والأقوال، ومع احتمال الذنب أو الخطأ أو السهو أو النسيان في كل ما له مساس بالطاعة مما يوجب الخروج عن جادة الصراط المستقيم، فإنه يكون مخالفاً للحكمة الإلهية وموجباً للأمر باتباع الخطأ والزلل والضلال وهو مستحيل على الله تعالى، كما ينافي هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا﴾[٢]، لأن الله تعالى بيّن في آيات أخرى أن الذين أنعم عليهم على صراط مستقيم، حيث قال في سورة الحمد: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[٣]، فلو كان المطيع لأنبياء الله تعالى طاعة تامة على صراط مستقيم مع الذين أنعم الله عليهم، فلا شك أن النبي المطاع كذلك على صراط مستقيم في قوله وفعله وكل ما هو أسوة وقدوة فيه.

قال العلامة الطباطبائي في هذا المجال:

«ومما يدل على عصمتهم عليهم السلام قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، حيث جعل كون الرسول مطاعاً غاية للإرسال، وقصر الغاية فيه، وذلك يستدعي بالملازمة البيّنة تعلق إرادته تعالى بكل ما يطاع فيه الرسول، وهو قوله أو فعله»[٤].

---

(١) النساء: ٨٠.

(٢) النساء: ٦٩.

(٣) الحمد: ٦- ٧.

(٤) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير الميزان: ج٢ ص١٣٧، مؤسسة إسماعيليان- قم.

وقال الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[١]:

« ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطئاً منهي عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنه محال»[٢].

الآية الثامنة: عصمة الصادقين

قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٣].

هذه الآية المباركة دالة على العصمة المطلقة أيضاً، لأنها تأمر المؤمنين بالكون مع صنف خاص من الناس وهم الصادقون، وذلك لأن تقوى الله تعالى بالكينونة مع الصادقين وهو الذي يحفظ المؤمنين من كل زيغ عن طريق الحق والصدق، ولا يمكن أن يتحقق هذا الأمر إلا بأن يكون الصادقون معصومين بالعصمة المطلقة، وليس المراد من الصدق ما يقابل الكذب الاصطلاحي فحسب، وذلك بقرينة الأمر بالتقوى، وعدم تقييد لفظ الصادقين بالقول أو غير ذلك، وإطلاق الأمر بالكون معهم بأن يكون فعلهم مشاكلاً ومصاحباً لفعل الصادقين، وهو

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ج١٠ ص١٤٤.

(٣) التوبة: ١١٩.

نحو من أنحاء الاتباع.

ثم إنه لا شك أن الأنبياء عليهم السلام هم أوضح من ينطبق عليه عنوان الصادقين، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾(١).

قال الفخر الرازي في تفسيره للآية:

«إن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أمر لهم بالتقوى، وهذا الأمر إنما يتناول من يصح منه أن لا يكون متقياً، وإنما يكون كذلك لو كان جائز الخطأ. فكانت الآية دالة على أن من كان جائز الخطأ وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العصمة، وهم الذين حكم الله تعالى بكونهم صادقين، فهذا يدل على أنه واجب على جائز الخطأ كونه مع المعصوم عن الخطأ حتى يكون المعصوم عن الخطأ مانعاً لجائز الخطأ عن الخطأ»(٢).

الآية التاسعة: العصمة المطلقة والعامة ليحيى عليه السلام

حيث قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء ۝ فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(٣).

قال القاضي عياض:

---

(١) يس: ٥٢.
(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ج١٦ ص٢٢١.
(٣) آل عمران: ٣٨- ٣٩.

«فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه حصور ليس كما قال بعضهم: إنه كان هيوباً، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حُذّاق المفسرين ونقّاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب لا تليق بالأنبياء.

وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتي بها كأنه حُصر عنها»[(١)].

وقال ابن كثير بعد استعراضه كلام القاضي عياض:

«والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور، ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات»[(٢)].

وقال البيضاوي في تفسيره:

«﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم، وكان فائقاً للناس كلّهم في أنه ما هم بمعصية قط «وحصوراً» في حبس النفس عن الشهوات والملاهي»[(٣)].

وعن النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال عندما قرأ قوله تعالى: ﴿سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: «**لم يعمل سيئة قط ولم يهم بها**»[(٤)].

ورجال الحديث ثقات كلّهم، إلا علي بن زيد بن جدعان، وقال عنه أحمد بن عبد الله العجلي: كان يتشيّع لا بأس به. وقال يعقوب بن شيبة: ثقة صالح الحديث، وقال الترمذي: صدوق، وقال أبو أحمد بن عدي: لم

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج١ ص٨٣، دار الأرقم - بيروت، لبنان.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج١ ص٣٤٢، دار الجيل - بيروت.

(٣) البيضاوي، تفسير البيضاوي: ج٢ ص٣٦، دار الفكر - بيروت.

(٤) الطبراني، المعجم الكبير: ج١٢ ص٢١٨، ط٢- مكتبة العلوم والحكم - الموصل.

أر أحداً من البصريين وغيرهم امتنعوا من الرواية عنه(١).

وقال عنه الذهبي: من أوعية العلم(٢).

وقال عنه أيضاً: الإمام العالم الكبير(٣).

الآية العاشرة: نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله على صراط مستقيم

قال الله تعالى مخاطباً نبيه الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

إن هذه الآية الكريمة واضحة الدلالة في عصمة نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله المطلقة، لأنه صلى الله عليه وآله بنص هذه الآية المباركة على صراط مستقيم لا يذنب ولا يخطأ ولا ينسى ولا يقع منه أي شيء من هذا القبيل، مما هو خارج عن سبيل الواقع وصراط الحق المستقيم، وقد تقدم في الآيات التي سبقت أن الأنبياء كلّهم على صراط مستقيم فهم بأجمعهم معصومون بالعصمة المطلقة.

قال العلامة الحلّي في كتابه الألفين:

« قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا يدل على عصمة النبي، لأن معنى كونه على صراط مستقيم أنه لا يجوز عليه الخطأ بل كل أفعاله صواب، وإلا لخرج عن الاستقامة في وقت ما، لكن إنما

---

(١) المزي، تهذيب الكمال: ج٢٠ ص٤٣٨، ط١ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج٨ص٢٩٤، ط٩- مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج٥ص٢٠٦، ط٩- مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٤) يس: ١- ٤.

يقال أنه على صراط مستقيم إن لو كان كذلك دائماً. ولأنه ترغيب في وجوب اتباعه وإعلام للأمة أن النبي (عليه الصلاة والسلام) على صراط مستقيم فاتبعوه إلى ذلك الصراط ما دام هو نبي، لكن النبوة له دائماً وعلى كل التقادير فكذا وجوب الاتباع، فيكون على صراط مستقيم دائماً»[١].

الآية الحادية عشر: العصمة العامة لنبينا الأكرم صلى الله عليه وآله

قال تعالى في حق نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٢]، فإن هذه الآية الكريمة صريحة في عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بكل درجات العصمة وأبعادها، وأنه صلى الله عليه وآله لا تداخله الضلالة ولا الغواية ولا ينطق عن الهوى أبداً. وإنما أصبحت ذاته المقدّسة بسبب اصطفائه عبارة عن وحي يوحى من الله تعالى في كل شؤونها من القول والفعل أو الخطأ والسهو والنسيان أو غير ذلك، خصوصاً وأن الله تعالى أطلق لفظ الغواية على ما صدر عن آدم من ترك الأولى كما سيأتي، حيث قال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٣]، كما أنه تعالى أطلق لفظ الضلال على الغفلة النسيان، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾[٤]، وهذا يعني أن نفي الضلال والغواية عن النبي صلى الله عليه وآله إثبات لعصمته عن ترك الأولى والغفلة والنسيان.

---

(١) العلامة الحلّي، الألفين: ص٢٩٣، مكتبة الألفين- الكويت.
(٢) النجم: ٢- ٤.
(٣) طه: ١٢١.
(٤) البقرة: ٢٨٢.

الأقوال حول هذه الآية المباركة

١- قال الشيخ المفيد فيما جمعه عنه السيد المرتضى في الفصول المختارة:

«قال الله تعالى وقد ذكر معصية آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، فسمى المعصية غواية وذلك حكم كل معصية، إذ كان فاعلها يخيب بفعلها من ثواب تركها، وكانت الغواية هي الخيبة في وجه من الوجوه، وعلى مفهوم اللغة، قال الشاعر:

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

وقال الله سبحانه في آية الدين عند ذكر الشهود: ﴿ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ يريد لئلا تنسى إحداهما، فسمى النسيان ضلالاً، وذلك معروف في اللغة، فلما تقرر أن كل معصية غواية وكل نسيان ضلال دل قوله سبحانه وتعالى: ﴿**والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى**﴾ على أنه قد نفى عن نبيه (عليه وآله السلام) المعاصي على كل وجه والنسيان من كل وجه، وهذا بين لمن تأمله»[1].

٢- قال الشوكاني في فتح القدير:

«أي: ما ضل محمد عن الحق والهدى ولا عدل عنه، والغي: ضد الرشد، أي: ما صار غاوياً، ولا تكلم بالباطل... وفي قوله: (صاحبكم) إشارة بأنهم مطّلعون على حقيقة حاله، والخطاب لقريش ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ

---

(١) السيد المرتضى، الفصول المختارة: ص ١٠٤، دار المفيد- بيروت.

﴿الْهَوَى﴾ أي: ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره»[١].

٣- قال الصابوني في تفسيره:

«(ما ضل صاحبكم) أي: ما ضل محمد عن طريق الهداية، ولا حاد عن نهج الاستقامة « وَمَا غَوَى» أي: وما اعتقد باطلاً قط، بل هو في غاية الهدى والرشد، قال أبو السعود: والخطاب لكفار قريش، والتعبير بلفظ (صاحبكم) للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، فإن طول صحبتهم له ومشاهدتهم لمحاسن أوصافه العظيمة مقتضية ذلك، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ أي: لا يتكلم ﷺ عن هوى نفسي ورأي شخصي ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: لا يتكلم إلا عن وحي من الله عزّ وجلّ»[٢].

٤- قال أبو بكر الجزائري في أيسر التفاسير:

«﴿ مَا ضَلَّ﴾ محمد صاحب قريش الذي صاحبته منذ ولادته ولم يغب عنها ولم تغب عنه مدّة تزيد على الأربعين سنة، فهي صحبة كاملة ما ضل عن طريق الهدى وهم يعرفون هذا ﴿ وَمَا غَوَى﴾ أيضاً أية غواية، وما لابسه جهل في قول ولا عمل فغوى به، ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ بالقرآن وغيره مما يقوله ويدعو إليه عن هوى نفسه، كما قد يقع من غيره من البشر ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: ما هو أي: الذي ينطق به ويدعو فيه ويعمله إلا وحي يوحى إليه»[٣].

٥- قال القاضي عياض في كتابه الشفا في سياق الحديث عن سورة

---

(١) الشوكاني، فتح القدير: ص١٦٩٣، ط١- دار ابن حزم - لبنان - بيروت.

(٢) محمد الصابوني، صفوة التفاسير:ج٣ ص٢٣٥- ٢٣٦، ط١- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

(٣) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: ج٥ ص١٨٣٧، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

النجم ذاتها:

«قال القاضي أبو الفضل: اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكية جملته عليه السلام وعصمتها عن الآفات في هذا المسرى، فزكّى فؤاده ولسانه وجوارحه، فزكى قلبه بقوله ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ولسانه بقوله ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ وبصره بقوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾»[(١)].

٦- قال القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾:

«وفيها دلالة على أن السنة كالوحي المنزل في العمل»[(٢)].

دائرة عصمة النبي صلى الله عليه وآله

ومن ذلك كلّه يتضح أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله معصوم عن الضلال في العمل، وعن الغواية في العقيدة والمعتقد، فما اعتقد باطلاً ولا حاد عن نهج الاستقامة وما لابسه جهل في قول ولا عمل وما ينطق بالقرآن وغيره مما يقوله ويدعو إليه عن الهوى، وما هو فيما يدعو إليه ويعمله إلا وحي يوحى، قد عصمه الله تعالى من الآفات فزكّى فؤاده ولسانه وبصره وسائر جوارحه، فكل ما يصدر عنه من قول وفعل وتقرير فهو وحي أو كالوحي المنزل، وهذه هي أعلى درجات العصمة والطهارة بكافة أبعادها وحدودها، ومن سعة دلالة هذه الآية على عصمة نبينا الأكرم نستكشف أن دائرة عصمته صلى الله عليه وآله أوسع وأشمل من دائرة عصمة سائر الأنبياء، بمعنى أنه صلى الله عليه وآله معصوم عن ترك الأولى أيضاً، فالنبي الذي كان خلقه القرآن ولا

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج١ ص٤٢، دار الأرقم - بيروت - لبنان.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج١٧ ص٨٥ دار إحياء التراث العربي - بيروت.

يسير إلا بخطاه التي هي على صراط مستقيم لا يمكن أن نتصور في حقه حتى ما يسمى بترك الأولى، لأن ذاته المباركة امتزجت بالطهارة والقداسة فكانت بكليتها وتمام وجودها وحي يوحى من الله جلّ علاه ﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١]، وبخلاف ذلك في سائر الأنبياء، حيث أن بعضهم صدر منه ترك الأولى وعوتب عليه، كما سيأتي لا حقاً ذكر ذلك، مع بيان المراد من ترك الأولى وكيف أنه لا يتنافى مع العصمة المصطلحة والمطلقة للأنبياء.

وسيأتي في الروايات والأقوال ما فيه دلالة على ذلك أيضاً.

ثم إن هذه الآية المباركة دالة على عصمة سائر الأنبباء أيضاً، كما نصّ على ذلك العلامة الزرقاني في شرحه للمواهب اللدنّية للقسطلاني، حيث ذكر:«إن العلة في نفي الضلال هي العصمة لإكرام الله تعالى له بالنبوة، وهذه العلة يشاركه فيها جميع الأنبياء»[٢].

ونص أيضاً على أن الآية تثبت العصمة في مجموع حياة النبي الأكرم بعد النبوة وقبلها، وذلك لأن الأفعال بمنزلة النكرات والنكرة، فكأنه قال: ما صدر منه ضلال لا قبل النبوة ولا بعدها[٣].

وهناك أيات أخرى عديدة تثبت عصمة الأنبياء وعصمة نبينا الأكرم بالخصوص كآية التطهير وغيرها، إلا أنها موكولة مبحث الإمامة.

---

(١) النجم: ٢- ٤.

(٢) لاحظ: شرح العلامة الزرقاني: ج٩ ص٣- ٤، ط١- دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) الزرقاني، شرح العلامة الزرقاني: ج٩ ٣- ٤، ط١- دار الكتب العلمية - بيروت.

المبحث الثالث: الأدلة من السنة النبوية على العصمة المطلقة

إنّ الأدلة في هذا المجال كثيرة وهي عبارة عن جملة من الروايات الواردة من طرق الفريقين والدالة على عصمة الأنبياء المطلقة، وهي كالتالي:

الرواية الأولى: الأمن من الخطايا والزلل والعثار

أخرج الكليني في الكافي عن الإمام الرضا عليه السلام، قوله: **«وإن العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ لأمور عباده، شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعي بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيد، موفق مسدد، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده، وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»**(١). إن هذه الرواية الشريفة تصرح بالعصمة المطلقة لأنبياء الله وأصفيائه، لأن الله تعالى يؤيدهم ويسدد خطاهم عن الوقوع في الخطايا أو الخروج عن الصراط المستقيم بالزلل والعثار، وهذا هو ما نقوله ونؤمن به من مبدأ العصمة المطلقة.

الرواية الثانية: الأنبياء لا يذنبون ولا يزيغون

أخرج الصدوق في الخصال عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: **« إن أيوب عليه السلام ابتلي من غير ذنب، وإن الأنبياء لا يذنبون لأنهم معصومون مطهرون، لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً، صغيراً ولا كبيراً»**(٢)، هذه الرواية

---

(١) الكليني، الكافي: ج١ ص٢٠٣، دار الكتب الإسلامية- طهران.

(٢) الشيخ الصدوق، الخصال: ص٣٩٩، منشورات جماعة المدرسين- قم.

كسابقتها تنصّ على طهارة الأنبياء وعصمتهم المطلقة عن الذنب وكل ما يوجب الانحراف والزيغ عن صراط الحق والواقع.

الرواية الثالثة: روح القدس في الأنبياء لا يلهو ولا يسهو

أخرج الصفار في البصائر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله:« **إن الله تبارك وتعالى جعل للنبي** صلى الله عليه وآله **خمسة أرواح، روح الحياة فيه دب ودرج، وروح القوة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه أمر وعدل وروح القدس فبه حمل النبوة- إلى أن قال:- وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو**»[1]، وهذه الرواية صريحة أيضاً في العصمة المطلقة بما يشمل الغفلة واللهو والسهو.

الرواية الرابعة: جنود العقل والجهل

أخرج الكليني في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قوله:« **اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا، قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلا ما عرفتنا، فقال أبو عبد الله** عليه السلام: **إن الله عزّ وجلّ خلق العقل وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي، قال: ثم خلق الجهل من البحر الأجاج ظلمانياً فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فلم يقبل، فقال له: استكبرت فلعنه، ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً فلما رأى الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة، فقال الجهل: يا رب هذا خلق مثلي خلقته وكرمته وقويته وأنا ضدّه ولا قوة لي به فأعطني من الجند مثل ما أعطيته، فقال: نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال:**

---

(١) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات: ص٤٧٤، منشورات الأعلمي- بيروت.

قد رضيت، فأعطاه خمسة وسبعين جنداً، فكان مما أعطى العقل من الخمسة والسبعين الجند: الخير وهو وزير العقل وجعل ضده الشر وهو وزير الجهل، والإيمان وضده الكفر- إلى أن قال:- **والتذكر وضده السهو، والحفظ وضده النسيان-** ثم قال:- **فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلا في نبي أو وصي نبي، أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان»**[1]، هذه الرواية صريحة في العصمة المطلقة أيضاً بما يشمل السهو والنسيان.

الرواية الخامسة: برهان النبي يوسف عليه السلام

أخرج الصدوق في عيون الأخبار عن الإمام الرضا عليه السلام قال في قصة يوسف مع امرأة العزيز:« **لقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها كما همت، لكنه كان معصوماً والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه»**[2]، وفي هذه الرواية إلفاتة مهمّة جدّاً، وهي أن الأنبياء ليس لا يذنبون فحسب، بل هم لا يهمّون بذنب أو معصية أصلاً، وفي هذا البيان إشارة إلى ما ذكرناه من استناد مبدأ العصمة إلى درجة العلم الخاصة عند الأنبياء، لإنهم بسبب ذلك العلم لا يهمّون بالذنب أصلاً.

الرواية السادسة: تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا

وهو ما تقدم من قول النبي صلى الله عليه وآله:« **إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»**[3]، فهو دال على أعلى درجات العصمة والطهارة، التي هي اليقظة

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي: ج ١ ص٢٠ _ ٢٣، دار الكتب الإسلامية- طهران.

(٢) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١ ص١٧٩، مؤسسة الأعلمي- بيروت.

(٣) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات:ص٤٤١، منشورات الأعلمي- طهران، ابن سعد،

القلبية الدائمة للأنبياء وعدم الغفلة والسهو والنسيان، وذلك بمقتضى العلم الخاص الذي اختصهم الله تعالى به، وهو كما سبق علم حضوري لدنّي شهودي اطّلع بموجبه الأنبياء على حقائق الأشياء.

الرواية السابعة: بطانة السوء لا تؤثر على الأنبياء

وهو ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله قال: **«ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه. فالمعصوم من عصم الله تعالى»**[1].

قال ابن حجر في معرض تعليقه على الحديث:

«وقد استشكل هذا التقسيم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله: لأنه وإن جاز عقلاً أن يكون فيمن يداخله من يكون من أهل الشر، لكنه لا يتصور منه أن يصغي إليه ولا يعمل بقوله لوجود العصمة، وأجيب بأن في بقية الحديث الإشارة إلى سلامة النبي صلى الله عليه وآله من ذلك، بقوله: **«فالمعصوم من عصم الله تعالى»** فلا يلزم من وجود من يشير على النبي صلى الله عليه وآله بالشر أن يقبل منه، وقيل: المراد بالبطانتين في حق النبي الملك والشيطان، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله: **«ولكن الله أعانني عليه فأسلم»** - إلى أن قال: - وفيه إشارة إلى أن ثم قسماً ثالثاً، وهو: أن من يلي أمور الناس قد يقبل من بطانة الخير دون

الطبقات الكبرى ج١: ص٨٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(١) البخاري، الجامع الصحيح: ج٤ص٣٢٧، كتاب الأحكام، باب الإمام وأهل مشورته، ط١- دار الفكر - بيروت.

بطانة الشر دائماً، وهذا اللائق بالنبي، ومن ثم عبّر في آخر الحديث بلفظة (العصمة))»[١].

إذن فالعصمة الإلهية الخاصة، هي التي اختص الله تعالى بها أنبياءه وخلفاءه وهي الضمانة المانعة لهم من التوجّه إلى الشر والانحراف الذي تحضّهم عليه بطانة السوء.

الرواية الثامنة: لا يقول نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله إلاّ حقّاً

وهو ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو، قال: قالت لي قريش: تكتب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت له يا رسول الله: إن قريشاً تقول: تكتب عن رسول الله وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر، قال: فأومئ لي شفتيه فقال: **«والذي نفسي بيده ما يخرج مما بينهما إلا حق فاكتب»**[٢]، وفي لفظ أحمد في مسنده: قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، ورسول الله بشر، يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: **«اكتب، فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق»**[٣]، وقد صحح الحديث الحاكم في المستدرك وتابعه الذهبي[٤]، وصححه أحمد محمد شاكر في تعليقته على المسند[٥]،

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري: ج١٣ ص٢٣٤، ط١ - دار السلام - الرياض.
(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين: ج١ ص١٨٦، دار الكتب العلمية - بيروت.
(٣) أحمد بن حنبل، المسند: ج٦ص٦٨، ح٦٥١٠، ط١- دار الحديث - القاهرة.
(٤) حاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين: ج١ ص١٨٦، دار الكتب العلمية - بيروت.
(٥) أحمد بن حنبل، المسند: ج٦ ص٦٨.

وأدرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة[1].

استدلال بعض أعلام السنة بتلك الروايات على العصمة المطلقة:

وقد استدل بهذه الطائفة من الروايات على العصمة ابن حجر، حيث قال في معرض جوابه على من قال إن النبي ليهجر، عند مرضه صلى الله عليه وآله: «والهجر بالضم ثم السكون الهذيان، والمراد به هنا ما يقع من كلام المريض الذي لا ينتضم ولا يعتد به؛ لعدم فائدته، ووقوع ذلك من النبي صلى الله عليه وآله مستحيل؛ لأنه معصوم في صحته ومرضه، لقوله تعالى ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾ ولقوله صلى الله عليه وآله: **إني لا أقول في الغضب والرضا إلا حقاً**»[2].

واستدل العلامة العيني بنفس العبارات في عمدة القاري على العصمة أيضاً[3].

فهذه الروايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله صريحة في ثبوت العصمة له صلى الله عليه وآله، بل فيها دلالة واضحة وصريحة على العصمة المطلقة، وأن حالته صلى الله عليه وآله في الغضب والرضا واحدة لا تنالها يد الذنب أو الخطأ أو السهو أو النسيان، فلا يخرج ولا يصدر من النبي الأكرم في جميع شؤون حياته المباركة إلا الحق والصدق قولاً وفعلاً وتقريراً، ولذا قال صلى الله عليه وآله: «**ما خرج مني إلا الحق**».

الرواية التاسعة: الحديث المعروف بشهادة خزيمة

عن حمّاد عن إبراهيم عن أبي عبد الله خزيمة، أنه مرّ على رسول

---

(١) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج٤ ص٤٥- ص٤٦، مكتبة المعارف - الرياض.

(٢) ابن حجر، فتح الباري: ج٨ ص١٣٣، دار المعرفة - بيروت.

(٣) بدر الدين العيني، عمدة القاري: ج١٨ص٨٧ _ ٨٨، ط١ دار إحياء التراث العربي - بيروت.

الله ﷺ أعرابي يجحد بيعه، فقال خزيمة: أشهد لقد بعته، فقال رسول الله ﷺ: «**من أين علمته؟**» قال: تجيئنا بالوحي من السماء فنصدقك، فإذا جئت بخبر مما وقع في الأرض فلا نصدقك؟، قال: فجعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين حتى مات[١].

قال ملا علي القاري تعليقاً على هذه الرواية:

«والمعنى أنك صادق مصدوق ونصدّقك في المغيبات وهذا من جملة تلك الحالات»[٢].

وفي لفظ آخر للرواية عن خزيمة بن ثابت: أن رسول الله ﷺ ابتاع من سواء بن الحارث المحاربي فرساً، فجحده، فشهد له خزيمة بن ثابت، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما حملك على الشهادة ولم تكن معه؟**» قال: صدقت يا رسول الله. ولكن صدّقتك بما قلت، وعرفت أنك لا تقول إلا حقاً، فقال: «**من شهد له خزيمة وأشهد عليه فحسبه**»[٣].

قال الهيثمي في زوائده:«رواه الطبراني ورجاله كلّهم ثقاة»[٤].

وهذا يعني أن العصمة المطلقة والعامة للنبي ﷺ وسائر الأنبياء من المبادئ الإسلامية المرتكزة في أذهان المسلمين منذ الصدر الأول للإسلام، وهو قائم على المبدأ العقلي والفطري الذي ارتكزنا عليه سابقاً

---

(١) لاحظ: شرح مسند أبي حنيفة، علي القاري: ج١ ص٧١- ٧٢، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) شرح مسند أبي حنيفة، ملا علي القاري: ج١ ص٧١- ٧٢، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) الطبراني، المعجم الكبير: ج٤ ص٨٧، ط٢- مكتبة العلوم والحكم - الموصل.

(٤) الهيثمي، مجمع الزوائد: ج٩ ص٥٣٣، دار الفكر - بيروت.

في إقامة الدليل العقلي على العصمة، وهو خاصية الوثوق في النبي المبعوث من السماء.

الرواية العاشرة: لا سلطان للشيطان على نبينا الأكرم ﷺ

وهو ما أخرجه مسلم في صحيحه، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن**» قالوا: وإياك؟ يا رسول الله! قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»(١).

قال القاضي عياض في معرض بيانه لهذا الحديث:

«واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوسواس»(٢).

وقد تقدم في ذكر الآيات المباركة أن كل ضلال وإضلال من حبائل الشيطان، فمن لا سلطان للشيطان عليه فهو المهتدي وعلى صراط مستقيم في كل أحواله وأفعاله.

---

(١) مسلم، صحيح مسلم: ج٤ ص٢١٦٨، ط١ - دار الفكر - بيروت.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٢٥، دار الأرقم - بيروت.

الفصل الثالث

عصمة الأنبياء منذ الولادة

* المبحث الأول: الأدلة العقلية
* المبحث الثاني: الأدلة القرآنية
* المبحث الثالث: العصمة المطلقة منذ الولادة في أقوال أعلام السنة

عصمة الأنبياء منذ الولادة

لقد طرح المتكلمون مسألة عصمة الأنبياء منذ الولادة منذ زمن بعيد، وقد اختلفت فيها الأراء وأثيرت حولها جملة من الإشكالات، وقد تقدم أن الأقوال في هذه المسألة ثلاثة:

الأول: أنه من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله سبحانه، وهو مذهب أصحابنا الإمامية.

الثاني: أنه من حين بلوغهم، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوة، وهو مذهب كثير من المعتزلة.

الثالث: أنه وقت النبوة، وأما قبله فيجوز صدور المعصية عنهم، وهو قول أكثر الأشاعرة ومنهم الفخر الرازي، وبه قال أبو هذيل وأبو علي الجبائي من المعتزلة.

وهناك جملة من الأدلة العقلية والنقلية صريحة في إثبات عصمة الأنبياء منذ الولادة، نشير فيما يلي إلى بعضها ضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: الأدلة العقلية

هناك جملة وافرة من الأدلة العقلية التي ذكرت في المقام ، نقتصر فيما يلي على هذين الدليلين:

الدليل الأول: التأثير على نفوس الأتباع وفقدان الثقة

إنّ تاريخ الأنبياء وحياتهم التي سبقت نبوتهم إذا كانت حافلة بالذنوب والخطايا والآثام، فلا شك أن ذلك يؤثر سلباً على نفوس أتباعهم، ويوجب ابتعاد الناس عنهم وعدم قبول دعوتهم؛ لأن الذهن البشري العرفي لا يفرق بين حال النبوة والبعثة وبين الحال الذي سبقها، فإن البشر يحكمون بكذب وانحراف وخطأ أو افتراء أولئك الذين يدّعون النبوة وذلك بموجب تاريخهم وسيرتهم السابقة، ويضاف إلى ذلك أيضاً أن الفطرة الإنسانية تأبى وتنفر عن تتلقي التزكية والتربية والتعاليم الإلهية من الخاطئ المذنب العاصي لله تعالى، وذلك يوجب نقض الغرض وابتعاد الناس عن الدين، فلا تكون لله الحجة البالغة على خلقه.

الدليل الثاني: العلم الخاص منذ الولادة

إنّ العلم الخاص- الذي سبق أنه مصدر العصمة وأساسها- قد تحقق لبعض الأنبياء في الصبا، بل ومنذ الولادة بصريح القرآن الكريم، كما في قوله تعالى في قصة مريم وعيسى عليه السلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[(١)]، فالنبي عيسى عليه السلام آتاه الله تعالى النبوة منذ الولادة، التي تتضمن إتيان الكتاب وعلم النبوة الخاص الذي يقتضي العصمة ويستدعيها.

وكذا ما في قوله تعالى حول النبي يحيى عليه السلام: **﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾**[(٢)].

ثم إذا أضفنا إلى هذه الآيات إجماع الأمة وصريح الآيات والروايات الناصّة على أفضلية نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله على جميع ولد آدم من الأنبياء وغيرهم، يتضح لنا عصمة النبي صلى الله عليه وآله منذ الولادة، وإلا لما كان أفضل من أولي العزم بما فيهم عيسى عليه السلام، وقد قال صلى الله عليه وآله: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفّع»**[(٣)]، وقال أيضاً صلى الله عليه وآله: **«وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»**[(٤)]، وكذلك قال صلى الله عليه وآله: **«أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»**[(٥)]، وكان صلى الله عليه وآله إذا قرأ **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾**[(٦)] يقول: **«بُدئ بي في الخير، وكنت آخرهم في البعث»**[(٧)].

---

(١) مريم: ٢٩- ٣٢.

(٢) مريم: ١٢- ١٣.

(٣) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٤ ص١٧٨٢، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وآله على جميع الخلائق ح٢٢٧٨، ط١ دار الفكر- بيروت.

(٤) الترمذي، سنن الترمذي: ج٥ ص٥٨٨، كتاب المناقب، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٥) الترمذي، سنن الترمذي: ج٥ ص٥٨٥، كتاب المناقب، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٦) الأحزاب: ٧.

(٧) ابن أبي شيبة الكوفي، المصنف: ج٦ ص٣٢٧، كتاب الفضائل، دار الكتب العلمية - بيروت.

المبحث الثاني: الأدلة القرآنية

يتضمن هذا المبحث طوائف من الآيات المباركة والروايات الدالة على العصمة منذ الولادة نذكرها تباعاً ضمن الأدلة التالية:

الدليل الأول: الاصطفاء منذ الولادة

وهو ما جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

تقدم في كلمات الفخر الرازي وغيره أن الاصطفاء دال على العصمة، وما نريد ذكره في المقام أن هذه الآية دالة على عصمة جميع الأنبياء منذ الولادة.

ويعتمد ذلك على معرفة حقيقة الاصطفاء وطبيعة ارتباطه وتعلقه بالآل والذرية، وللوقوف على ذلك لابد من بيان الأمور التالية:

١- حقيقة الاصطفاء.

٢- حقيقة اصطفاء الآل والذرية.

٣- من هم الآل والذرية؟

٤- ماذا يعني اصطفاء الآل والذرية وعصمتهما؟

١- حقيقة الاصطفاء

إن الاصطفاء في القرآن الكريم من المفاهيم الموازية لمفهوم العصمة كما هو صريح كلمات المفسرين وغيرهم في هذا المجال.

---

(١) آل عمران: ٣٣- ٣٤.

قال الطبرسي في تفسيره:

« الاصطفاء والاختيار والاجتباء نظائر، وهو افتعل من الصفوة، وهذا من أحسن البيان الذي يمثل به المعلوم بالمرئي، وذلك أن الصافي هو النقي من شائب الكدر فيما يشاهد، فمثل الله تعالى خلوص هؤلاء القوم من الفساد بخلوص الصافي من شائب الأدناس»[١].

وقال النحّاس في معاني القرآن:

«ومعنى اصطفى اختار، وهذا تمثيل: لأن الشيء الصافي هو النقي من الكدر، فصفوة الله عزّ وجلّ هم الأنقياء من الدنس ذوو الخير والفضل»[٢]

وقال الراغب في المفردات:

«أصل الصفاء: خلوص الشيء من الشوب، ومنه: الصفا، للحجارة الصافية... والاصطفاء: تناول صفو الشيء، كما أن الاختيار: تناول خيره، والاجتباء: تناول جبايته.

واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره... قال تعالى: ﴿**اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**﴾[٣].

والصفيّ والصفيّة: ما يصطفيه الرئيس لنفسه»[٤].

---

(١) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان: ج ٢ ص ٢٧٧، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
(٢) النحاس، معاني القرآن: ج١ ص٣٨٥، ط١، جامعة أم القرى - مكّة المكرّمة.
(٣) الحج: ٧٥.
(٤) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص٤٨٧- ٤٨٨، ط١ - دار القلم - بيروت.

وقال الثعلبي في تفسيره:

«واصطفى: افتعل من الصفوة وهو الخالص من كل شيء، يعني: اختاروا واستخلصوا آدم أبو البشر ونوحاً شيخ المرسلين وآل إبراهيم وآل عمران»(١).

وقال الفخر الرازي في تفسيره:

«اصطفى في اللغة: اختار، فمعنى اصطفاهم، أي جعلهم صفوة خلقه، تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يُصفّى ويُنقّى من الكدورة - إلى أن قال: - إن الله اصطفاهم: أي صفّاهم من الصفات الذميمة، وزيّنهم بالخصال الحميدة»(٢).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

«قال الزجاج: ومعنى اصطفاهم في اللغة اختارهم، فجعلهم صفوة خلقه، وهذا تمثيل بما يرى، لأن العرب تمثّل المعلوم بالشيء المرئي. فإذا سمع السامع ذلك المعلوم كان عنده بمنزلة ما يشاهد عياناً، فنحن نعاين الشيء الصافي أنه نقي من الكدر، فكذلك صفوة الله من خلقه... اصطفاهم بتفضيلهم في الأمور التي ميزهم بها على أهل زمانهم»(٣).

وقال البيضاوي:

«﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالرسالة

---

(١) الثعلبي، الكشف والبيان: ج٣ ص٥٢، ط١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ج٤ ص٢٣، دار الفكر - بيروت.

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير: ص١٨٨، ط١- دار ابن حزم - بيروت - لبنان.

والخصائص الروحانية والجسمانية، ولذلك قووا على ما لم يقو عليه غيرهم»[١].

وقال الجزائري في أيسر التفاسير:

«اصطفاهم لدينه واختارهم لعبادته، ففضّلهم بذلك على الناس، وأخبر أنهم ذرية بعضهم من بعض، لم تختلف عقائدهم، ولم تتباين فضائلهم وكمالاتهم الروحية، وذلك لحفظ الله تعالى لهم وعنايته بهم»[٢].

وقال الحدّاد الحنفي في تفسيره:

«وصفوة الله: هم الذين لا دنس فيهم بوجه من الوجوه، لا في الاعتقاد ولا في الفعل.

والاصطفاء: هو الاختيار، والصفوة: هو الخالص من كل شيء»[٣].

وقال الصابوني:

«﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ﴾ أي اختار للنبوة صفوة من خلقه، فهم آدم أبو البشر ﴿ونوحاً﴾ شيخ المرسلين وآل إبراهيم أي عشيرته وذوي قرباه، وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين، وآل عمران أي أهل عمران، ومنهم عيسى ابن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل والرسل جميعاً من نسلهم»[٤].

---

(١) البيضاوي، تفسير البيضاوي: ج٢ ص٢٩، دار الفكر - بيروت.

(٢) الجزائري، أيسر التفاسير: ج١ ص١٩٦، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

(٣) أبو بكر الحداد، تفسير الحداد: ج٢ ص٤٣، ط١ - دار المدار الإسلامي - بيروت.

(٤) الصابوني، صفوة التفاسير: ج١ ص١٦٥، ط١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

وقال السعدي في تفسيره للآية المباركة:

«لله تعالى من عباده أصفياء، يصطفيهم ويختارهم ويمن عليهم بالفضائل العالية، والنعوت السامية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كملة الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل في ذراريهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا من أجل مننه وأفضل مواقع جوده وكرمه»(١).

ومحصل هذه الأقوال:

إن الاصطفاء الإلهي هو أن يختار ويجتبي الله تعالى صفوة من خلقه، فيستخلصهم لنفسه وينقّيهم ويصفّيهم من كل شائبة ودنس وكدورة أوصفة ذميمة، فهم صفوة الله الذين لا دنس فيهم بوجه من الوجوه، لا في الاعتقاد ولا في الفعل، وقد منّ الله عليهم بأن ميزهم على سائر خلقه وزينهم بالخصال الحميدة والفضائل العالية والنعوت السامية والخصائص الروحانية والجسمانية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة والكمالات المتنوعة، كل ذلك بفضله وكرمه تبارك وتعالى؛ ولذلك قووا على ما لم يقو عليه غيرهم.

ثم بعد أن طهّرهم وكرّمهم بما اختصهم به من الحفظ والعناية الخاصة جعلهم أنبياء ورسل وخلفاء في أرضه، فاصطفاهم لدينه

---

(١) عبد الرحمن السعدي، تفسير السعدي: ص١٣٨، ط١- دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي - بيروت.

واختارهم لعبادته وبعثهم لخلقه، إتماماً للحجة الإلهية البالغة.

وهذا كلّه تعبير آخر عن مفاد العصمة المطلقة، كما أشار إلى ذلك الفخر الرازي سابقاً.

٢- حقيقة اصطفاء الآل والذريّة

إنّ الآية المباركة التي أوردناها في مطلع حديثنا هذا، نصّت على أن الاصطفاء والاجتباء قد تعلق ببعض البيوتات المباركة وهم الآل والذرية.

كما نصّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(١). فالمراد هو أن الله تعالى اصطفى واجتبى بعض ذراري تلك البيوت المشرّفة بقرينة (من) التبعيضية، وهم الذين ينالهم العهد الإلهي في قوله تعالى: ﴿**قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾(٢).

قال ابن كثير في تفسير آية الاصطفاء:

---

(١) الأنعام: ٨٣ - ٨٧.

(٢) البقرة: ١٢٤.

«يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض»[١].

فمعنى اصطفاء الآل والذرية تعلق العصمة بالبيوتات المباركة، وأن البيوت والبيتوتة لها خصوصية في الاصطفاء.

٣- من هم الآل والذرية ؟

لا شك أن المقصود من الآل والذرية في الآيتين المتقدمتين هم العمود النازل والأسفل من النسل والعقب، ولا يشمل الآباء، بقرينة قوله تعالى: ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ أي النسل والعقب لهما، وكذا بقرينة المقابلة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾، ولذا قال ابن قيم الجوزية:

«والذرية كالنسل والعقب لا تكون إلا للعمود الأسفل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ فذكر جهات النسب الثلاث من فوق ومن أسفل ومن الأطراف»[٢].

ومن ذلك يتضح أن المراد من الآل والذرية هم القربى والعقب النسبيّون[٣]، لا مطلق من يلتقي مع الشخص في العقيدة والعمل، كما ذكر ذلك بعضهم[٤]، فالمراد من قوله تعالى:﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ أن ذلك النسل والعقب الطاهر متداخل ومتشعب في بيوت خاصة، ومتفق

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج٤ ص٢١٤.

(٢) ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام: ص٢٦٢، ط٢ - دار العروبة - الكويت.

(٣) لاحظ: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج٢ ص٣٩٤، المكتبة العلمية - بيروت.

(٤) لاحظ: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ج٤ ص٦٧، ط٤ - دار الكتاب العربي - بيروت.

ومتشابه في صفات الاصطفاء والطهارة.

قال الزمخشري:

«﴿بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ يعني أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض»[(١)].

ولذا ورد عن رسول الله ﷺ في خطابه لسرية من سرايا يوم حنين عندما قتلوا ذراري المشركين: «**ما حملكم على قتل الذرية؟ قالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد مشركين، قال أو هل خياركم إلا أولاد المشركين؟! والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها**»[(٢)]، فالمراد من الذرية النسل النسبي المتولد عن الآباء.

قال ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير:

«والذرية نسل الرجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته»[(٣)].

وفي تفسير البغوي:

«(ومن ذريتي) أي: ومن أولادي، فاجعل منهم أئمة يُقتدى بهم في الخير»[(٤)].

وقال القرطبي:

«والذرية أعقاب الإنسان وقد تكثر»[(٥)].

---

(١) الزمخشري، الكشاف: ج١ ص٣٥٤، ط٢ - منشورات البلاغة - قم.
(٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد: ج٣ ص٤٣٥، دار صادر - بيروت.
(٣) محمد طاهر بن عاشور المالكي، التحرير والتنوير: ج١ ص٤٠٥.
(٤) البغوي، تفسير البغوي: ص١٤٤.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج٨ ص٣٢٩، ط٤ - دار الكتاب العربي - بيروت.

وأما الآل: فآل الرجل يستعمل في خاصته والملحقين به، ومن يؤول إليهم أمره، ويختص بالأشراف من أعلام الناطقين دون النكرات كآل الله وآل السلطان[١].

والآل هنا هم النسل والعقب بلا شك، وذلك لأن الذرية وقعت بدلاً من الآل في الآية المباركة، وقد تقدم أن الذرية هي نسل الشخص وعقبه، فالمراد من الآل في الآية هو ما يراد من الذرية في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾.

قال ابن عاشور المالكي في تفسيره:

«والآل الرهط، وآل إبراهيم أبناؤه وحفيده وأسباطه، والمقصود تفضيل فريق منهم، وشمل آل إبراهيم الأنبياء من عقبه كموسى ومن قبله ومن بعده وكمحمد صلى الله عليه وآله وحنظلة بن صفوان وخالد بن سنان، وقال أيضاً: الآل يطلق على أشد الناس اختصاصاً بالمضاف إليه»[٢].

وقال البيهقي في شعب الإيمان:

«إن اسم الآل للقرابة الخاصة لا لعامة المؤمنين»[٣].

٤- ماذا يعني اصطفاء الذرية وعصمتها ؟

بعد أن اتضح أن من معطيات مفاد الاصطفاء هو العصمة والتنقية من كل شوب ودنس، واتضح أيضاً أن الاصطفاء تعلق ببيوت خاصة مباركة

(١) لاحظ: المفردات، الراغب الأصفهاني: ص٩٨، ط١ - دار القلم والدار الشامية - بيروت.
(٢) محمد طاهر بن عاشور المالكي، التحرير والتنوير: ج١ ص٧١٨ و٧٤٧.
(٣) البيهقي، شعب الإيمان: ص٢، ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت.

وهم النسل والعقب، لابد أن نلتفت إلى الغاية التي من أجلها عبّر القرآن الكريم بـ (الآل) و(الذرية)، فإن القصد من ذلك التركيز على فكرة في غاية الأهمية تختص بحياة الأنبياء والأصفياء وكيفية نشأتهم تحت الرعاية والرقابة الإلهية الخاصة، وهي أن الله تعالى قد أولى عنايته ولطفه الخاص بتلك البيوت الطاهرة والنفوس القدسية وهيأ لها الظروف المؤاتية لنيل العصمة منذ الولادة؛ لأن الله تعالى علم منهم في سابق علمه الذاتي الأزلي أنه إذا خلقهم لا يريدون إلاّ الطهارة والصلاح، فخلق فيهم مبادئ الاستعداد لنيل المقامات الإلهية الرفيعة من النبوة والخلافة في الأرض، وكان من جملة مبادئ ذلك الاستعداد أن اصطفاهم في بيوت مباركة وأخرجهم من أصلاب شامخة إلى أرحام مطهرة، وزودهم بكافة الإمكانات والكمالات الجليلة مما أبعدهم عن كل دنس وعيب.

وهذا هو صريح الآية المباركة التي هي محل البحث، حيث قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فحيث أنهم كانوا واجدين لشرائط الاصطفاء وفاقدين لموانعه، اصطفاهم الله تعالى، ولا يعلم ذلك إلاّ الله تعالى، فهو أعلم بمن يستحق الاصطفاء، فاصطفاه واختصه بكرامته من بين خلقه؛ ولذا قال تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1].

(١) الأنعام: ١٢٤.

أقوال المفسرين في اصطفاء الذرية عن علم سابق:

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره:

«قوله تعالى: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع بأقوالهم الدالة على باطن ضمائرهم عليم بباطن ضمائرهم وما في قلوبهم، فالجملة بمنزلة التعليل لاصطفائهم، كما أن قوله ذرية بعضها من بعض بمنزلة التعليل لشمول موهبة الاصطفاء لهؤلاء الجماعة، فالمحصل من الكلام إن الله اصطفى هؤلاء على العالمين وإنما سرى الاصطفاء إلى جميعهم لأنهم ذرية متشابهة الأفراد بعضهم يرجع إلى البعض في تسليم القلوب وثبات القول بالحق، وإنما أنعم عليهم بالاصطفاء على العالمين لأنه سميع عليم يسمع أقوالهم ويعلم ما في قلوبهم»[(١)].

وقال السعدي في تفسيره:

«﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته»[(٢)].

وقال النسفي في تفسيره:

«﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يعلم من يصلح للاصطفاء»[(٣)].

وقال الآلوسي في روح المعاني:

«فلما نظر الله سبحانه إلى ما علمه من الماهيات الأزلية والأعيان

---

(١) السيد الطباطبائي، تفسير الميزان: ج ٣ ص ١٦٨.

(٢) السعدي، تفسير السعدي: ص١٣٨، ط١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) النسفي، تفسير النسفي: ج١ ص١٥٠، وكذا ما في الكشاف، الزمخشري: ج١ ص١٧٥.

الثابتة ورأى فيها من استعد للخير وطلبه بلسان استعداده ومن استعد للشر وطلبه كذلك، أفاض على كل بمقتضى حكمته ما استعد له وأعطاه ما طلبه منه، ثم كلّفه ورغّبه ورهّبه إتماماً للحجّة»(١).

وهذا لا يعني الجبر، لأن العلم شيء والقدرة التي هي مبدأ الاختيار والتكليف شيء آخر.

وقال الآلوسي أيضاً:

«ووجه الاصطفاء في جميع الرسل أنّه سبحانه خصّهم بالنفوس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية، حتى أنّهم امتازوا كما قيل: على سائر الخلق خلقاً وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى ومظهر أسمائه وصفاته ومحل تجليه الخاص من عباده ومهبط وحيه ومبلغ أمره، وهذا ظاهر في المصطفين المذكورين في الآية من الرسل، وأما مريم فلها الحظ الأوفر من بعض ذلك»(٢).

وقال أبو السعود في تفسيره:

«والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء، مثل به اختياره تعالى إياهم النفوس القدّسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة في نفس المصطفى، كما في كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام»(٣).

وقد نص على ذلك ابن خلدون في مقدمته، حيث قال:

---

(١) الآلوسي، روح المعاني: ج١ ص١٣٩، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) الآلوسي، روح المعاني: ج٣ ص١٣١، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) أبو السعود، تفسير أبي السعود: ج٢ ص٢٦، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

«ومن علاماتهم أيضاً - أي الأنبياء - أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه - أي النبيّ - مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنّها منافية لجبلّته»[١].

وقال الواحدي:

«والله سميع لما تقوله الذرية المصطفاة عليم بما تضمره، فلذلك فضّلها على غيرها»[٢].

الذريّة صغار النسل لغة:

وتتضح هذه الفكرة أكثر إذا علمنا أن لفظ (الذرية) وضع في الأصل للصغار من الأولاد.

قال الراغب في المفردات:

«والذرية أصلها: الصغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف، ويستعمل للواحد والجمع، وأصله الجمع»[٣].

وقال الآلوسي:

«والذرية نسل الرجل وأصلها الأولاد الصغار، ثم عمّت الكبار والصغار الواحد وغيره»[٤].

---

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون: ص٩٢، ط٥ - دار النشر ودار القلم - بيروت.

(٢) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ص٢٠٨.

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات: ص٣٢٧، دار القلم والدار الشامية - بيروت ودمشق.

(٤) الآلوسي، روح المعاني: ج١ ص٣٧٦، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

والحاصل: إنّ الله تعالى اصطفى بيوتاً خاصة وذرية طهرها وميزها عن جميع خلقه، حيث هيأ لها كل ما يوازي استعدادها الذي تستحقه، وشرّفها بكل فضيلة تتناسب مع المهام العظمى والمقامات السامية التي سوف توكل إليهم في دار الدنيا، من النبوة والرسالة والخلافة في الأرض، فجعلهم في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة واصطفاهم في بيوت كريمة؛ وهذا هو السبب الذي أوجب عصمتهم وطهارتهم من كل دنس منذ الولادة فاستحقوا بذلك شرف النبوة وخلافة الله في الأرض.

كيفية اصطفاء الذريّة في الآيات والروايات

إن اصطفاء الذرية بالمعنى الذي ذكرناه هو ما أكدته الآيات والروايات المتضافرة، ونشير فيما يلي إلى جانب منها:

١- قوله تعالى مخاطباً النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١].

عن ابن عباس، في قوله تعالى ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: قال صلى الله عليه وآله: «**من صلب نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجت نبيّاً**»[٢].

قال الهيثمي: «رواه البزار ورجاله ثقات»[٣].

وعن ابن عباس أيضاً، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**من صلب نبيّ إلى صلب نبيّ**

---

(١) الشعراء: ٢١٨- ٢٢٠.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير: ج١١ ص٣٦٢، ط٢ - مكتبة العلوم والحكم - الموصل.

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد: ج٨ ص٣٩٥، دار الفكر - بيروت.

حتى صرت نبيّاً».

قال الهيثمي:«رواه البزاز والطبراني ورجالهما رجال الصحيح غير شبيب بن بشر وهو ثقة»(١).

وفي تفسير القمي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:«**﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في النبوة، ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: في أصلاب النبيين**»(٢).

وقال الماوردي في أعلام النبوة:

«أي: تقلبك في أصلاب طاهرة من أب بعد أب إلى أن جعلتك نبيّاً، وقد كان نور النبوة في آبائه ظاهراً»(٣).

٢- ما أخرجه الصدوق في الأمالي عن أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال:«**سئل النبي صلى الله عليه وآله أين كنت وآدم في الجنة؟ قال: كنت في صلبه، وهبط بي إلى الأرض في صلبه، وركبت السفينة في صلب أبي نوح، وقذف بي في النار في صلب أبي إبراهيم، لم يلتق لي أبوان على سفاح قط، لم يزل الله عزّ وجلّ ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، هادياً مهدياً حتى أخذ الله بالنبوة عهدي، وبالإسلام ميثاقي، وبيّن كل شيء من صفتي، وأثبت في التوراة والإنجيل ذكري، ورقا بي إلى سمائه، وشقّ لي اسماً من أسمائه، أمتي الحمادون، فذو العرش محمود وأنا أحمد**»)(٤).

فهذه الرواية المباركة واضحة في التأكيد على ما بيناه من حقيقة

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد: ج٨ ص١٩٨، دار الفكر ـ بيروت.

(٢) تفسير القمي ، علي بن إبراهيم القمي: ج ٢ - ص ١٢٥.

(٣) أبو الحسن الماوردي، أعلام النبوة: ص٢٣٣، ط١ - دار الكتاب العربي - بيروت.

(٤)الصدوق، الأمالي: ص٧٢٣ .

الاصطفاء.

٣- ما أخرجه مسلم في صحيحه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١).

وهذه الرواية صريحة في اصطفاء البيوت والنسل والذرية- الذي ذكرناه- كما أن الرواية صريحة أيضاً في أن الاصطفاء يبدأ مع الأنبياء منذ ولادتهم، بل هي تبين أن الله تعالى يُهيّئ لهم كل أسباب ومقدمات الاصطفاء والعصمة والطهارة قبل الولادة أيضاً.

٤- ما أخرجه أحمد والترمذي - واللفظ للثاني- عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إنّ الله خلق الخلق، فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نسباً»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن(٢).

وقال الهيثمي:

«رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»(٣).

وقال الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح:«حديث صحيح

---

(١) مسلم، صحيح مسلم: ج٤ ص١٧٨٢، ح٢٢٧٦، كتاب الفضائل، ط١ - دار الفكر- بيروت.

(٢) الترمذي، سنن الترمذي: ج٥ ص٥٤٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت، أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة: ج٢ ص٩٣٧ ط١ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد: ج٨ ص٣٩٧، دار الفكر - بيروت.

وحسنه الترمذي»[١].

٥- وقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء».

قال الهيثمي:«رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن علي، صحح له الحاكم في المستدرك، وقد تكلم فيه وبقية رجاله ثقات»[٢].

وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته[٣].

٦- ما أخرجه ابن سعد في الطبقات عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«قسّم الله الأرض نصفين فجعلني في خيرها، ثم قسّم النصف على ثلاثة فكنت في خير ثلث منها، ثم اختار العرب من الناس، ثم اختار قريشاً من العرب، ثم اختار بني هاشم من قريش، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم، ثم اختارني من بني عبد المطلب»**[٤].

ويؤيد جميع ما تقدّم، ما أخرجه ابن عساكر، عن ابن عباس قال: **«سألت رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، قلت: فداك أبي وأمي أين كنت وآدم في الجنّة، قال: فتبسم حتى بدت ثناياه، ثم قال: كنت في صلبه وركب بي السفينة في صلب أبي نوح،**

---

(١) الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح: ج٣ ص١٦٠٤، تحقيق: الألباني، ط٣ - المكتب الإسلامي - بيروت.
(٢) الهيثمي، مجمع الزوائد: ج٨ ص٣٩٥، دار الفكر - بيروت.
(٣) الألباني، صحيح الجامع الصغير: ج١ ص٦١٣، ح٣٢٢٥، ط٣ - المكتب الإسلامي- بيروت.
(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ج١ ص٥، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

وقذف بي في صلب إبراهيم، لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة صفي مهدي، لا يتشعب شعبتان إلاّ كنت في خيرهما، قد أخذ الله تعالى بالنبوة ميثاقي وبالإسلام عهدي، وبشّر في التوراة والإنجيل ذكري، وبيّن كل نبيّ صفتي، تشرق الأرض بنوري والغمام لوجهي»[(١)].

وأخرج الطبراني في الأوسط عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:«ما بال أقوام ينتقصون عليّاً، من ينتقص عليّاً فقد انتقصني، ومن فارق عليّاً فقد فارقني، إنّ عليّاً مني وأنا منه، خلق من طينتي وخلقت من طينة إبراهيم، وأنا أفضل من إبراهيم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾»[(٢)].

ومن الواضح أنّ ذلك كلّه ليس مبنياً على مبدأ الصدفة والاتفاق، وإنّما هو قائم على أساس الاصطفاء والتزكية والتطهير.

حاصل اصطفاء الذرية عصمتها منذ الولادة:

وحصيلة ما ذكرناه من الآيات والأقوال والروايات يدلُّ بوضوح على أنّ تعلق الاصطفاء بالذرية والنسل والآل يعني أنّ الله تعالى أوجد وهيأ لتلك البيوت المصطفاة بلطفه وتوفيقه وعنايته كل ما أراده لها من الطهارة والنزاهة عن كل دنس قبل الولادة، حيث طهر أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم وهيأ لهم عند الولادة كل ما يحتاجونه من الكمالات للتنقية عن كل شوب ودنس ولنيل مقام العصمة والطهارة وكذا النبوة والرسالة بعد

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ج٣ ص٤٠٨.
(٢) الطبراني، المعجم الأوسط: ج٦ ص١٦٢، دار الحرمين - القاهرة.

ذلك.

وما تقدّم من قون نلبيّ عن ابن عباس يدل بوضوح على أن نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله كان نبيّاً منذ الولادة فضلاً عن العصمة من ذلك الحين، حيث قال: «من صلب نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجت نبيّاً».

اصطفاء الذريّة وعصمة جميع الأنبياء منذ الولادة:

ثم إنّه إذا ثبت أن الذرية وآل إبراهيم وآل عمران مصطفاة ومعصومة منذ الولادة يثبت ذلك لكافة الأنبياء؛ لعدم القول بالفصل في مذهب أهل السنة؛ وكذلك لما صرح به المفسرون من أن الشخص إذا لم يُذكر مع آله يكون داخلاً في لفظ الآل، فلم يقل الله تعالى: إبراهيم وآل إبراهيم، وإنّما قال: ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾، فإبراهيم وعمران داخلان في آلهما بلا ريب، وأما آدم ونوح فقد اصطفاهما الله تعالى بنفس ما اصطفى به الآل والذرية، وهو اصطفاء منذ أن بدأ خلقهم، كما نصّت على ذلك الآيات التي تعرضت لقصة آدم عليه السلام وأن الله تعالى اجتباه خليفة في الأرض منذ أن وطأتها قدماه المباركة، وكذا نوح عليه السلام الذي هو شيخ الأنبياء ويفوق كثير من أنبياء تلك الذرية المصطفاة في الفضل والعزم والقرب من الله تعالى.

وهذا مضافاً إلى الآيات التي صرحت بأنّ الله تعالى اصطفى الأنبياء كافة بما اصطفى به الآل والذرية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1]، وقد بينت آيات الآل والذرية بأنّ ذلك الاصطفاء اصطفاء

(١) فاطر: ٣٢.

منذ الولادة وهو خاص ببيوتات طهرها الله تعالى مُذ أوجدها.

الدليل الثاني: نبوة نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله منذ الولادة

إنّ نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله كان نبيّاً منذ الولادة، وإذا ثبتت نبوته صلى الله عليه وآله منذ الولادة فكذلك تكون العصمة ثابتة له من ذلك الحين. لإجماع المسلمين على عصمة كل نبيّ، بالإضافة إلى الآيات والروايات والشواهد العقلية وغيرها التي نصّت على ذلك، وأما ما حصل له صلى الله عليه وآله في سن الأربعين فهو البعثة بالرسالة، حيث بعث نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله في ذلك الحين رسولاً إلى الناس كافة، ونبوته صلى الله عليه وآله سبقت بعثته بالرسالة، وقد ثبت ذلك لكثير من الأنبياء، كما في إبراهيم عليه السلام.

والدليل على ذلك مجموع طائفتين من الروايات:

الطائفة الأولى: النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله سابق في الخلق على جميع الأنبياء

١- ما أخرجه القاضي النعمان عن سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**خلقت أنا وعلي من نور واحد قبل أن خلق الله آدم عليه السلام بأربعة آلاف عام، فركب ذلك فيه، ولم يزل في شئ واحد حتى افترقنا في صلب عبد المطلب**»(١).

٢- ما أخرجه ابن البطريق بسنده عن سلمان أيضاً، قال: سمعت حبيبي محمداً صلى الله عليه وآله يقول: «**كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عز وجل، يسبح الله ذلك النور ويقدّسه، قبل أن يخلق الله آدم بألف عام، فلما خلق الله آدم ركب ذلك النور في صلبه، فلم يزل في شئ واحد، حتى افترقنا في صلب عبد المطلب، ففيّ النبوة، وفي علي**

---

(١) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار: ج ١ ص ٢٢٠، مؤسسة النشر الإسلامي- قم.

الخلافة»[(١)].

٣- ما أخرجه القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾[(٢)] عن أبي هريرة: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قال: «كنت أولهم في الخلق وآخرهم في البعث»[(٣)].

قال الشوكاني:

«حديث كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث له شاهد، صححه الحاكم بلفظ كنت نبيّاً»[(٤)].

والحديث لا إشكال فيه من حيث السند، إلاّ في رواية الحسن البصري عن أبي هريرة، وفي سعيد بن بشير، وقال: المزي في التهذيب في ترجمة الحسن البصري: «روى عن أبي هريرة، وقيل إنه لم يسمع منه»[(٥)].

وقال أيضاً: «مرسلات الحسن البصري التي رواها عن الثقات صحاح»[(٦)].

وقد رأى الحسن البصري كبار الصحابة وروى عنهم[(٧)].

(١) ابن البطريق، العمدة: ص ٨٩ . مؤسسة النشر الإسلامي- قم .

(٢) الأحزاب: ٧.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج١٤: ص١١٦، ط٤ - دار الكتاب العربي - بيروت.

(٤) الشوكاني، القوائد المجموعة: ص٣٢٦، ط٣ - المكتب الإسلامي - بيروت.

(٥) المزي، تهذيب الكمال: ج٦ ص٩٩، ترجمة الحسن البصري، ط١- مؤسسة الرسالة- بيروت.

(٦) المزي، تهذيب الكمال:ج٦ص١٢٤، ترجمة الحسن البصري، ط١- مؤسسة الرسالة- بيروت.

(٧) لاحظ: تهذيب الكمال: ج٦، ص٩٩، ترجمة الحسن البصري، ط١- مؤسسة الرسالة- بيروت.

وأما سعيد بن بشير، فقد روى له أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

وقال ابن حصين:«حدثنا عثمان، قال: وسمعت دحيماً يوثق سعيد بن بشير»[(١)].

وقال الهيثمي في المجمع:«سعيد بن جبير وقد وثق»[(٢)].

وقال أيضاً: «فيه كلام وقد وثق»[(٣)].

وكذا قال:«وقد وثقه جماعة»[(٤)].

وهذا يعني أنّ للنبيّ الأكرمﷺ حقيقة وجودية سبقت وجود الأنبياء.

قال المناوي في فيض القدير تعليقاً على الحديث المزبور:

«بأن جعله الله حقيقة تقصر عقولنا عن معرفتها وأفاض عليها وصف النبوة من ذلك الوقت»[(٥)].

الطائفة الثانية: نبيّنا الأكرمﷺ سابق في النبوة على جميع الأنبياء

ثم إنّ النبيّ الأكرمﷺ بوجوده السابق على وجود جميع الناس والأنبياء سبق الأنبياء أيضاً بالنبوة، وإن تأخر عنهم في البعث والبعثة بالرسالة إلى الناس كافة، حيث أخرج الحاكم عن ميسرة الفخر، قال: قلت لرسولﷺ: متى كنت نبيّاً؟ قال:«**وآدم بين الروح والجسد**».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وشاهده

---

(١) يحيى بن معين، تاريخ بن معين: ص٥٠، دار المأمون للتراث، دمشق.

(٢) الهيثمي، مجمع الزوائد: ج٣ ص١٢، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٨ هـ

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد: ج٣ ص٦٩، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٨ هـ

(٤) الهيثمي، مجمع الزوائد: ج٣ ص٢٧٣، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٨ هـ

(٥) المناوي، فيض القدير: ج٥ ص٥٣، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

حديث الأوزاعي»[1].

وقال الذهبي في التلخيص:«صحيح»[2].

وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير[3].

وفي المناقب لابن شهر آشوب، عن النبي الأكرم ﷺ قال:«**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**»[4].

النتيجة المحصّلة من الطائفتين من الروايات:

إنّه على ضوء هذه الروايات الصحيحة يتضح أن نبيّنا الأكرم ﷺ أعطاه الله تعالى النبوة بوجوده الذي سبق وجود الأنبياء، فهو ﷺ نبيّ لله تعالى قبل الولادة بوجوده النوري وبعدها بوجوده الجسماني في عالم المادة، وإذا ثبتت نبوته بعد الولادة على أقل تقدير ثبتت عصمته ﷺ من حين ولادته المباركة؛ لإجماع الأمّة وصريح العقل والقرآن والروايات في عصمة كل نبيّ إذا ثبتت نبوته، نعم بعثة النبيّ الأكرم ﷺ بالرسالة الخاتمة إلى العالمين تأخرت عن تاريخ نبوته.

ولذا نجد أن بعض ألفاظ الحديث المتقدم جاءت بالنحو التالي؛ قلت: يا رسول الله متى بعثت نبيّاً؟ قال:«**وآدم بين الروح والجسد**»[5]، وذلك مع وضوح التأخر في البعثة بالرسالة، ففرق بين النبوة والبعثة بالرسالة.

---

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين:ج٢ ص٦٦٥، دار المكتب العلمية- بيروت.

(٢) المستدرك على الصحيحين بهامش التلخيص: ج٢ ص٦٦٥، دار المكتب العلمية - بيروت.

(٣) الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته: ج٢ ص٨٤٠، ط٣ - المكتب الإسلامي- بيروت.

(٤) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب:ج١ ص١٨٣، مكتبة الحيدرية - النجف الأشرف.

(٥) عمرو بن أبي عاصم، كتاب السنة: ص١٧٩، ط٣ - المكتب الإسلامي - بيروت.

قال الألباني:«إسناده صحيح»[١].

وقد نقل هذا الحديث بألفاظ أخرى كثيرة ومتعـددة، بـل مستفيضـة، مثل:«متى جعلت نبيّاً»[٢].

وقد أخرجه أيضاً البخاري فـي تاريخـه الكبيـر[٣]، وابـن سـعد فـي طبقاته[٤]، وقال عنه ابن حجر: «وهذا سند قوي»[٥].

قال بن شهر آشوب في هذا المجال واصفاً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«وإن خلق آدم من طين فإنه صلى الله عليه وآله خلق من النور. قوله: **كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**. وإن كان آدم أول الخلق فقد صـار محمـد قبلـه، قولـه: **إن الله خلقني من نور وخلق ذلك النور قبل آدم بـألف سـنة**، وإن كـان آدم أبـو البشـر فمحمد سيد النذر، قوله صلى الله عليه وآله: **آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامـة**، وإن كـان آدم أول الأنبياء فنبوة محمد أقدم منـه، قولـه: **كنـت نبيـاً وآدم منخـول في طينته**»[٦].

والحاصل: إنّ نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله أفضل من جميع الأنبيـاء؛ إذ حـاز علـى وسام النبوة ومقامها في وجوده الذي سبق وجود الأنبيـاء، فهـو معصـوم في دار الدنيا من حين مولـده الشـريف الـذي رافـق مقـام النبـوة؛ إذ لا انفكاك بين مقام العصـمة والنبـوة بإجمـاع المسلمين وصـريح الآيـات

---

(١) الألباني، الحاشية على كتاب السنة لابن أبي عاصم: ص١٧٩، المكتب الإسلامي- بيروت.
(٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد: ج٤ ص٦٦.
(٣) البخاري، التاريخ الكبير: ج٧ ص٣٧٤، المكتبة الإسلامية - ديار بكر.
(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ج١ ص١٤٨، دار صادر - بيروت.
(٥) ابن حجر، الإصابة: ج٦ ص١٨٩، ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت.
(٦) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ج١ ص١٨٣-١٨٤ مكتبة الحيدرية- النجف الأشرف.

والروايات.

الدليل الثالث: الصادق الأمين

وهو ما تقدّم من قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١]، حيث تقدّم في الاستدلال بها على العصمة أن في قوله تعالى: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة إلى أنّ كفار قريش كانوا واقفين وعالمين بتفاصيل أحوال النبيّ الأكرم ﷺ لطول صحبتهم له، فلم يروا منه ولم يشاهدوا إلاّ محاسن أوصافه العظيمة وطهارته المطلقة.

قال صاحب أيسر التفاسير- كما تقدّم- :

«ما ضل محمد صاحب قريش، الذي صاحبته منذ ولادته، ولم يغب عنها ولم تغب عنه مدّة تزيد على الأربعين سنة، فهي صحبة كاملة ما ضل عن طريق الهدى وهم يعرفون هذا، وما غوى أيضاً أيّة غواية وما لابسه جهل في قول ولا عمل فغوى به»[٢].

وقد نص على هذا المعنى أيضاً الشوكاني في فتح القدير[٣]، والصابوني في تفسيره[٤].

وقد كان المشركون من قريش يلقّبون النبيّ الأكرم ﷺ بالصادق الأمين، كما هو معروف ومشهور، وهذا يعني أنّ الآية المباركة استدلت على عصمة النبيّ ﷺ منذ ولادته بسيرته الصالحة والطاهرة التي كان

---

(١) النجم: ٢- ٤.

(٢) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: ج٥ ص١٨٣٧، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

(٣) الشوكاني، فتح القدير: ص١٦٩٣، ط١ - دار ابن حزم - لبنان - بيروت.

(٤) محمد بن علي الصابوني، صفوة التفاسير: ج٣ ص٢٣٥- ٢٣٦، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

يعيشها مع المشركين.

المبحث الثالث: العصمة المطلقة ومنذ الولادة في أقوال أعلام السنة

لقد تقدّم الكثير من الأقوال الدالة على عصمة الأنبياء وطهارتهم واصطفائهم قبل النبوة، وأنّ الله تعالى عصمهم ونزههم عن كل رجس ودنس، ونحاول أن نضيف هنا بعض الأقوال الأخرى الصريحة في العصمة عن كل دنس ومنذ الولادة وقبل النبوة:

١- قال القسطلاني في المواهب اللدنّية:

«قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾، إعلم أنّه اتفق العلماء على أنّه (صلّى الله عليه وسلّم) ما ضل لحظة واحدة قط، وهل هو جائز عقلاً على الأنبياء- صلوات الله عليهم أجمعين - قبل النبوة؟ قالت المعتزلة: هو غير جائز عقلاً لما فيه من التنفير.

وعند أصحابنا: إنّه جائز في العقول، ثم يكرم الله من أراده بالنبوة، إلاّ أنّ الدليل السمعي قام على أنّ هذا الجائز لم يقع لنبيٍّ، قال الله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ قاله الإمام فخر الدين.

وقال الإمام أبو الفضل اليحصبي في «الشفاء»: «والصواب أنّهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله تعالى وصفاته والتشكيك في شيءٍ من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً ممن نُبِّئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا

الباب النقل.

ثم قال: وقد استبان بما قررناه ما هو الحقّ من عصمته (صلّى الله عليه وسلّم) عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلاً وقبلها سمعاً ونقلاً، ولا بشيء مما قرره من أمور الشرع وأداه عن ربّه من الوحي قطعاً عقلاً وشرعاً، وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبّأه الله وأرسله قصداً أو غير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً ونظراً وبرهاناً، وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمّة، وعصمته في كل حالاته من رضاً وغضب، وجدّ ومزح- إلى أن قال:- وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمصير إلى امتثال أفعالهم واتباع آثارهم مطلقاً، وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة من غير التزام قرينة، بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حكم ذلك، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم في أفعالهم؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة والحظر والمعصية»[(١)].

٢- ما ذكره القسطلاني أيضاً في موضع آخر من كتابه، في معرض تعداد مناقب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

---

(١) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية بشرح الزرقاني: ج٩ ص٤- ٨ ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت.

«ومنها: أنه معصوم من الذنوب كبيرها وصغيرها وعمدها وسهوها وكذلك الأنبياء»[١].

٣- وقال العلامة الزرقاني في شرحه للمواهب اللدنية:

«ومنها: أنه معصوم من الذنوب بعد النبوة وقبلها كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها على الأصح في ظاهره وباطنه وسرّه وجهره ومزحه ورضاه وغضبه، كيف؟ وقد أجمع الصحب على اتباعه والتأسي به في كل ما يفعله، وكذلك الأنبياء.

قال السبكي:

أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء فيما يتعلق بالتبليغ وغيره من الكبائر، وصغائر الخسة والمداومة على الصغائر. وفي صغائر لا تحط من رتبتهم خلاف، ذهب المعتزلة وكثير من غيرهم إلى جوازها، والمختار المنع: لأنا أمرنا بالاقتداء بهم فيما يصدر عنهم، فكيف يقع منهم ما لا ينبغي، ومن جوّزه لم يجوزه بنص ولا دليل»[٢].

واستشهد الزرقاني في موضع آخر من شرحه، بقول الشاعر:

يا سائلي عن رسول الله كيف سهى — والسهو من كل قلب غافل لاهي
قد غاب عن كل شيء سرّه فسها — عمّا سوى الله فالتعظيم لله[٣]

---

(١) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية بشرح الزرقاني: ج٧ ص٣٢٧- ٣٢٨، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية بشرح الزرقاني: ج٧ ص٣٢٧- ٣٢٨، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية بشرح الزرقاني: ج٩ ص٦، ط١، دار الكتب العلمية بيروت.

٤- قال النووي في روضة الطالبين:

«اتفقوا أن النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) لم يعبد صنماً قط، والأنبياء قبل النبوة معصومون من الكفر، واختلفوا في العصمة من المعاصي، وأما بعد النبوة فمعصومون من الكفر ومن كل ما يخل بالتبليغ وما يزري بالمروءة ومن الكبائر، واختلفوا في الصغائر، فجوزها الأكثرون، ومنعها المحققون وقطعوا بالعصمة منها، وتأولوا الظواهر الواردة فيها»(١).

٥- قال أبو حنيفة في الشرح الميسّر المنسوب إليه:

«ومحمد عليه الصلاة والسلام حبيبه وعبده ورسوله وصفيه ونقيه، ولم يعبد الصنم ولم يشرك بالله تعالى طرفة عين قط، ولم يرتكب صغيرة ولا كبيرة قط»(٢).

٦- وقال المقريزي في إمتاع الأسماع في وصفه للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله:

«وكان الله سبحانه قد صانه وحماه من صغره وطهره من دنس الجاهلية ومن كل عيب ومنحه كل خلق جميل، حتى لم يكن يعرف بين قومه إلاّ بالأمين؛ لما شاهدوا من طهارته وصدق حديثه وأمانته»(٣).

٧- وللقاضي عياض كلام كثير في هذا المجال، منه قوله في الأنبياء عليهم السلام:

«والصحيح أن شاء الله تنزيههم من كل عيب وعصمتهم من كل ما يوجب الريب»(٤).

---

(١) محيي الدين النووي، روضة الطالبين: ج٨ ص٤٠٨، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) الشرح الميسّر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة: ص ٣٩، مكتبة الفرقان.

(٣) المقريزي، إمتاع الأسماع: ص١٨، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٤) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٥٣، دار الأرقم - بيروت.

وقال في موضع آخر في النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله:

«واعلم أنّ الأمّة مجمعة على عصمة النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوسواس»[١].

وقال أيضاً:

«وأمّا أقواله الدنيوية من إخباره عن أحواله وأحوال غيره ما يفعله أو فعله، فقد قدّمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه في كلٍّ حال، وعلى أي وجه، من عمد أو سهو أو صحة أو مرض أو رضاً أو غضب، وأنه معصوم منه (صلّى الله عليه وسلّم)»[٢].

وأما أقوال علماء الإمامية في هذا المجال فسيأتي ذكرها والتعرض لها في مبحث سهو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

نتيجة البحث في الأدلة على عصمة الأنبياء:

١- إنّ العقل المدعوم بالشواهد القرآنية والروائية وأقوال العلماء صريح في عصمة الأنبياء عن الذنب والسهو والخطأ والنسيان قبل النبوة وبعدها.

٢- إنّ الآيات القرآنية والروائية دالة على ذات ما دلّ عليه العقل من العصمة المطلقة ومنذ الولادة.

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٢٥، دار الأرقم - بيروت.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٩٣، دار الأرقم - بيروت.

٣- إنّ الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فهم منزهون عن الغفلة والسهو والنسيان.

٤- إنّ منشأ العصمة ومستندها وهو العلم الخاص الشهودي اللدنّي الذي يُنتج أعلى درجات التقوى يتنافى مع الجهل والخطأ والسهو والنسيان.

٥- إنّ الشيطان لا سلطان له على الأنبياء مطلقاً.

٦- إنّ الاصطفاء والاجتباء معناه العصمة المطلقة والتنزيه عن كل دنس ورجس.

٧- إنّ الاصطفاء تعلق بالنسل والعقب والآل والذرية ومن بيوت خاصة مباركة، فلا توجد فاصلة زمانية بين الولادة والعصمة؛ إذ لم يتأخر الإصطفاء عن زمان الولادة، وهذا ما دلّت عليه الآيات والروايات وأقوال بعض أعلام أهل السنة.

٨- إنّ الآيات دلّت على أن العصمة والإصطفاء والاجتباء أمر اختياري، بمعنى أنّه لم يخرج النبيّ المصطفى عند الله تعالى عن اختياره الإنساني.

٩- إنّ الآيات الكريمة وروايات أهل السنة وبعض أقوالهم صريحة في العصمة المطلقة والعامة لنبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله منذ الولادة وعن الذنب والمعصية والخطأ والسهو والغفلة والنسيان.

١٠- إنّ نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله سبق جميع الأنبياء في نيل مقام النبوة

بوجوده المبارك الذي سبق وجودهم، وهذا هو معنى الاصطفاء والعصمة منذ الولادة.

١١- إنّ الأدلة العقلية والقرآنية والروائية الصريحة في العصمة العامة والمطلقة تُعدّ من المحكمات التي لابدّ أن يحمل عليها المتشابه من دلالات بعض الآيات والروايات، التي قد يوهم بعض ظواهرها ما ينافي تلك العصمة العامة، ولا يتبع ما تشابه من القرآن إلاّ من كان في قلبه زيغ ومرض.

١٢- اتضح مما تقدّم أنّ قول بعض الكتّاب: مبدأ العصمة المطلقة ورثته الشيعة عن المذهب المجوسي، اتهام وفرية لا أساس لها من الصحة، إذ اتضح وسيأتي أيضاً أنّه مبدأ عقلي وقرآني وروائي وعقيدة إسلامية أصيلة.

١٣- تبيّن أيضاً زيف الإشكال القائل: من أن نفي مطلق السهو والنسيان تأليه وتشبيه للأنبياء بمن لا تأخذه سنة ولا نوم، حيث اتضح أنّها عقيدة قرآنية وروائية في الأنبياء والأوصياء أيضاً، وإن إقدار الله تعالى بلطفه وتوفيقه لبعض المصطفين من خلقه، من دون أن يخرج ذلك عن قدرته وسلطانه لا يعني أن يقف ذلك المخلوق مستقلاً ونداً أمام مولاه، وإنّما الله تعالى هو الذي أقدر على ما أقدرهم عليه، وله أن يسلبهم تلك النعمة في كل وقت وآن، فليس عدم السهو والنسيان في الأنبياء بنحو الاستقلال والانعزال عن الإرادة والقدرة الإلهية، لكي يكون من إعطاء صفات الخالق إلى المخلوق، وإنّما هو بإذن من الله تعالى،

كما كان عيسى عليه السلام يحيي الموتى بـإذن ربِّـه، وكمـا كـان ولا زال ملـك الموت يتوفى الأنفس بإذن الله تعالى بلا شرك في هذا الفعل أصلاً.

١٤- إنّ دائرة عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أوسع وأشمل من دائرة عصمة سائر الأنبياء، بمعنى أنّه صلى الله عليه وآله معصوم عن ترك الأولى أيضاً.

الفصل الرابـع

العصمة المطلقة
و
ظواهر بعض الآيات المتشابهة

* تمهيد
* المبحث الأول: الآيات التي احتج بها المنكرون لعصمة الأنبياء
* المبحث الثاني: عصمة نبينا الأكرم وبعض متشابهات القرآن
* المبحث الثالث: الروايات والأحاديث المنافية للعصمة
* المبحث الرابع: شبهة الإجماع على إنكار العصمة المطلقة

العصمة المطلقة وظواهر بعض الآيات المتشابهة

تمهيد:

إنّ الله تعالى قد أمرنا في كتابه العزيز بالتمسّك بالمحكم من آيات القرآن، وحمل الآيات التي تتنافى بظاهرها معها على المعنى المحكم المستفاد من صريح تلك الآيات المحكمة، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[1]، وبعد أن اتضح أنّ مبدأ العصمة المطلقة للأنبياء من محكمات الآيات القرآنية وصريحها، وسيتبيّن أيضاً أنّ الآيات الأُخرى لا تتنافى مع المحكمات إلاّ بحسب الظاهر البدوي الموهوم، أو بحسب مقامات الأنبياء واختلافها عن العاديين من البشر، وبعد أن اتضح ويتضح ذلك كلّه، لابدّ من التمسك بالمحكمات والقول بالعصمة المطلقة، وما دون ذلك يكون زيغاً وانحرافاً لابتغاء الفتنة واستحداث الفرقة بين الطوائف الإسلامية.

وقد تصدّى منذ القدم علماء الفريقين للإجابة عن ظواهر الآيات التي توهم عدم العصمة، والردّ على من استدل بها على ذلك، منهم السيد الشريف المرتضى علم الهدى المتوفى (٤٣٦ هـ) في كتابه (تنزيه الأنبياء)، حيث تصدّى للإجابة عن كل من استدل بالظواهر المتوهمة من بعض الآيات لنفي العصمة المطلقة للأنبياء، ومنهم أيضاً علي بن أحمد السبتي الأموي المالكي، المعروف بـ (ابن خُمير)، من أعلام القرن السادس في كتابه الموسوم بـ (تنزيه الأنبياء)، وهكذا الفخر الرازي من أعلام القرن

---

(١) آل عمران: ٧.

السادس أيضاً في كتابه (عصمة الأنبياء)، وغيرهم من العلماء، وإذا أردنا الوقوف على كل ما تشابه لدى القوم من الآيات الظاهرة بدواً في خلاف العصمة لتطلب منّا مؤلفاً خاصاً في هذا المجال، ولكن نحاول أن نشير إلى أهم تلك الآيات المباركة مع الإجابة المختصرة عليها.

المبحث الأول: الآيات التي احتج بها المنكرون لعصمة الأنبياء المطلقة

حاول المنكرون لعصمة الأنبياء المطلقة أن يستدلوا على إنكارهم بجملة من الآيات المباركة، ونستعرض فيما يلي تلك الآيات لكي نلاحظ مدى انسجامها أو تقاطعها مع مبدأ العصمة.

الآية الأولى: إلقاء الشيطان في أمنية الأنبياء والرسل

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[1]، فقد استظهر البعض من هذه الآية المباركة أن الشيطان يلقي في أمنية الرسول أو النبيّ بالتدخل في الوحي النازل عليه، فيغيّره إلى غير ما نزل به، ثم إنّ الله تعالى يمحو ما يلقي الشيطان ويصحح ما أنزل على رسوله من الآيات.

---

(١) الحج: ٥٢- ٥٣.

الجواب:

أولاً: أقوال المفسرين:

إنّ المفسرين من أعلام السنّة فسّروا هذه الآية المباركة بما لا يتنافى وعصمة الأنبياء عليهم السلام في الوحي والتبليغ:

قال المراغي في تفسيره للآية المباركة:

«أي: وما أرسلنا قبلك رسولاً ولا نبيّاً إلاّ إذا قرأ، ألقى الشيطان على سامعيه- وهو يتلو الوحي الذي أنزل إليه - شبهات فيما يقرأ، فيقول قوم إنّه سحر، ويقول آخرون نقله الرسول عن بعض الأولين، وهكذا الأباطيل والترهات التي يتقوّلونها.

﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي: فيزيل سبحانه تلك الخرافات التي علقت ببعض النفوس، بأن يقيض للدين من يدافع عنه ويدفع الشبهات، ثم يجعل آياته محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال»[(١)].

وقال الشوكاني في تفسيره للآية أيضاً:

«فحاصل معنى الآية: إنّ الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك [ما ألقاه الشيطان[(٢)]] من دون أن يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله ولا جرى على لسانه»[(٣)].

وقال الصابوني في هذا المجال:

---

(١) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي: ج٦ ص٢٤٧، ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) وهو ما ورد من قصة وأسطورة الغرانيق المعروفة.

(٣) الشوكاني، فتح القدير: ص١١٧٣، ط١ - دار ابن حزم - بيروت.

«ومعنى الآية: وما أرسلنا رسولاً ولا نبيّاً فحدّث نفسه بشيء وتمنى لأمته الهداية والإيمان إلاّ ألقى الشيطان الوسواس والعقبات في طريقه، بتزيين الكفر وإلقائه في نفوسهم مخالفة لأمر الرسول، وكأنّ الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له: لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين»[1].

والأقوال في هذا المجال كثيرة جداً، وحاصلها:

إنّ المراد من الآية المباركة: إنّ الله تعالى ما أرسل من رسول ولا نبيّ إلاّ إذا تمنى أمراً لصالح الدين والمجتمع وتلا من آيات الله تعالى، ألقى الشيطان في أمنيته وداخل فيها بالشبه المضلّة ووسوسة الناس وتهييج الظالمين وإغراء المفسدين، ليجادلوه ويفسدوا على المؤمنين إيمانهم، فينسخ الله ويزيل ويبطل ما يلقيه الشيطان من الشبهات، ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعي الرسول أو النبي وإظهار الحق على يديه والله سميع عليم.

ثانياً: عصمة النبيّ عن تأثير الشيطان

إنّ هناك جملة من الآيات المحكمة التي تقدّم ذكرها سابقاً تنصّ بالصراحة على نفي سلطان إبليس على المخلَصين من الأنبياء والرسل، فلو فرض أنّ الآية المباركة في محل البحث ظاهرة في سلطان إبليس على الأنبياء والرسل في إبلاغ الوحي، فلابدّ من صرف الآية المباركة

---

(١) الصابوني، صفوة التفاسير: ج٢ ص٢٥٥، ط١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

عن ظهورها، كما نصّ على ذلك علماء الأصول، حيث أنهم يقدّمون الصريح على الظاهر من دون خلاف بينهم.

وبعبارة أخرى: إنّ الآيات الدالة على عصمة الأنبياء والرسل عن وساوس الشيطان من المحكمات، التي لابدّ أن تحمل المتشابهات عليها في المعنى، ولا يتمسك بالمتشابه إلاّ من أزاغ الله قلبه.

ثالثاً: الإجماع على العصمة في التبليغ

إنّ العصمة في التبليغ مما أجمعت عليه الطوائف الإسلامية ولا يكاد يوجد مخالف في ذلك، وعليه لا يمكن الأخذ بما يُدّعى من ظهور الآية في عدم العصمة في التبليغ، لمنافاته لإجماع الأمة، الذي ادُّعي عصمته في كلمات أعلام السنّة، وإن كنّا لا نؤمن بهكذا مبدأ.

الآية الثانية: عصيان آدم عليه السلام وتوبته

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[(١)].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[(٢)]، إنّ هذه الحادثة التي حصلت لآدم عليه السلام مع إبليس من أقوى ما تمسّك به المجوزون لصدور المعصية من الرسل والأنبياء، لصراحة الآيات في المعصية والغواية.

(١) طه: ١١٥.

(٢) طه: ١٢١- ١٢٢.

الجواب:

أولاً: ترك الأمر الإرشادي وعصيانه

لا شك أن الظرف الذي تلقى فيه آدم النهي عن الأكل من الشجرة لم يكن ظرف تشريع وتكليف، وإنّما كان ذلك الظرف مُعدّاً لتبصير ذلك المخلوق الجديد بأعدائه وأصدقائه وتحصيل الاستعداد لتحمل التكاليف في المستقبل بالتعليم والاختبار، وحينئذٍ يكون منطلق الأمر والنهي الإلهي في ذلك الظرف من موقع النصح والإرشاد والهداية، وتذكير آدم عليه السلام وتعليمه الآثار والمضاعفات الطبيعية والعواقب التي قد تترتب على بعض الأفعال من سعادة وشقاء، ثم يُترك له الاختيار، فإن اتبع النصح والإرشاد فقد نجا عمّا يترتب على العمل من التعب والعناء، وإن خالف النصيحة وقع في المضاعفات التي تكمن في ذات الفعل.

ومن ذلك يتضح أنّ مخالفة آدم عليه السلام للنهي عن الشجرة إنّما تعدّ معصية بالمعنى المصطلح ومنافية للعصمة المطلقة فيما إذا كان النهي نهياً مولوياً تكليفياً صادراً عن الله تعالى على وجه المولوية، لا فيما إذا كان أمراً إرشادياً وارداً بصورة النصح والتوجيه، كما هو الحال في المقام.

والشواهد من الآيات المباركة على كون النهي إرشادياً كثيرة جدّاً:

منها: إنّ الآيات ذكرت أن أثر المخالفة بقي على حاله رغم توبة آدم عليه السلام ﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وهذا يعني أن الخروج عن الجنة والتعرض للشقاء والتعب كان أثراً طبيعياً لنفس العمل، والنهي إرشاد

لصيانة آدم عليه السلام عن تلك الآثار والعواقب، ولو كان النهي عن الشجرة نهياً تكليفياً مولوياً للزم أن يرتفع أثر المخالفة بعد التوبة والإنابة.

ومنها: إنّ الآيات الواردة في سورة «طه» ذاتها كشفت النقاب عن حقيقة النهي، حيث صرحت بأن النهي كان نهياً إرشادياً، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۞ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾[1]، فهذه الآيات صريحة في أن الأثر المترتب على امتثال النهي هو البقاء في الجنة ونيل السعادة الدائمة، وأن الأثر المترتب على المخالفة هو الخروج من الجنة والتعرض للشقاء في الدنيا من الجوع والعرى والظمأ وحر الشمس، فكان الله تعالى ينهى بصورة الإرشاد والنصح والهداية إلى أن المخالفة طريق التعب والشقاء الدنيوي.

ومنها: إنّ وسوسة الشيطان لآدم وحواء كانت بصورة النصح والإرشاد، حيث قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[2]، مما يكشف بقرينة المقابلة أن الخطاب الإلهي لهما كان بصورة الإرشاد أيضاً، كما هو واضح لمن كانت له دربة في كلام العرب.

ثانياً: ترك الأولى

لو فرضنا أن النهي عن أكل الشّجرة كان نهياً مولوياً تكليفياً، ولكن بقرينة ما تقدم من الآيات المحكمات في عصمة الأنبياء المطلقة وعدم

---

(١) طه: ١١٧- ١١٩.

(٢) الأعراف: ٢١.

قدرة الشيطان على إغوائهم، يتضح أن النهي لم يكن نهياً إلزامياً، بل هو ندبي استحبابي، وليست مخالفته إلاّ من باب ترك الأولى والأفضل، وأما التعبير بالعصيان والظلم وغيرهما، فلأجل أن ما لا يعدّ ذنباً بالنسبة إلى شخص ويكون مباحاً وجائزاً بالنسبة له، قد يكون نفسه مستقبحاً وقبيحاً صدوره من شخص كآدم، حيث أعزه الله تعالى بتعليمه الأسماء وجعله مُعلّماً للملائكة ومسجوداً لهم مع اصطفائه للخلافة في الأرض، وكما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد أشار إلى ذلك العيني في شرحه لصحيح البخاري، حيث قال:

«وقال بعض العلماء: ما ورد في القرآن والسنة من ذكر ذنب لبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كقوله﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ونحو ذلك، فليس لنا أن نقول ذلك في غير القرآن والسنة حيث ورد، ويؤوّل ذلك على ترك الأولى، وسميت ذنوباً لعظم مقدارهم، كما قال بعضهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين»[1].

وقال القرطبي في تفسيره:

«والذي ينبغي أن يقال: إنّ الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها - إلى أن قال:- فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقّهم سيئات، بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم

(١) العيني، عمدة القاري: ج٧ ص٢٦٨، ط١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

بالأمن والأمان والسلامة، قال: وهذا هو الحقّ، ولقد أحسن الجنيد، حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين»[١].

ومن ذلك كلّه يتضح: أنّ المعصية والظلم والزلل والغواية المذكورة في الآيات المباركة في حق آدم عليه السلام بمعنى ترك الأولى الناتج عن مخالفة الأمر الإرشادي أو الأمر المولوي الندبي، وهو ظلم وزلل ومعصية وغواية بالنسبة إلى مقام الأنبياء الشامخ والنعم التي أولاها الله تعالى لهم، وذلك على سبيل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ويتضح من ذلك أيضاً: أنّ الشيطان لم يكن له سلطان على آدم عليه السلام كما هو مسلّط على سائر العباد، وإنّما جاء إبليس لآدم وجهاً لوجه ثم عرض بضاعته على سبيل النصح والإرشاد، فاختار آدم الطريق الذي بيّنه إبليس وأدّى به إلى ترك الأولى، ولم يكن آدم بفعله متبعاً لإبليس الذي أعلمه الله تعالى بأنه عدو له، وإنما اختار ما لا محذور فيه وما لا ينافي العصمة المصطلحة فأدّى به إلى ترك الأولى، نعم كان لإبليس دور في فتح آفاق ذلك الفعل أمام آدم عليه السلام، ولم يكن في ذلك الطريق الذي اختاره آدم عليه السلام طريق فجور أو معصية إلزام، لكي يتنافى مع عصمته واصطفائه، فما فيه الاصطفاء لا مجال لوسوسة الشيطان فيه، وما وسوس الشيطان فيه لا تأثير له على العصمة المطلقة التي أثبتناها للأنبياء عليهم السلام، وإنّما كان للشيطان دور في أن يختار آدم فعلاً مباحاً، لا غضاضة فيه إلاّ من جهة كونه تركاً للأولى، بمعنى عدم مناسبته لمقام الخلافة الذي أولاه الله تعالى إياه.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج١ ص٣٣٩.

ثالثاً: أقوال أعلام السنّة في هذا المجال

ونقتصر فيما يلي على قول أبي الحسن السبتي الأموي المالكي، المعروف بـ (ابن خُمير) حيث قال في كتابه (تنزيه الأنبياء):

«والذي ينبغي أن يعوّل عليه في قصة آدم عليه السلام أن نهيه عن الشّجرة كان نهي إرشاد وإعلام على جهة الوصية والنصيحة لا على جهة التكليف، فإنّه ما صح تكليفه في الجنة ولا ثبوته، لا في كتاب ولا سنة.

والأوامر والنواهي تنقسم إلى مشروع وغير مشروع، كالأوامر اللغوية، فإنّ السيد قد يقول لعبده، والأخ لأخيه، والصاحب لصاحبه على جهة الإعلام والإرشاد والنصيحة: افعل كذا واترك كذا تسلم من كذا وتظفر بكذا، وكذلك أوامر الأطباء للعليل بالحمية والدواء والغذاء إلى غير ذلك.

فكان أمر الله تعالى لآدم عليه السلام بسكنى الجنان والأكل الرغد ونفوذ المشيئة من باب الإعلام والتأنيس بالبشارات، بأنه لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، وكان نهيه له على جهة الإرشاد المتقدم ذكره، أو التحذير مما تؤول إليه عقباه إن فعل ما نهي عن فعله في خروجه عن الجنة وشقائه في الدنيا، والإعلام بمكيدة الشيطان والتحفظ منه وكونه عدواً حاسداً له، وهذا معلوم في اللسان وما جرت به العادات - إلى أن قال: - فإن احتجوا بقوله تعالى إنه: عصى وغوى وظلم نفسه، قلنا: إذا لم يثبت تكليفه في الجنة فتخرج هذه الألفاظ على مقتضى اللغة، فإنّ المعصية في اللسان عدم الامتثال، كانت مقصودة أو غير

مقصودة، وظلم النفس: غبنها وبخسها في منافعها لكونه وضع الفعل في غير موضعه، وكذلك غوى: أدخل على نفسه الضرر، يقال: غوى الفصيل إذا رضع فوق حدّه من اللبن فبشم، فعلى هذه الوجوه تخرج هذه الألفاظ»(١).

إذن بعد ثبوت العصمة والاصطفاء لآدم عليه السلام بما تقدّم من محكمات الآيات، وبعد كون الدار التي كان فيها آدم عليه السلام ليست دار تكليف مولوي، تحمل الألفاظ حينئذٍ التي توهم المنافاة للعصمة على معانيها اللغوية، فالعصيان خلاف الطاعة، وإذا كان الأمر إرشادياً فالعصيان خلاف طاعة الأمر الإرشادي، وهو غير المعصية الاصطلاحية التي تتنافى مع العصمة، وكذا الغواية فهي تستعمل بمعنى الخيبة لغة أيضاً، ويكون المعنى في المقام الخيبة والخسران والحرمان من العيش الرغيد والوقوع في المشقات والهبوط إلى دار الدنيا، وأما الظلم فهو وضع الشيء في غير موضعه، وهو ما فعله آدم عليه السلام عند مخالفته للأمر الإرشادي، وهكذا توبة الله تعالى على آدم بمعنى أن الله رجع عليه بالرحمة واللطف وهداه وأخرجه من الغواية والظلمة، التي نتجت من عدم الإصغاء إلى النصائح والإرشادات الإلهية، وذلك بعد أن تاب آدم إلى ربه من تركه الأولى ومخالفة النصائح بما لا يتناسب مع مقامه وعلمه بالعظمة الإلهية، وهكذا يحمل طلب الغفران والمغفرة من قبل آدم عليه السلام على معناه اللغوي، وهو

---

(١) ابن خمير السبتي الأموي المالكي، تنزيه الأنبياء: ص٧٨- ٨١، تحقيق الدكتور محمد رضوان الدّاية، ط٢ دار الفكر المعاصر - بيروت، ودار الفكر - دمشق.

التغطية والستر، وآدم قد خسر النعيم الذي كان فيه لمخالفته النصيحة، وهو عيب في منطق الأنبياء والأولياء والصالحين، يستدعي الطلب من الله تعالى بستره وغفرانه؛ لأنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين، كما تقدّم.

ونضيف إلى قول ابن خُمير ما ذكره ابن عاشور المالكي في تفسيره لآية عصيان آدم عليه السلام، حيث قال:

«ليس في هذه الآية مستند لتجويز المعصية على الأنبياء ولا لمنعها؛ لأن ذلك العالم لم يكن عالم تكليف»(١).

الآية الثالثة: مطالبة نوح بنجاة ابنه الكافر

قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ۝ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢)، حيث استظهر من يشكك بعصمة الأنبياء المطلقة من هذه الآية المباركة أن نوحاً عليه السلام تكلّم بما لا يليق بساحة الأنبياء وسأل ما ليس له به علم، مما استوجب منه طلب الغفران وهو دليل على أن ما صدر منه ذنب لا يجتمع مع العصمة المطلقة للأنبياء.

---

(١) ابن عاشور المالكي، التحرير والتنوير: ج١ ص٢٦٨٠.

(٢) هود: ٤٥- ٤٧.

الجواب:

أولاً: حسنات الأبرار سيئات المقربين

إنّ ما طلبه نوح عليه السلام من الله تعالى لم يكن ذنباً ولا معصية بحسب مقاسات البشر العاديين، وهل أن الشخص إذا طلب من الله تعالى أن ينجّي ابنه من الكفر ومن الغرق يكون عاصياً ومذنباً بالذنب الاصطلاحي الذي يتنافى مع مبدأ العصمة؟!

وهذا يعني أن ما سأله نوح عليه السلام واستوجب لأجله طلب المغفرة والرحمة -على فرض أنه فعل ما يستوجب ذلك- هو فعل ما لا يتناسب ومقام نوح، الذي هو من أولي العزم، وقد أرشده الله تعالى ونصحه ووعظه أن لا يسأل هكذا سؤال لا يتناسب مع منزلته عند الله تعالى، وهذا يجري مجرى ما ذكرناه في عصيان آدم عليه السلام، وأنّه من باب: إنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ ولذا استوجب من نوح عليه السلام طلب الستر والتجاوز والمغفرة والرحمة؛ لئلا يهبط من الدرجة العليا لمقامه الشامخ عند الله تعالى إلى ما هو أدون منه، فيكون من الخاسرين.

ثانياً: ربّ إنّ ابني من أهلي

إنّ الله تعالى قد وعد نبيه نوح عليه السلام بأن ينجي أهله إلاّ من سبق عليه القول، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ

﴿اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[١]، هذا من جانب.

ومن جانب آخر كان ابن نوح عليه السلام يُظهر لأبيه الإيمان ويُبطن الكفر، كما نص على ذلك المفسرون[٢]، ويدل على ذلك أيضاً قول نوح عليه السلام لابنه عندما امتنع من ركوب السفينة: **﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾**[٣]، والأنبياء مكلّفون تجاه الخلق بالظواهر والله تعالى يتولّى سرائرهم، فلما لم ير نوح عليه السلام امرأته أيقن بهلاكها، وظن أنّها هي المستثناة، وأنّها هي التي سبق عليها القول من الله تعالى بالكفر والعذاب فحسب، فلما رأى ولده بمقربة من السفينة، حيث يسمع النداء وهو على ظاهر الإيمان، فحسب نوح أنّه من أهله، فقال له **﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾** فلما حال بينهما الموج وأدرك ابنه الغرق أخذت نوح الحيرة، وقال: **﴿رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي﴾** يعني في النسب وظاهر الإيمان، فأجابه الله تعالى بأنه **﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** ولم يدركه الغرق إلاّ لكفره، فهو داخل في قوله تعالى: **﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾**[٤]، فعوتب نوح على سؤاله وخطابه في الذين ظلموا، لأنه غير لائق بساحة الأنبياء، وإن كان نوح

---

(١) هود: ٤٠.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج٧ ص٤٤، ط١- دار الفكر - بيروت، الجصاص، أحكام القرآن: ج٤ ص٣٧٨، دار إحياء التراث - بيروت.

(٣) هود: ٤٢.

(٤) هود: ٣٧.

إنّما تعامل مع مجريات الأمور بحسب الظاهر واستناداً إلى الوعد الإلهي، ولكن حيث إنّ الله تعالى قد أغرق ابنه، فكان على نوح أن يُسلّم أمام ذلك القضاء الإلهي، ويعلم أن حسن ظنه بابنه كان بحسب الظاهر ولا واقع له عند الله تعالى، لأنّه كان في سريرته من المنافقين الظالمين المشمولين بالهلاك، وليس هذا من الأمور التي تنافي العصمة، وإنّما هو من ترك الأولى الذي لا يناسب مقام الأنبياء، خصوصاً إذا كان من أولي العزم.

ثالثاً: إني أعظك أن تكون من الجاهلين

إنّ معاتبة الله تعالى لنوح عليه السلام كانت على سؤاله عمّا جرى لابنه وعجلته قبل أن يُحدث الله تعالى له ذكراً وبياناً عمّا جرى من أحداث، فحذّره الله تعالى أن يفعل ذلك على جهة النزاهة والإرشاد، لا على نحو الحضر والعزيمة، فقال: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وهذا نظير ما ورد في القرآن الكريم من معاتبة الخضر عليه السلام لنبي الله موسى عليه السلام عندما سأله عمّا يفعل من دون أن يحدث له الخضر ذكراً فيما فعل، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۞ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1]، فبعد أن كلّف الخضر موسى بالسكوت، عاتبه عندما لم يأتمر بأمره،

---

(١) الكهف: ٦٦- ٧٠.

وفارقه جرّاء ما صدر منه من المخالفة، ومن الواضح أن مخالفة هكذا أوامر ليس من المعصية المنافية للعصمة، وإنما هو مما ينافي كمال المرتبة والمنزلة اللائقة بساحة الأنبياء، وقد استغفر نوح عليه السلام من ذلك طالباً للرحمة، شاكراً للعناية الإلهية التي حالت بينه وبين أن يكون من الجاهلين.

الآية الرابعة: عصمة موسى عليه السلام وقتل القبطي من أنصار فرعون

قال تعالى في قتل موسى عليه السلام لأحد أقباط مصر: ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾(١)، لقد استدل بهذه الآيات المباركة على نفي العصمة المطلقة؛ لأنّ موسى عليه السلام ندم من فعله ووصفه بأنّه من عمل الشيطان وأنّه ظلم نفسه فاستغفر ربه فغفر له، وهذا يعرب عن كون القتل الذي صدر منه مخالفة ومعصية غير مشروعة.

الجواب:

أولاً: تناسب الفعل مع الحدث

لابدّ أن يُعلم أنّ موسى عليه السلام لم يتعمّد ولم يتقصّد القتل ولا أراده، وإنّما كان مارّاً في طريقه بالمدينة على حين غفلة من أهلها، فاستغاث به رجل من شيعته وأتباعه على رجل كافر من أتباع فرعون من الأقباط،

---

(١) القصص: ١٥- ١٦.

وهو عدوّ لموسى ولأتباعه، وكان ذلك القبطي قد بغى على الذي هو من شيعة موسى عليه السلام وظلمه وكان قاصداً قتله، فأراد موسى عليه السلام أن يخلّصه من يده ويدفع عنه مكروهه وهو الاعتداء بالقتل، فأدى دفاع موسى عليه السلام إلى قتل ذلك القبطي، ولم يكن فعل موسى عليه السلام من الأفعال المؤدّية إلى القتل كالطعن بالرمح أو السيف أو الضرب بالحجر، وإنّما وكزه فقط فمات، وبحسب الأمور الطبيعية المعتادة لم تكن الوكزة مؤدّية إلى القتل، وإن كان قد يقع نادراً، كما هو الحال في موسى عليه السلام، حيث مات القبطي من وكزته.

إذن كان الفعل الصادر من موسى عليه السلام متناسباً جدّاً مع الحدث، إذ كان المقصود دفع المكروه والقتل عن مؤمن وحفظ نفسه في قبال كافر فاجر، وهو فعل حسن ومندوب إليه في جميع الشرائع السماوية بما فيها الشريعة الموسوية، وأما القتل فلم يكن مقصوداً ولا الفعل مؤدّياً إليه إلا نادراً، لأسباب وظروف قد تحيط بالحدث، تكون هي المساعدة على تمامية العلة، وتأدية الوكزة إلى القتل، وقد وكز موسى عليه السلام القبطي لأجل كفره وعداوته واعتدائه على مؤمن مستضعف بالقتل، ولم يكن موسى قاصداً قتله.

ثانياً: القبطي كافر حربي معاند مستحقّ للقتل

لو قلنا أيضاً بأن موسى وكز القبطي بقصد قتله، فهو قد قتل كافراً معانداً حربياً، عدوّاً لموسى وشيعته، وهو متلبّس باعتدائه على مؤمن

بقصد قتله، فحفظ موسى عليه السلام نفساً مؤمنة وأنقذها بفعله من الكافر المعاند، والقتل في مثل هذه الظروف ليس من قتل النفس بغير حقّ، وإنّما هو بحق وبموجب الشريعة الموسوية، التي أعلنت المقاطعة مع الدولة الحاكمة آنذاك، والمتمثلة بشخص فرعون وملئه، وتصدّت للتصادم معها.

وعلى أيّة حال لم يكن الفعل على أقل تقدير ذنباً أو معصية منافية للعصمة، وإنّما هو فعل وقع وفق موازين شريعة موسى عليه السلام.

وأما قول موسى عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فالمراد منه أن الشيطان كان هو المدبّر الأول لحصول وتحقق عملية الشجار والاقتتال بين القبطي ومن هو من شيعة موسى عليه السلام، ثم قتل القبطي بعد ذلك؛ إذ أنّ الشيطان قد تسلّط على فرعون وأتباعه وجعلهم محاربين لموسى عليه السلام وشيعته يقصدونهم بالقتل والهتك والتشريد، ومن ذلك ما حصل من القتال بين الرجلين، فاستوجب ذلك أن يدافع موسى عليه السلام عن الذي هو من شيعته، فوكز القبطي بحق فقتله بلا قصد، وما قُتل القبطي إلاّ بسوء ما أضله به الشيطان، فصحّ أن يقال: إنَ ما وقع من حدث وتداعياته من عمل الشيطان وتدبيره.

ثم لو فرضنا أن قول موسى عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وصف لقتله القبطي، فإنّه بسبب كونه من ترك الأولى ووضع الشيء في غير موضعه، نظير ما تقدّم في آدم ونوح (عليهما السلام)، بيان ذلك:

إنّ الله تعالى كان هو الحاكم والمدبّر الأول في حركة موسى عليه السلام لإبلاغ الرسالة وبناء المجتمع المتمسك بتلك الرسالة، والآيات التي تصرّح بهذا المضمون كثيرة، كما هو واضح من سياق سورة طه، من الآية التاسعة إلى الآية الثامنة والتسعين، حيث بيّن الله تعالى فيها الإرادة الإلهية المباشرة لنهوض موسى عليه السلام بالرسالة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[1]، وكذا قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۞ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ۞ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ۞ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[2]، فهذا يعني أن هناك تدابير إلهية أمنية حسّاسة لابدّ من السير على ضوئها للوصول إلى الهدف، من الحذر والقول اللّين وتجنب طغيان فرعون.

وقتل القبطي وإن لم يكن معصية، بل قد يكون حسناً ومطلوباً في ذاته، ولكنه لا يتناسب والهدف الإلهي الذي من أجله اصطنع الله تعالى موسى عليه السلام لنفسه، وهو مواجهة طاغية زمانه وإيصال الرسالة الإلهية إلى المجتمع الذي كان يحكمه الطاغية فرعون آنذاك. وهذا الموقف كان يتطلب الحذر واللين مع فرعون وأتباعه. وقتل القبطي لم يكن متناسباً مع ذلك الهدف، حيث إنّه ساقه إلى عاقبة وخيمة اضطرت موسى عليه السلام أن يبتعد عن مصدر الحدث ومحلّه، ويترك الأهل والوطن، بعد ما انتشر

---

(١) طه: ٣٩.

(٢) طه: ٤١- ٤٦.

سرّه ووقف بلاط فرعون على أن موسى عليه السلام قتل أحد أنـصار الفراعنـة، وائتمروا عليه ليقتلوه، فاضطر إلى الخروج من البلاد التي لابدّ أن تكـون منطلق رسالته وبعثته، فكان المترقّب من موسى عليه السلام على جلالة قدره أن لا يرتكب ذلك الفعل، وكان صدور مثله من موسـى عليه السلام يناسـب طلـب المغفرة، فإنّ حسنات الأبرار سـيئات المقـربين، إذ ربّ عمـل مبـاح أو مطلوب لا يُؤاخذ به الإنسان العادي، بل يُمدح عليه، ولكنـه يؤاخـذ بـه الإنسان القائد والمرسل، فكان المناسب لساحته أن لا يـصدر منـه مثـل ذلك الفعل، الذي يؤثر على مسار البعثة والرسالة.

وكان للشيطان دور في ترك ذلك الأولى، على نحو ما تقدّم في قـصة آدم عليه السلام، وبما لا يتنافي مع العصمة لا من قريب ولا من بعيد، ومن هـذا المنطلق قال موسى عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

ولأنّ ذلك الفعل لا يتناسب مع مقـام موسـى عليه السلام عـدّه ظلمـاً لنفـسه يستحق لأجله الإستغفار وطلب الستر والعفو.

الآية الخامسة: قضاء داود في نعاج الأخوين المتخاصمين

قال تعالى في قصة داود عليه السلام وقضائه في النعاج: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[1].

(١) ص: ٢٤٩- ٢٥٠.

وملخّص القصّة: إنّ داود كان جالساً في محرابه، إذ دخل عليه أخوان، يملك أحدهما تسعاً وتسعين نعجة، ويملك الآخر نعجة واحدة، وطلب الأول من أخيه أن يعطيه النعجة التي تحت يده، مدّعياً كونه محقّاً فيما يقترحه على أخيه، وأخوه أنكر عليه ذلك واشتكى عليه عند داود عليه السلام.

واستدل المخطئة باستغفار داود عليه السلام وإنابته إلى الله تعالى وغفران الله تعالى له على صدور الذنب وهو ما ينافي العصمة المطلقة للأنبياء.

الجواب:

سواء كان المتخاصمان من الملائكة أم من البشر، وسواء كانت الواقعة لأجل الاختبار والتنبيه أم لا، فإن الآية واضحة في أن داود عليه السلام لم يحكم حكماً باتاً ولا قضاءً جازماً في القضية التي طرحت عليه، ولكن لأجل انكشاف الواقع له ومعرفته من القرائن والملابسات المحيطة بالقضية، قال على نحو الإنشاء غير النهائي: ﴿**لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ**﴾، ثم بيّن واقعاً اجتماعياً صحيحاً، يبتلي به الناس كثيراً، وهو أن ﴿**كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ وهذا مما لا ريب فيه.

وكان مجال الاعتراض بالنسبة إلى الطرف الآخر- وهو صاحب التسعة والتسعين نعجة- مفتوحاً.

ولكن كان الأليق بمقام داود عليه السلام عند الله تعالى أن لا يتعرّض لما قاله

ولا يعجل في ذلك الحكم غير البات، إلاّ بعد الاستماع من الطرفين والحكم بينهما على طبق ذلك، كما كان يفعل ذلك رسول الله ﷺ، حيث كان يحكم ويقضي بين الأطراف المتنازعة بعد أن يسمع دعوى وشكوى كل واحد منهم[(١)].

فما فعله داود عليه السلام كان من ترك الأولى، وقد تقدّم عدم منافاة ذلك لمبدأ العصمة المطلقة.

المبحث الثاني: عصمة نبينا الأكرم وبعض متشابهات القرآن

حاول بعض المنكرين للعصمة المطلقة لنبينا الأكرم ﷺ بالخصوص التمسك ببعض الآيات الكريمة، والتي أساؤوا فهم بعضها وتشبثوا بمتشابه بعضها الآخر، وفيما يلي نشير إلى أهم تلك الآيات التي ذكروها:

الآية الأولى: ليغفر لك من ذنبك

قال تعالى لنبيه الأكرم ﷺ: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾[(٢)].

استدل منكر العصمة بهذه الآية المباركة على صدور الذنب من النبي الأكرم ﷺ المنافي لعصمته المطلقة.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح: ج٤ ص٣٢٠، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، دار الفكر- بيروت.

(٢) الفتح: ١- ٢.

الجواب:

أولاً: التنافي مع محكم الآيات وصريح الروايات

سبق وأن ذكرنا أن المحكم من الآيات وصريح الروايات وأقوال أعلام الطائفة السنية دالّة ومثبتة لعصمة نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله منذ الولادة من المعصية والخطأ والسهو والنسيان، بل ومن ترك الأولى أيضاً، فلا معنى لوجود الذنب الاصطلاحي المنافي للعصمة، لا ما تقدم منه ولا ما تأخر، فلا بد أن يكون المراد من الذنب معنى آخر- كما سيتضح- لا يتنافى مع العصمة المطلقة التي أثبتناها سابقاً.

ثانياً: دلالة الآية على العصمة المطلقة

إن هذه الآية المباركة بذاتها دالّة على العصمة المطلقة، وذلك لعدم إمكان حمل الذنب على الذنب الفعلي، لأن الآية فرضت غفران ما يأتي من الذنب أيضاً وهو بعدُ لم يقع، ولا يمكن أن يقع؛ لإجماع المسلمين بكل طوائفهم على عصمة الأنبياء من الذنوب بعد النبوة، صغائرها وكبائرها، فلا ذنب في ساحة الأنبياء- وخصوصاً خاتمهم- بعد النبوة على أقل تقدير.

قال القرطبي في تفسيره:

«وقال جمهور الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلّها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً، من غير التزام قرينة،

فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم»[(١)].

من ذلك يتضح أن غفران الذنب الوارد في الآية المباركة بمعنى دفع الذنب عن الذات النبوية المقدّسة لا رفعه، فكما أن الله تعالى يدفع بلطفه عن نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله كل دنس ورجس بالعصمة والاصطفاء بعد النبوة كذلك قبلها، فالآية المباركة تخبر عن أن الله تعالى عصم نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله عمّا تقدم من الذنب وما تأخر، أي: قبل النبوة وبعدها، وذلك بقرينة غفران الذنب بعد النبوة، حيث أن الآيات والروايات صريحة والأمة مجمعة على عدم جواز الذنب على الأنبياء بعد النبوة، فلا معنى لغفران الذنب بعد النبوة إلا دفعه بمقتضى الاصطفاء الإلهي، وهو المعنى المراد من العصمة، وبقرينة المقابلة ووحدة السياق يفهم أن ذلك هو المراد أيضاً مما تقدم من الذنب، أما التعبير بالغفران، فهو بمعنى الستر، وقد ستر الله تعالى على نبيه الأكرم ما له من خصائص ذاته المخلوقة من الضعف والفقر والحاجة إليه تعالى، فأفاض عليه من رحمته وعظيم جوده ولطفه العصمة والاصطفاء بما لا يتنافى مع الاختيار، كما تقدم.

قال القرطبي في تفسير معنى الآية[(٢)]:

«معناه المعونة على الطاعات والعصمة والحفظ عن المخالفات،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج١ ص٣٤٩، ط٤- دار الكتاب العربي - بيروت.

(٢) ملاحظة: لم نجد هذه العبارة في تفسير القرطبي، وإنما وجدناها في الديباج للسيوطي عن القرطبي، ولعله نقلها عن كتب القرطبي الأخرى.

بحيث لا تقع الذنوب منه أصلاً، فعبّر عن هذه المعنى بالمغفرة له؛ لأن المغفرة هي الستر، وقد ستر بالطاعات عن المعاصي، بحيث لا يقع منه أولاً، وأن حاله حال المغفور له من حيث أن لا ذنب له»[١].

ثالثاً: الغفران التقديري للذنوب

وهو ما نص عليه جملة من أعلام السنة، وهو أن غفران الذنب الوارد في الآية المباركة ليس غفران الذنب الفعلي، وإنما هو غفران الذنب التقديري، بمعنى أن الله تعالى يخبر بغفران الذنب وعدم المؤاخذة عليه لو قدّر له أن يقع من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، سواء ما تقدم من ذلك أو ما تأخر، فالنبي صلى الله عليه وآله وإن لم يقع منه ذنب أصلاً لا سابقاً ولا لاحقاً لعصمته عن الذنوب منذ الولادة، كما سبق، إلا أنه صلى الله عليه وآله بحسب الفرض والتقدير لو قدّر أن يقع منه الذنب فهو مغفور له؛ وذلك جزاءً للجهود العظيمة التي بذلها والعناء الجسيم الذي تحمّله والفتوحات الإلهية الواسعة التي جرت على يديه المباركتين، كما هو الحال عندما عرضت عليه صلى الله عليه وآله الدنيا بكنوزها فرفضها وطلّقها، وإن لم يكن قبولها مؤثراً على مقامه الشامخ عند الله تعالى.

قال ابن حجر في معرض بيانه لمعنى الآية المباركة:

«بمعنى أن الله أخبر أنه لا يؤاخذه بذنب لو وقع منه - ثم قال:- وهذا

(١) نقلاً عن الديباج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، السيوطي: ج٣ ص٢٠٧.

من النفائس التي فتح الله بها في فتح الباري»(١)

رابعاً: ترك الأولى على المباني السنّية

وهو ما ذكره بعض أعلام السنة أيضاً، وحاصله: أن الذنب المذكور في الآية المباركة ليس هو الذنب الاصطلاحي المنافي لمبدأ العصمة والاصطفاء، وإنما هو بمعنى ترك الانشغال بالناس وترك الأولى والأفضل(٢)، وذلك بسبب انشغال النبي صلى الله عليه وآله بالخلق ومعاشرة الأمة وقيادة الدولة الإسلامية والقضاء بين الناس والتعامل مع الأعداء وفتح العلاقات على الدول المجاورة، كل ذلك يحلّ محل العبادة الشخصية للنبي صلى الله عليه وآله تجاه ربّه، والتوجّه إلى الله تعالى بذاته المقدسة والمباركة لنيل المقامات الأكثر رفعة وسمواً، فيلتجئ النبي صلى الله عليه وآله حينئذٍ إلى الله تعالى بالاستغفار عن تلك الحالات.

قال السيوطي:

«الاستغفار منه صلى الله عليه وآله مع أنه قد غفر له ما تقدم وما تأخر ليس لمغفرة الذنوب، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والتسليمات معصومون من الكبيرة والصغيرة على الأصح، ولكن لا يخفى أنه لابدّ للنبي من معاشرة الأمة لتبليغ الأحكام وفيصلة خصوماتهم وتعليم آدابهم، ففي هذه الحالات لابدّ له من مناسبة بينه وبين الخلق، وهذا الاشتغال بالخلق يصرفه عن

---

(١) ابن حجر، فتح الباري: ج١١ ص٤٣٥، دار المعرفة - بيروت.

(٢) هذا على مباني الطائفة السنية، وأما على المباني الشيعية فهو مرفوض أيضاً، ولا يصح نسبته إلى النبي صلى الله عليه وآله لإطلاق عصمته من جميع الجهات كما تقدم.

المشاهدة التامة في الجملة؛ لأنه نقص له، بل هو غاية مقاصده، ولكن يحصل به الفتور في الحالة السابقة، فيلتجئ إلى الله تعالى بالاستغفار لطلب الحالة السابقة، وهو المعبّر عنه بالغين في قوله صلى الله عليه وآله: وإنه ليغان على قلبي وإني لا ستغفر الله في اليوم مائة مرة، كما في رواية مسلم؛ ولهذا لما تمّ دينه وفتح الفتوح حتى مكة - شرفها الله تعالى- أمر أن يتوجّه إلى الحق بالكلية؛ لأنه رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فاشتغل صلى الله عليه وآله بعد فتح مكة بالتوبة والاستغفار لتحصيل حالة المشاهدة الكاملة»[١].

وقال العيني في عمدة القاري:

«فإن قلت: النبي معصوم عن الكبائر والصغائر، فما ذنبه الذي غفر له؟

قلت: المراد منه ترك الأولى والأفضل بالعدول إلى الفاضل، وترك الأفضل كأنه ذنب لجلالة قدر الأنبياء عليهم السلام»[٢].

وقال في موضع آخر تأييداً للجواب الثالث الذي سبق ذكره:

«دلّ قوله: (وما تأخر) على انتفاء الذنب، لأن ما لم يقع إلى الآن لا يسمى ذنباً في الخارج، وأراد الله تعالى تأمينه بذلك لشدّة خوفه، حيث قال النبي صلى الله عليه وآله: **إني لأعلمكم وأشدّكم له خشية**، فأراد لو وقع منك ذنب لكان مغفوراً، ولا يلزم من فرض ذلك وقوعه، والله تعالى أعلم»[٣].

---

(١) السيوطي، شرح سنن ابن ماجة: ص٢٧٠، قديمي كتب خانة - كراتشي.
(٢) بدر الدين العيني، عمدة القاري: ج١ ص٢٧٠، ط١- باب إحياء التراث العربي - بيروت.
(٣) بدر الدين العيني، عمدة القاري: ج٧ ص٢٦٩، ط١- باب إحياء التراث العربي - بيروت.

وقال النسفي في تفسيره للآية:

«إن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر»[(١)].

وقال صاحب صفوة التفاسير في المقام:

«أي: ليغفر لك ربك يا محمد صلى الله عليه وآله جميع ما فرط منك من ترك الأولى، قال أبو السعود: وتسميته ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل»[(٢)].

وقال المراغي:

«أي: ليغفر لك ربك جميع ما فرط منك من الهفوات مما يصح أن يسمى ذنباً بالنظر إلى مقامك الشريف، وإن كان لا يسمّى ذنباً بالنظر إلى سواك، ومن ثم قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين»[(٣)].

خامساً: ذنوب النبي صلى الله عليه وآله عند قريش

لعل المراد من الذنب المنسوب إلى النبي الأكرم هو ما كانت تدعيه قريش من الاتهامات والافتراءات التي كانت تنسبها إليه صلى الله عليه وآله وأنه أفسد دين الآباء وهوّد فتيان قريش بتغيير القبلة إلى بيت المقدس وإحداث التفرقة في صفوفهم والفتك بصناديدهم وسبّ آلهتهم وتسفيه طريقتهم، فهذه الأمور كانت تراها قريش ذنوباً عظيمة، فاتهموه بالسحر والكذب

(١) النسفي، تفسير النسفي: ج٤ ص١٤٨.

(٢) الصابوني، صفوة التفاسير: ج٣ ص١٨٧، ط١- دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) المراغي، تفسير المراغي: ج٩ ص٢٠٦، ط١ - دار الكتب العلمية- بيروت.

والكهانة، ولم يكن لينزّه ساحة النبي الأكرم في نظر قومه ويوقفهم على خطئهم إلا ما تجلّى من عواطف النبي الأكرمﷺ ونواياه الصالحة التي أبداها يوم الفتح المبين، عند صلح الحديبية الذي سبق الفتح القريب، وهو فتح مكة المكرمة، فتغيّر ما في خزانة أذهانهم وتجلّت صورة النبيﷺ بصورة إنسان مصلح يحب قومه ويطلب صلاحهم، وليس شعاره ومبدؤه الحرب والدمار، فقضت سيرتهﷺ المباركة على ما في مخيّلة قريش من الذنوب التي ينسبونها إليه قبل صلح الحديبية وكذا ما بعده، عندما تلاحقت الفتوحات وانتشرت سماحة الإسلام ومبادئه السامية.

والحاصل: إن المراد من الذنب في الآية ما كانت تتوهمه قريش من الذنوب المفتعلة في حق النبيﷺ تجاهها.

الآية الثانية: الإثخان في الأرض

قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَالله يُرِيدُ الآخِرَةَ وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[1].

تمسك من أنكر العصمة المطلقة بهذه الآية المباركة، بناءً على ما توهمه من دلالة الآية على أن النبي الأكرمﷺ أخطأ وترك الأصلح، عندما أقدم على أسر العدو من المشركين، مع أنه ما كان لنبي أن يُقدم على ذلك الفعل إلا إذا كان مثخناً في الأرض ومثبّتاً لدعائم دعوته

(١) الأنفال: ٦٧.

وشريعته بين الناس من خلال كثرة القتل والحروب، وهذا ما لم يحصل في وقعة بدر؛ إذ لم يكن الإسلام قد رُدع أعداؤه، ولم تثبّت أركانه بين الناس.

الجواب:

أولاً: العتاب على ترك الأولى في النظرة السنية

إن غاية ما تثبته الآية- على فرض أن العتاب كان متوجهاً إلى النبي الأكرم- هو ترك الأولى، وكون الاستيلاء على الأسرى قبل الإثخان في الأرض لا يتناسب مع مقام النبوة، وهذا وإن كنا نرفضه وننزّه ساحة نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله عنه، إلا أنه مع ذلك لا يتنافى مع مبدأ العصمة المطلقة، كما تقدم تفصيل ذلك في الآيات السابقة.

قال الفخر الرازي في ردّه على من استدل بهذه الآية على نفي العصمة:

«كما يأتي العتاب على ترك الواجب فقد يأتي على ترك الأولى، والأولى في ذلك الوقت الإثخان وترك الفداء [أي أخذ الفدية من الأسرى] قطعاً للأطماع وحسماً للنزاع»[1].

ثانياً: العتاب على التوجّه إلى الغنائم قبل اندحار العدو

إنّ ظاهر الآية المباركة هو العتاب على أخذ الأسرى لا أخذ الفدية

---

(١) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص١٠٥.

منهم، حيث جاء التعبير فيها بـ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ ولا توجد أي دلالة في الآية على أخذ الفدية، وبقرينة ضمير الجمع في قوله: (تريدون) يظهر من الآية المباركة تنبيه المسلمين على نقطة مهمة في الحرب، وهي أن عليهم أن لا يفكروا ولا ينشغلوا بأخذ الأسرى قبل اندحار العدو بالكامل، حيث كان بعض المقاتلين من المسلمين يسعون للحصول على أكبر عدد ممكن من الأسرى، لكي يأخذ منهم مبلغاً أوفر من المال بإزاء الإفراج عنهم، وهذا ما يشغل المسلمين عن القتال ويفسح المجال أمام العدو لجمع قواه ومعاودة القتال، كما وقع ذلك في غزوة أحد، ومن هنا ألقت الآية باللوم على اللذين خالفوا الأمر قائلة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ بمعنى أن الاهتمام بالجانب المادي والغفلة عن الهدف النهائي وهو الانتصار على العدو من المخاطر السيئة، التي لابد أن يتنزه عنها المسلمون.

قال القاضي عياض:

«وأما قوله في أسارى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى...﴾ فليس فيه إلزام ذنب للنبي صلى الله عليه وآله، بل فيه بيان ما خص به وفضّل من بين سائر الأنبياء، فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك؛ كما قال صلى الله عليه وآله: «**أحلّت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي**».

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قيل: المعنيّ بالخطاب لمن أراد ذلك منهم، وتجرّد غرضه لعرض الدنيا وحده، والاستكثار منها؛ وليس المراد بهذا النبي صلى الله عليه وآله، ولا علية أصحابه، بل قد روي عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر، واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال»[(١)].

وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط في تفسيره للآية المباركة:

«وهو هنا على حذف مضاف، أي: ما كان لأصحاب نبي، أو لأتباع نبي، فحذف اختصاراً، ولذلك جاء الجمع في قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ ولم يجئ التركيب: تريد أو يريد عرض الدنيا، لأنه صلى الله عليه وآله لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قط، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، وقد طول المفسرون في قصة هؤلاء الأسارى وذلك مذكور في السير، وحذفناه نحن؛ لأن في بعضه ما لا يناسب ذكره بالنسبة إلى مناصب الرسل»[(٢)].

وأما الروايات الموضوعة في شأن نزول الآية المباركة، التي تنزه ساحة بعض الصحابة وتصوّب قوله وتخطّئ قول النبي صلى الله عليه وآله وتتهمه باستحقاق العقاب والبلاء[(٣)]، فنحن لسنا ملزمين بها، بل نقطع بكذبها ودسّها من قبل الأقلام الحكومية المأجورة.

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٦٤- ١٦٥، دار الأرقم - بيروت.

(٢) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط: ج٤ ص٥١٤، ط١- دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٣ ص١٣٨٣، كتاب الجهاد ب - ص٥٨ ح١٧٦٣، ط١- دار الفكر - بيروت.

الآية الثالثة: عفا الله عنك

قال تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[1]، لقد استدل من أنكر عصمة الأنبياء المطلقة بهذه الآية المباركة، زعماً منه أنها دالة على معاتبة الله تعالى لنبينا الأكرم صلى الله عليه وآله على خطأ صدر منه، وهو إذنه للمنافقين عندما استأذنوه بالبقاء في المدينة وعدم الخروج للحرب.

الجواب:

يقع الجواب أولاً في دلالة قوله تعالى ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ﴾، وثانياً في قوله تعالى ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

أولاً: قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ﴾.

إن هذا التعبير وإن كان إخباراً إلا أنه يراد منه الإنشاء وطلب العفو، كما في قول القائل: «أيدك الله» أو «غفر الله لك» أو «أصلحك الله» أو «رحمك الله»، والمقصود من ذلك التعظيم والملاطفة في المخاطبة مع الكريم من الناس، كما يخاطب الشخص كريماً أو عظيماً قائلاً: عفا الله عنك ما صنعت في أمري؟ أو رضي الله عنك ما جوابك عن سؤالي؟ أو أصلحك الله ما رأيك في مسألة كذا؟، وهذا مستعمل كثيراً في كلام العرب، وقرينته تقديم طلب العفو على الاستفهام.

وقد نص على هذا المعنى جملة من علماء ومفسري الطائفة السنية:

---

(١) التوبة: ٤٣.

قال الفخر الرازي:

«لا نسلم أن قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ﴾ يوجب الذنب، ولم لا يجوز أن يقال: أن ذلك يدل على مبالغة الله في تعظيمه وتوقيره، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في أمري؟ ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي؟ وعافاك الله ما عرفت حقي؟ فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم»[(١)].

وقال أيضاً في كتابه (عصمة الأنبياء):

«إنما المراد التلطف في المخاطبة، كما يقال: أنت رحمك الله وغفر لك، وإن لم يكن هناك ذنب البتة»[(٢)].

وقال القرطبي في تفسيره:

«قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ قيل: هو افتتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك ورحمك! كان كذا وكذا، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله: «عفا الله عنك»؛ حكاه مكّي والمهدويّ والنحاس»[(٣)].

ونص على ذلك أيضاً الشوكاني في فتح القدير بما يقرب من عبارات القرطبي[(٤)].

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير ج١٦: ص٧٦، دار الفكر - بيروت.

(٢) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص١٠٦.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج٨ ص١٤٠، ط٤ - دار الكتاب العربي - بيروت.

(٤) الشوكاني، فتح القدير: ص٧٠٦، ط١ - دار ابن حزم - بيروت.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

«قال ابن الأنباري: لم يخاطب بهذا لجرم أجرمه، لكن الله وقّره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ﴾ كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريماً عليه: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك هلا زرتني»[1].

وقد ذكر المعنى ذاته بعض أعلام السنة أيضاً عند تعرضهم لفضائل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

قال القاضي عياض:

«وليس (عفا) هنا بمعنى غفر؛ بل كما قال النبي صلى الله عليه وآله: (عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق) ولم تجب عليهم قط؛ أي لم يلزمكم ذلك.

ونحوه للقشيري؛ قال: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب؛ قال: ومعنى عفا الله عنك، أي لم يلزمك ذنباً.

قال الداودي: روي أنها تكرمة.

وقال مكي: هو استفتاح كلام؛ مثل أصلحك الله وأعزّك.

وحكى السمرقندي: أن معناه عافاك الله»[2].

وقال القسطلاني في المواهب اللدنية:

«فاعلم أنا لا نسلم أن قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ﴾ يوجب ذنباً، ولم لا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير: ص٥٨٦، ط١ - دار ابن حزم - بيروت.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٦٤، دار الأرقم - بيروت.

يقال: إن ذلك يدل على مبالغة الله تعالى في توقيره وتعظيمه، كما يقول الرجل لغيرة إذا كان عظيماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في أمري؟ ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي؟ وعافاك الله ألا عرفت حقي؟ فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا زيادة التعظيم والتبجيل، وليس (عفا) هنا بمعنى غفر، بل كما قال (صلى الله عليه وسلم): (**عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق**) ولم تجب عليهم قط، أي لم يلزمكم ذلك».

ثم ذكر كلام القشيري المتقدم ذكره عن القاضي عياض(١).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿**لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾.

ويمكن الإجابة عن توهم منافاة ظاهر هذا المقطع من الآية لمبدأ العصمة المطلقة بإجابات متعددة، نشير إلى إجابتين منها:

الإجابة الأولى: توجّه الإنكار في الآية إلى المنافقين

إنّ العتاب في هذا المقطع من الآية المباركة ليس متوجهاً إلى ذات النبي الأكرم، كي يكون مثبتاً للخطأ المنافي لإطلاق العصمة، وإنما العتاب والتقريع والاستفهام الإنكاري والاستنكاري متوجّه في حقيقته وواقعه إلى المنافقين الذين ركنوا إلى الخنوع والتخاذل في بيوتهم، وذلك على سبيل القول المعروف:«إياك أعني واسمعي يا جارة»، فالآية تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: يا رسول الله إن المنافقين الكاذبين لا يستحقون منك أن تتعامل معهم بخلقك الإسلامي العظيم، بأن تختار لهم

---

(١) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية بشرح الزرقاني: ج٩ ص٤١- ٤٢، ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت.

البقاء وتأذن لهم فيما يوجب سترهم وستر كذبهم على الآخرين، ولو شئت لم تأذن لهم- وهم بذلك أحق- حتى يتبين الذين صدقوا ويتميزوا عن المنافقين الكاذبين، لأنهم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به، وإلقاء الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله بجعله المخاطب بالعتاب مباشرة فيه نوع من العناية في الكلام، ليتبين به ظهور أمرهم ووضوح كذبهم، فهم مفتضحون على كل حال وأولوية عدم الإذن لهم تعني أن عدم الإذن أنسب وأليق بهم لظهور فضيحتهم وأنهم أحق بذلك؛ لما هم به من سوء السريرة وفساد النية، وليس معناه أن ذلك كان أولى وأحرى في حدّ ذاته ولا هو أقرب أو أمس بمصلحة الدين والدنيا، حتى يقال إن النبي صلى الله عليه وآله قد ترك الأولى في إذنه لهم.

وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ المراد منه أن تبيّن الصادقين وتميّزهم عن الكاذبين إنما يحصل للمؤمنين من أمة النبي صلى الله عليه وآله، وإلا فإن النبي صلى الله عليه وآله كان عالماً بحالهم ويعرفهم في لحن القول، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾(١)، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله يتوسّم منهم النفاق والخلاف ويعلم بما في نفوسهم، وكيف يخفى عليه صلى الله عليه وآله قول أحدهم ﴿ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي﴾(٢) أو قول بعضهم الآخر للنبي صلى الله عليه وآله ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾(٣) ويلمزه في الصدقات.

والدليل على ما ذكرناه قوله تعالى في الآيات اللاحقة: ﴿لَوْ أَرَادُواْ

---

(١) محمد: ٣٠.

(٢) التوبة: ٤٩.

(٣) التوبة: ٦١.

الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾(١)، فقد كان تخلفهم ونفاقهم ظاهراً لائحاً من عدم إعدادهم العدّة، يتوسّمه في وجوههم كل ذي لب، ولا يخفى مثل ذلك على النبي صلى الله عليه وآله، وقد نبّأه الله تعالى بأخبارهم قبل نزول هذه السورة كراراً، فكيف يكون العتاب متوجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله في الإذن وعدم استعلام حالهم حتى يتبين له نفاقهم ويميز المنافقين عن المؤمنين؟!

ثم إن الآيات تنصّ على أن الأصلح كان في الإذن لهم بالتخلف، ليصان الجمع من الخبال وفساد الرأي وتفرق الكلمة، وأن المتعين أن يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم، خصوصاً ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب السماعون لهم، المطاوعون لقولهم، ولو لم يؤذن لهم وأظهروا الخلاف لكانت الفتنة أشد وتفرق الكلمة أوضح، ومن ذلك يتضح أن المراد بالعتاب هو ما ذكرناه.

وقد أشار إلى هذا المعنى بعض أعلام السنة:

قال الزركشي في علوم القرآن:

«و﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ تغليظ على المنافقين، وهو في الحقيقة عتاب راجع إليهم، وإن كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وآله... وبهذا يزول الإشكال المشهور في أنه كيف يصح خطابه صلى الله عليه وآله مع ثبوت عصمته عن ذلك كله، ويجاب أيضاً

---

(١) التوبة: ٤٦- ٤٧.

بأن ذلك على سبيل الفرض، والمحال يصح فرضه لغرض»[1].

وفي الشفا للقاضي عياض قال:

«قال نفطويه: ذهب ناس إلى أن النبي صلى الله عليه وآله معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك، بل كان مخيراً، فلما أذن لهم أعلمه الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن»[2].

وقال القاضي عياض أيضاً:

«وأما قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ﴾ فأمر لم يقدّم للنبي صلى الله عليه وآله فيه من الله تعالى نهي فيعدّ معصية، ولا عدّه الله تعالى عليه معصية، بل لم يعدّه أهل العلم معاتبة، وغلّطوا من ذهب إلى ذلك»[3].

وقال الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنّية:

«أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ولو أُمروا بخلاف القعود لنفاقهم، وهم يدّعون بالاستئذان أنه لو لم يأذن لتخلفوا، فإذا ظهر كذبهم وانكشف مغطّاهم لزم شق العصا وما يترتب عليه، فكان ما فعله أولى وأصوب، وأعلمه أنه لا حرج ولا وزر ولا إثم عليه في الإذن لهم بقوله ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ﴾ حيث لم يلزمك أن لا تأذن حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، أي: لو صبرت لتبين لك أمرهم، فهو إشارة إلى كمال الرفق به صلى الله عليه وآله، وأنه لم يقع منه تقصير يقتضي العتاب ولا خطأ في اجتهاد، ولا

---

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ج٢ ص٢٤٣، دار المعرفة - بيروت.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج١ ص٣٤، دار الأرقم - بيروت.

(٣) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج١ ص٣٤، دار الأرقم - بيروت.

ارتكاب خلاف الأولى- إلى أن قال:- أي: قد بلغت في الامتثال والاحتمال الغاية، وزدت ما أُجحف بك في محبة الله وطاعته، والرفق بالبر والفاجر، وأين هذا من التخطئة؟»[١].

الإجابة الثانية: ترك الأولى عند بعض أعلام السنة

وهو ما أجاب به الكثير من أعلام السنة، حيث ذكروا أن العتاب في قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إنما هو على ترك الأولى[٢]، وأنه كان الأولى من النبي ﷺ أن لا يأذن لهم؛ ليتضح كذب المنافقين. وقلنا سابقاً أن ترك الأولى لا يتنافى مع العصمة الاصطلاحية المطلقة؛ وذلك لوجود الفرق الكبير بين الخطأ وترك الأولى، لأن الخطأ يتنافى مع العصمة الاصطلاحية؛ لكون معناه الانحراف عن إصابة الواقع والزيغ عن جادة الاستقامة وإن كان خطئاً، وقد تقدم إبطال هذا المعنى ومنافاته للعصمة المطلقة للأنبياء، وأما ترك الأولى فهو لا يعني الخروج عن واقع الصراط المستقيم، بل الأولى وغير الأولى كلاهما إصابة للواقع الصحيح والحق، والاختلاف في تناسب الأولى مع مقام النبي التارك له وعدم تناسب غير الأولى مع مقامه، فيستحق النبي ﷺ عليه العتاب وإن لم يكن خطئاً وزيغاً بحسب موازين العصمة المصطلحة.

---

(١) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية بشرح الزرقاني: ج٩ ٤٣- ٤٤، ط١ - دار الكتب العلمية.

(٢) تقدم أننا ننكر أن يصدر من النبي الأكرم ﷺ ما فيه ترك الأولى، ولكن الجواب ينفع على مباني القوم.

قال الفخر الرازي في تفسيره:

«لا يجوز أن يقال: المراد بقوله ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الإنكار، لأنا نقول: إما أن يكون صدر عن الرسول ذنب في هذه الواقعة أو لم يصدر عنه ذنب، فإن قلنا: إنه ما صدر عنه ذنب امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إنكار عليه، وإن قلنا: إنه كان قد صدر عنه ذنب، فقوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ﴾ يدل على حصول العفو عنه، وبعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه، فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال: إن قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ يدل على كون الرسول مذنباً، وهذا جواب شاف قاطع. وعند هذا، يحمل قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ على ترك الأولى والأكمل، لا سيما وهذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا»[1].

وقال أبو السعود في تفسيره:

«﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي: لأي سبب أذنت لهم في التخلف حين اعتلّوا بعللهم، بيان لما أشير إليه بالعفو من ترك الأولى»[2].

وقال الإيجي في المواقف بعد ذكره للآية وشبهة القائلين بمنافاتها للعصمة:

«الجواب: إنه تلطف في الخطاب، وإلا فلا عتاب بعد العفو، وقلنا ذلك بترك الأولى فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية»[3].

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير ج١٦: ص٨٦، دار الفكر - بيروت.

(٢) أبو السعود، تفسير أبي السعود: ج٤ ص٦٨، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) عضد الدين الإيجي، المواقف: ج٣ ص٤٢٣، ط١، دار الجيل - بيروت.

وقال الجرجاني في شرحه للمواقف:

«الجواب: إنه تلطف في الخطاب على طريقة قولك: أرأيت رحمك الله وغفر لك، ولا يمكن إجراؤه على ظاهره، الذي هو أنه تعالى عفا عنه ثم عاتبه؛ إذ هو باطل قطعاً، وإليه أشار بقوله (وإلا فلا عتاب بعد العفو) وعلى هذا فلا دلالة للعفو على الذنب. وإن سلّم أن هناك عتاباً قلنا ذلك العتاب إنما كان بترك الأولى فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية من تدبير الحروب»[1].

الآية الرابعة: عبس وتولّى

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَن جَاءهُ الْأَعْمَى ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ۝ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾[2].

تمسك المخطئة بهذه الآيات لإثبات وقوع الخطأ من نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك بإقباله على الكفار من صناديد قريش وأغنيائهم وإعراضه عن ابن أم مكتوم الأعمى، الذي جاء يسترشد النبي صلى الله عليه وآله ويستهديه في قراءة القرآن وتعلّمه، فعاتبه الله تعالى على خطئه وأنه لا يتناسب مع خلقه العظيم.

---

(١) القاضي الجرجاني، شرح المواقف: ص٢٧٨، ط١ - مطبعة السعادة - مصر.

(٢) عبس: ١- ٩.

الجواب:

يمكن أن يجاب عن هذه الشبهة بأجوبة متعددة:

الجواب الأول: المخاطب شخص ثالث حاضر في المجلس

لم يكن المخاطب في الآيتين الأوليين المباركتين هو نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، لكي يلزم القول بجواز تخطئة الأنبياء عليهم السلام، وإنما المخاطب شخص ثالث كان حاضراً في المجلس، وهو الذي كان سبباً لنزول الآيات الأولى من السورة المباركة، وهذا هو الموقف الرسمي لأهل البيت عليهم السلام من الآيات المذكورة وسبب نزولها، ولأجل أن يتضح ظهور الآيات الكريمة فيما ذكرناه، لابد من الالتفات إلى الشواهد التالية:

الشاهد الأول: التحول في التعبير القرآني من ضمير الغائب والانتقال إلى ضمير المخاطب، حيث قال تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَن جَاءهُ الْأَعْمَى ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**﴾[1]، ولو كان المخاطب في الآيات كلها هو النبي صلى الله عليه وآله لكان حق التعبير هكذا: عبست وتوليت أن جاءك الأعمى وما يدريك لعله يزكى، مع أن التعبير جاء مختلفاً، مما يكشف عن غاية خاصة وحكمة إلهية في ذلك، وليست الغاية إلا تنزيه النبي صلى الله عليه وآله عمّا حدث من التصرفات المسيئة، مع ترك التصريح بالشخصية الثالثة، كما هو ديدن القرآن الكريم وطريقته في التعريض، ولكي يبقى الخطاب عامّاً ومربّياً لأجيال الأمة الإسلامية على مرّ العصور.

---

(١) عبس: ١- ٣.

وقد أشار إلى هذا المعنى الزركشي في البرهان، حيث قال:

«قيل: إنه أمية ابن خلف، وهو الذي تولى دون النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه ألا ترى أنه لم يقل: عبست!»[١].

وقال القاضي عياض:

«وقيل أراد بـ (عبس) و(تولى) الكافر الذي كان مع النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه، قاله أبو تمّام»[٢].

الشاهد الثاني: إن الآيتين الأوليتين لا شك في عدم ظهور دلالتهما على أن المراد هو النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه، وهي على أقل تقدير خبر محض لم يصرح فيها بالمخبر عنه، وحينئذٍ لكي نعيّن ونستكشف شخص المخبر عنه نقف أمام محتملات كثيرة بعدد الذين كانوا حاضرين في المجلس، ويكون إرادة النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه بشخصه الكريم احتمالاً واحداً دائراً بين تلك المحتملات، إذا اتضح ذلك نقول:

بقرينة الصفات المذكورة في الآيتين لا يمكن أن يكون المعني بهما هو النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه فيتعين إرادة غيره، لأن العبوس والصدّ عن الفقراء مع الإقبال على الأغنياء ليس من صفات النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه ولا يشبه أخلاقه الكريمة وتحننه وعطفه وسماحته مع أتباعه، وقد عظم الله تعالى خلقه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِه إذ قال قبل نزول سورة عبس: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، وهذه الآية نزلت في

---

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ج٢ ص٢٤٣، دار المعرفة - بيروت.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٦٧، دار الأرقم - بيروت.

(٣) القلم: ٤.

بداية البعثة المباركة، فكيف يعقل أن يعظم الله خلقه أول بعثته بإطلاق القول في ذلك، ثم يعود ثانية فيعاتبه عتاباً شديداً على سوء بعض أعماله الخلقية ويذمه على ذلك؟!

ويشهد على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، وهذه الآية بقرينة ورودها في سياق إنذار العشيرة، تكون نازلة في أوائل الدعوة الإسلامية، وكذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢)، وقد نزلت هذه الآية في أول الدعوة العلنية للإسلام، وعليه فكيف يتصور أنه صلى الله عليه وآله خالف تلك الأوامر الإلهية بالعبوس في وجوه المؤمنين والإعراض عنهم والإقبال على المشركين، الذي يتنافى مع خفض الجناح للمؤمنين والإعراض عن المشركين، وقد أمر بهما؟!

مضافاً إلى أن الإعراض عن الفقراء وتقطيب الوجه في استقبالهم مع الإقبال على الأغنياء من المشركين قبيح لدى العقل والعقلاء، ومناف لكرائم الخلق الإنساني، ولا نحتاج إلى لزوم التجنب عنه إلى نهي قرآني، ومن كل ذلك يتبين أن احتمال توجّه الخطاب في الآيتين إلى النبي صلى الله عليه وآله مستبعد جدّاً، فلا يبقى إلا احتمال أن المقصود بالخطاب أحد الحاضرين في مجلس النبي صلى الله عليه وآله، ويضاف إلى ذلك أنه إذا دار الأمر في صدور تلك الصفات بين من هو معصوم بالعصمة المطلقة، ولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى- كما تقدم إثبات ذلك بمحكمات القرآن الكريم-

---

(١) الشعراء: ٢١٤- ٢١٥.

(٢) الحجر: ٩٤.

وبين من هو إلى تلك الصفات السيئة أقرب، كما هو حال بعض الحاضرين، فلا شك بأن الاحتمال الثاني هو الأقرب والأظهر من الاحتمال الأول.

وأما سائر الآيات الأخرى التي توجهت بالخطاب مباشرة إلى النبي الأكرمﷺ، حيث قال تعالى: ﴿**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى ۞ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى ۞ وَهُوَ يَخْشَى ۞ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى**﴾[(١)]، فقد اتضح أمرها، لأنها من قبيل: إياك أعنى واسمعي يا جارة، وذلك لتشديد التوبيخ على ذلك الشخص العابس الذي كان حاضراً في المجلس، إذ لا يخفى ما في الإعراض عنه ومخاطبته بالواسطة من مزيد تشديد وإنكار، وأنه ليس أهلاً لتوجيه الخطاب إليه بالمباشرة.

والحاصل: إن الصفات الذميمة التي سطرتها الآيات العشر الأول من سورة عبس، إنما هي من فعل شخص ثالث كان جالساً بحضرة النبيﷺ، وقد خاطبه الله تعالى بالذم والعتاب الشديد، تارة بتوجيه الخطاب إليه مباشرة عن طريق ضمير الغائب، وأخرى بتوجيه الخطاب إليه عن طريق مخاطبة النبيﷺ، لتشديد الإنكار عليه، وأنه لا يستحق أن يخاطبه الله تعالى مباشرة، وإن كان الخطاب في سياق الذم.

الشاهد الثالث: العصمة المطلقة للنبيﷺ- كما أشرنا إلى ذلك آنفاً- فبعد أن أثبتنا العصمة المطلقة لنبينا الأكرمﷺ بما في ذلك ترك الأولى،

---

(١) عبس: ٥- ١٠.

وبعد عدم ظهور الآية بدلالتها في إرادة النبي صلى الله عليه وآله بالخصوص كما هو واضح. بعد ذلك كلّه لابد من حمل الصفات السيئة التي وردت في الآيات المباركة على المحتمل الآخر، وهو شخص غير النبي صلى الله عليه وآله من المشركين أو من ضعاف النفوس من المؤمنين الحاضرين غير المعصومين.

الجواب الثاني: لا دليل على تشخيص هوية المخاطب بالنبي

إنّ الذين بنوا على أن المخاطب بالآيات المباركة هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا دليل لهم على ذاك إلا بعض ما يروى في سبب النزول، ولولا ما يروونه في هذا المجال لما أمكننا تشخيص هوية المخاطب، بل لا يعلم أنه في زمن البعثة أو قبلها، وتلك المرويات على فرض صحة سندها تكون منافية ومخالفة ومعارضة للقرآن الكريم، ففي الوقت الذي يثبت القرآن الكريم العصمة المطلقة والعامة للنبي صلى الله عليه وآله ويصفه بالخلق العظيم، تأتي بعض الروايات لتقول أن النبي صلى الله عليه وآله هو الذي عبس وتولّى عن الأعمى وأعرض عن الفقراء المسترشدين وتوجّه وتصدّى إلى الأغنياء من المشركين.

وإذا ثبت ذلك فنحن مأمورون بالإعراض عن كل رواية تنافي صريح القرآن الكريم، فلا يمكن لشخص أن يقول إنّ العابس هو النبي صلى الله عليه وآله تمسكاً بروايات آحاد مخالفة لنصوص القرآن الكريم الصريحة.

قال الفخر الرازي في هذا المجال:

«لا نسلم أن هذا الخطاب متوجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

لا يقال: إن أهل التفسير قالوا: الخطاب مع الرسول.

لأنا نقول: هذه رواية آحاد، فلا تقبل في هذه المسألة، ثم إنها معارضة بأمور:

الأول: أنه وصفه بالعبوس، وليس هذا من صفات النبي صلى الله عليه وآله في قرآن ولا خبر مع الأعداء والمعاندين، فضلاً عن المؤمنين والمسترشدين.

الثاني: وصفه بأنه تصدى للأغنياء وتلهّى عن الفقراء، وذلك غير لائق بأخلاقه.

الثالث: أنه لا يجوز أن يقال للنبي صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى﴾ فإن هذا الإغراء يترك الحرص على إيمان قومه فلا يليق بمن بعث بالدعاء والتنبيه»[1].

الجواب الثالث: استحقاق ابن أم مكتوم للتأديب في النظرة السنية

وهو ما ذكره بعض أعلام الطائفة السنية، حيث ذكروا أن ابن أم مكتوم كان مستحقاً للتأديب، لأنه كان يسمع انشغال النبي صلى الله عليه وآله بالحديث، فمقاطعته للنبي كان سوء أدب منه، وكان جائزاً للنبي صلى الله عليه وآله أن يفعل مع ابن أم مكتوم ذلك، ولكنه كان الأولى بالنبي صلى الله عليه وآله لعظيم خلقه وعلو مقامه عند الله تعالى ومنزلته عنده، أنه يترفع بعظيم خلقه عن إساءة ابن أم مكتوم له، وأن يتوجه إليه وإن كان قد أساء لجهله بمقام النبي العظيم، وأن لا يعرض ولا يصد عنه. ولكي لا يتوهم الجالسون أيضاً أن

---

(١) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص١٠٨.

النبي صلى الله عليه وآله إنما أعرض عنه لعماه وفقره وتوجه إلى غيره لأجل غناه ومنزلته الاجتماعية، فدفعاً لتوهم مثل هذه الأخلاق المشينة وترفعاً عن معاملة المسيء بالإعراض عنه أمره الله تعالى أن لا يفعل ذلك وأن المناسب لمقامه الشامخ هو الأولى من ذلك الخلق، فالعتاب على ترك الأولى من أجل الترفع بخلق النبي إلى ما هو أعظم وأعظم[(١)].

قال القاضي عياض:

«وأما قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ فليس فيه إثبات ذنب له صلى الله عليه وآله، بل إعلام الله أن ذلك المتصدي له ممن لا يتزكى، وأن الصواب والأولى كان- لو كشف لك حال الرجلين- الإقبال على الأعمى.

وما قصه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾»[(٢)].

وقال الإيجي في المواقف:

«الثامن: قوله: عبس وتولى أن جاءه الأعمى.

الجواب: إنه ترك الأولى مما يليق بخلقه العظيم»[(٣)].

وأضاف الجرجاني في شرحه للمواقف قائلاً:

«ومثله يعاتب على مثله»[(٤)].

وقال الفخر الرازي في تفسيره:

---

(١) تقدم أننا نرفض ترك الأولى في حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٦٦- ١٦٧ دار الأرقم بيروت.

(٣) الإيجي، المواقف: ج٣ ص٤٢٤، ط١- دار الجيل - بيروت.

(٤) الجرجاني، شرح المواقف: ص٢٧٩، ط١- مطبعة السعادة - مصر.

«أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي أن يتصدى للغني ويتلهى عن الفقير»[١]

وقال أيضاً:

«إنه صلى الله عليه وآله كان مأذوناً في تأديب أصحابه، لكن هاهنا لما أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وكان ذلك يوهم ترجيح الدنيا على الدين، فلهذا جاءت المعاتبة»[٢].

وقال الشوكاني في فتح القدير في معرض تفسيره للواقعة:

«وهذا الواقع من النبي صلى الله عليه وآله هو من باب ترك الأولى، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به»[٣].

وإذا فرضنا أن الآيات تشير إلى ترك الأولى وأن هداية الرجل الساعي في طريق الحق الخائف من عذاب الله أولى من التصدي لقوم يتظاهرون بالاستغناء، وأن عظم المسؤولية اقتضى أن يعاتب الله سبحانه نبيه الأكرم على ترك ما هو الأولى بحاله ومقامه، حتى يرشده إلى ما يعد من أفاضل الأخلاق ومحاسنها، وينبهه أيضاً على عظم حال المؤمن المسترشد، وأن تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه أولى من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه.

فإنه على كل حال لا يتنافى- كما تقدم- مع العصمة المطلقة والمصطلحة، التي أثبتناها للأنبياء عليهم السلام، وقلنا سابقاً أن الخطأ شيء وترك

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير ج٣١: ص٥٦، دار الفكر- بيروت.
(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير ج٣١: ص٥٦، دار الفكر- بيروت.
(٣) الشوكاني، فتح القدير: ص١٨٩٢، ط١- دار ابن حزم - بيروت.

الأولى شيء آخر، ومع ذلك أيضاً قلنا إنه ليس من ترك الأولى أصلاً.

الآية الخامسة: الخشية من الناس

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾(١).

استشهد المخطئة بهذه الآية المباركة أيضاً لإثبات صدور الخطأ من نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، وذكروا أن في الآية عتاباً من الله تعالى لنبيه على إخفاء ما أراد الله تعالى إبداءه؛ للخشية من الناس، مع أن الله تعالى أحق بالخشية منهم.

الجواب:

نجيب فيما يلي عن هذا التوهم بجوابين:

الجواب الأول: إشفاق النبي صلى الله عليه وآله بربيبه زيد

إنّ هذه الآية المباركة تتعرض لمعالجة ظاهرة اجتماعية غير مشروعة في الإسلام، كان يمارسها الناس في الجاهلية وجروا عليها بعد البعثة أيضاً، والظاهرة هي تحريم نكاح أزواج الأدعياء، والدعي هو الذي يتبناه شخص ويجتبيه ويربّيه ويضيفه إلى نفسه على سبيل التبني، وكان من

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

عادتهم أن يحرموا على أنفسهم نكاح أزواج أدعيائهم كما يحرمون نكاح أزواج أبنائهم، وكان زيد بن حارثة دعي رسول الله صلى الله عليه وآله وربيبه، وكانت زوجته زينب بنت جحش، فأوحى الله تعالى إلى نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله أن زيد بن حارثة سيأتيه طالباً طلاق زوجته، وأمره عزّ وجلّ أن يتزوجها بعد فراق زيد لها، ليكون ذلك ناسخاً لسنة الجاهلية في التحريم، فلما حضر زيد مخاصماً زوجته عازماً على طلاقها، أشفق الرسول صلى الله عليه وآله من الإمساك عن وعظه وتذكيره، لاسيما وأنه كان المتصرّف والقائم على أمره وتدبيره، خصوصاً وأن النبي صلى الله عليه وآله يعلم أن المرجفين من المنافقين سيسيئون له بالقول ويقذفونه بحبّه لزينب بنت جحش وأن التطليق كان بتدبيره، مضافاً إلى أن الناس كانت ترى أن الربيب كالابن الصلبي، فيشنعون على من ينكح زوجة الربيب بعد تطليقه لها؛ ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ ولم يكن النبي صلى الله عليه وآله مأموراً بترك إبداء الموعظة لزيد، وكذا لم يكن مأموراً بإبداء ما أخبره به الله تعالى، من أن زينب ستكون من أزواجه، ويشهد على صحة ما ذكرناه، قوله تعالى في الآية المباركة: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾، حيث دل هذا المقطع من الآية على أنَّ العلة في الأمر الإلهي بنكاح امرأة زيد بعد طلاقه لها هو نسخ سنة الجاهلية بالتحريم.

ولم تكن خشية النبي صلى الله عليه وآله خشية خوف على نفسه، وإنما كان يخاف على الدين والشريعة الخاتمة من كيد المنافقين وريبهم وطعنهم في

نبوته وقداسته وطهارته، الذي هو طعن في الرسالة الخاتمة كلها، كما ورد نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[١]، حيث إن النبي كان يخشى أن يكذبه المنافقون في ولاية علي عليه السلام مما قد يؤدي إلى الطعن في رسالة الإسلام برمتها، فطمأنه الله تعالى بعصمته من الناس وأمره بالإبلاغ، كذلك في المقام، حيث أن الله تعالى طمأن نبيه وأخبره بأن الله تعالى سيبدي ذلك الأمر لدحض سنة الجاهلية، ولا خوف على الرسالة الخاتمة من شغب المنافقين، فكان إخفاء الأمر وخشية الرسول خشية لله تعالى ولدينه، وهو يدلّ على الحرص التام من قبل النبي صلى الله عليه وآله على الدين والشريعة الإسلامية في كل حركاته وسكناته وأقواله، فسكت صلى الله عليه وآله حرصاً وخوفاً على الدين، إلى أن جاء الإخبار والإبلاغ الإلهي بإبداء الأمر.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ جملة معترضة، ذكرت لمناسبة جريان ذكر خشية الناس، والواو فيها اعتراضية وليست حالية، كي يستنتج منها عتب الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله، نظير ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[٢].

فلم يخطئ النبي صلى الله عليه وآله، بل ولم يترك الأولى، ولم تتضمن الآية أي

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) المائدة: ٤٤.

عتاب أو استنكار على فعل خالف فيه نبي الإسلام أمراً من الأوامر الإلهية، وإنما تضمنت الآية نسخاً لسنة جاهلية وإخباراً عن وقوعها مع حفظ الله تعالى وعصمته لنبيه الأكرم ودينه الخاتم من كيد المنافقين.

أقوال أعلام السنة في هذا المجال:

نشير فيما يلي إلى بعض أقوال أعلام الطائفة السنية، التي تؤيد ما ذكرناه، وتصرح بعدم منافاة الآية المباركة للعصمة المطلقة لنبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث ذكروا في الرد على الشبهة المذكورة وجوهاً جيدة غير الوجوه التي ذكرناها نستعرضها تباعاً:

١- الفخر الرازي:

قال الفخر الرازي في الرد على من تمسك بالآية:«الجواب من أربعة وجوه:

أحدها: الذي يدل عليه أنه لم يصدر من الرسول في هذه الواقعة مذمّة، ولا عاتبة الله على شيء منه، ولا ذكر أنه عصى وأخطأ، ولا ذكر استغفار النبي منه، ولا أنه اعترف على نفسه مخطئاً، وأنه لو صدر عنه زلة لوجد من ذلك كما في سائر الأنبياء عليهم السلام متى صدرت عنهم زلة أو ترك مندوب وجد منه ما ذكرناه.

وثانيها: أنه ذكر في القصة أنه ليس على النبي من حرج فيما فرض الله له، وهذا تصريح بأنه لم يصدر منه ذنب البتة.

وثالثها: أنه تعالى إنما زوجه إياها كيلا يكون على المؤمنين حرج في

أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً، ولم يقل: إني فعلت ذلك لأجل عشقك.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ ولو حصل في ذلك سوء، لكان قدحاً في الله تعالى»[(١)].

٢ – البغوي

قال البغوي في تفسيره:«وروى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان، قال: سألني علي بن الحسين، ما يقول الحسن في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾؟ قلت: يقول: لما جاء زيد إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا نبي الله إني أريد أن أطلق زينب، فأعجبه ذلك، فقال: أمسك عليك زوجتك واتق الله، فقال علي بن الحسين: ليس كذلك، كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد، وقال: إني أريد أن أطلقها، قال له: أمسك عليك زوجك فعاتبه الله، وقال: لم قلت: أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء، وهو مطابق للتلاوة، لأن الله علم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه، ولم يظهر غير تزويجها منه، فقال: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وآله محبتها أو إرادة طلاقها لكان يُظهر ذلك، لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له، وإنما أخفاه استحياء أن يقول لزيد: التي تحتك وفي

---

(١) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ١٠١.

نكاحك ستكون امرأتي، وهذا قول حسن مُرض»[١].

ولا يتنافى ما نقله البغوي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام من عتاب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله مع ما ذكرناه من نفي العتاب، لأن ما نفيناه هو العتاب الاصطلاحي، الذي يتنافى على أقل تقدير مع العصمة المطلقة الشاملة لترك الأولى، وأما ما أثبته زين العابدين عليه السلام من العتاب - مع فرض صحة الصدور- إنما هو عتاب إشفاق الحبيب على حبيبه، كما ورد نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[٢].

والمراد في المقام: أن الله تعالى يخاطب نبيه الأكرم بأننا نعلم بالظروف الحرجة التي تمرّ بها في سبيل حفظ الدين، ولكن مع ذلك افعل ما تؤمر به فإن الله تعالى حافظ لدينه، وهو ظاهره العتاب وحقيقته دعم موقف النبي صلى الله عليه وآله في قبال المنافقين.

مع أن ما نقل في التفاسير الأخرى عن الإمام زين العابدين عليه السلام ليس فيه لفظ العتاب، كما سيأتي لاحقاً.

٣ - ابن حجر

قال ابن حجر في فتح الباري:«وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدّي، فساقها سياقاً واضحاً حسناً، ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، وكان رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) أراد

---

(١) البغوي، تفسير البغوي: ص٣٥٤.
(٢) طه: ١- ٢.

أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم أنها رضيت بما صنع رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) فزوجها إياه، ثم أعلم الله عزّ وجلّ نبيه (صلّى الله عليه وسلّم) بعدُ أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه، ويقولوا تزوج امرأة ابنه وقد كان قد تبنى زيداً.

وعنده من طريق علي بن الحسين بن علي عليه السلام، قال: أعلم الله نبيه (صلّى الله عليه وسلّم) أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه، وقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال الله، قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وقد أطنب الترمذي الحكيم في تحسين هذه الرواية، وقال: إنها من جواهر العلم المكنون[1].

٤ - القاضي عياض

قال القاضي عياض:«وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن الحسين: أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيد، قال له: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه يتزوجها بما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج، وطلاق زيد لها، وروى نحوه عمرو بن فائد عن الزهري، قال:

(١) ابن حجر، فتح الباري: ج٨ ص٤٠٣، ط٢ - دار المعرفة - بيروت.

نزل جبرائيل على النبي (صلّى الله عليه وسلّم) يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش، فذلك الذي أخفى في نفسه، ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ أي: لا بد لك أن تتزوجها، ويوضح هذا أن الله لم يبد من أمره معها غير زواجه لها، فدلّ أنه الذي أخفاه (صلّى الله عليه وسلّم) مما كان أعلمه به تعالى، وقوله تعالى في القصة: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ﴾ الآية، فدل أنه لم يكن عليه حرج في الأمر، قال الطبري: ما كان الله ليؤثم نبيّه فيما أحل مثال فعله لمن قبله من الرسل»[(١)].

٥ - ابن العربي

قال القرطبي في تفسيره:«قال ابن العربي: فإن قيل: لأي معنى قال له أمسك عليك زوجك، وقد أخبر الله أنها زوجه، قلنا: أراد أن يختبر منه ما لم يعلّمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها.

فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه، وهذا تناقض؟

قلنا: بل هو الصحيح للمقاصد الصحيحة، لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلاً

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٩٤-، دار الأرقم - بيروت.

وحكماً، وهذا من نفيس العلم، فتيقنوه وتقبّلوه»[١].

٦ – الواحدي

قال الواحدي في تفسير الخشية من الله تعالى في الآية: «﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ في كل الأحوال، ليس أنه لم يخش الله في شيء من هذه القضية، ولكن ذكر الكلام هاهنا على الجملة»[٢].

٧ – ابن الجوزي:

قال ابن الجوزي في الخشية أيضاً: «قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ أي: أولى أن تخشى في كل الأحوال، وليس المراد أنه لم يخش من هذه الحال، ولكن لما كان لخشيته بالخلق نوع تعلق، قيل له الله أحق أن تخشى منهم»[٣].

ويشهد على هذا الحمل قوله تعالى في الآيات اللاحقة في أنبيائه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾[٤]، ومن وقوع هذه الآية في سياق الآية التي هي محل البحث يتبين أن خشية النبي ﷺ من الناس لم تكن خشية على نفسه، بل كانت خشية في الله، فأخفى في نفسه ما أخفاه استشعاراً منه أنه لو أظهره عابه المنافقون من الناس وطعنوا في رسالته، وهو ما يخلق أثراً سيئاً في إيمان عامة الناس، وليس

---

(١) القرطبي، تفسير القرطبي ج١٤: ص١٦٩.

(٢) الواحدي، تفسير الواحدي: ص٨٦٦.

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير: ص١١٢٧، ط١ - دار ابن حزم - بيروت.

(٤) الأحزاب: ٣٩.

هذا خوفاً مذموماً، بل هو خوف في الله، ويرجع إلى الخوف من الله تعالى في أن يكون قد قصّر في إبلاغ دينه والمحافظة عليه.

والآيات كلها جاءت في مقام النصرة والتأييد للنبي ﷺ على المنافقين في إبلاغ الدين، ولكن في صورة العتاب، نظير ما تقدم في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[١].

٨ - ابن عاشور المالكي

أما المفسر ابن عاشور المالكي فإنه بعد أن أنكر دلالة الآية على العتاب وقرر أن النبي ﷺ لم يكن مأموراً بإبلاغ ما علمه عن الله تعالى في زينب؛ لعدم الجدوى والفائدة فيه، وقرر أيضاً أن لسان العتاب في الآية إنما هو لنصرة النبي ﷺ ودحض كفر المنافقين وفتنتهم، ونقل كذلك ما روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام، بعد ذلك كلّه قال في الخشية:

«والخشية هنا كراهية ما يرجف به المنافقون، والكراهة من ضروب الخشية، إذ الخشية جنس مقول على أفراده بالتشكيك، فليس هي خشية خوف، إذ خشية النبي (صلّى الله عليه وسلّم) لم يكن يخاف أحد من ظهور تزوجه بزينب ولم تكن قد ظهرت أراجيف المنافقين بعد، ولكن النبي (صلّى الله عليه وسلّم) كان يتوسم من خبثهم وسوء طويتهم ما كان منهم في قضية الإفك، ولم تكن خشية تبلغ به مبلغ صرفه عما يرغبه، بدليل أنه لم يتردد في تزوج زينب بعد طلاق زيد، ولكنها استشعار في

---

(١) التوبة: ٤٣.

النفس وتقدير لما سيرجفه المنافقون - إلى أن قال:- وجملة ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ معترضة لمناسبة جريان ذكر خشية الناس، والواو اعتراضية وليست واو الحال، فمعنى الآية معنى قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾، وحملها على معنى الحال هو الذي حمل كثيراً من المفسرين على جعل الكلام عتاباً للنبي (صلّى الله عليه وسلّم)، و(أَحَقُّ) اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، فهو بمعنى حقيق؛ إذ ليس في الكلام السابق ما يفيد وقوع إيثار خشية الناس، والمعنى: والله حقيق أن تخشاه، وليس في هذا التركيب ما يفيد أنه قدم خشية الناس على خشية الله، لأن الله لم يكلفه شيئاً فعمل بخلافه.

وبهذا تعلم أن النبي (صلّى الله عليه وسلّم) ما فعل إلا ما يرضي الله، وقد قام بعمل الصاحب الناصح حين أمر زيد بإمساك زوجه، وانطوى على علم صالح حين خشي ما سيفترضه المنافقون من القالة إذا تزوج زينب خفية أن يكون قولهم فتنة لضعفاء الإيمان - وتابع قائلاً:- وليس في قوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ عتاب ولا لوم، ولكنه تذكير بما حصل له من توقيه قالة المنافقين، وحمله كثير من المفسرين على معنى العتاب، وليس في سياق الكلام ما يقتضيه، فأحسبهم مخطئين فيه، ولكنه تشجيع له وتحقير لأعداء الدين، وتعليم له بأن يمضي في سبيله ويتناول ما أباح الله له ولرسله من تناول ما هو مباح»[١].

---

(١) ابن عاشور المالكي، التحرير والتنوير: ج١ ص٢٣٦٠- ٢٣٦٢.

وبالمضامين المتقدمة ذاتها ما ورد في زاد المعاد لابن قيم الجوزية[١]، وتحفة الأحوذي للمباركفوري[٢]، والبداية والنهاية لابن كثير[٣] ومعاني القرآن للنحاس[٤] وغيرهم.

٩ - ابن خمير المالكي الأموي

ونختم الكلام بقول ابن خمير المالكي حيث قال: «ذكر بعض المفسرين في أشبه الأقوال أنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ تنبيه من الله تعالى لنبيه على وجه العتاب في قوله لزيد ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.

وأقول: إنه تنبيه لنبيه، ليتهيأ لفهم الخطاب، من غير عتاب وهو الأظهر والأولى»[٥].

حصيلة الأقوال:

إن الآية المباركة ليس فيها أي عتاب للنبي صلى الله عليه وآله، لكي يقال إنه يتنافى مع مبدأ العصمة المطلقة.

الجواب الثاني: ترك الأولى عند بعض أعلام الطائفة السنية

وهو ما صرح به بعض أعلام الطائفة السنية، من حمل الآية على ترك الأولى، وأن الأولى كان عدم الإخفاء وعدم الخشية، وهذا القول وإن لم

---

(١) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد: ج٤ ص٢٤٤، ط١٤- مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) المباركفوري، تحفة الأحوذي: ج٩ ص٥٠، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ج٤ ص١٤٥، مكتبة المعارف - بيروت.

(٤) النحاس، معاني القرآن: ج٥ ص٣٥١، ط١ - جامعة أم القرى - مكة المكرمة.

(٥) ابن خمير المالكي الأموي، تنزيه الأنبياء: ص٦٥، ط٢ - دار الفكر المعاصر - بيروت.

نرتضه، ولكن لو فرضناه فهو لا يتقاطع مع العصمة المطلقة.

قال ابن خمير المالكي الأموي:

«وأما تصور العتاب إن صح في قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ فقد يقع من باب ترك الأولى من المباحات كما تقدم؛ وذلك أن الله تعالى أمره بزواجها وأخبره به، حيث قال له في آخر الآية ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾»[١].

وقال الفخر الرازي في الخشية:

«أكثر ما فيه أنه أخفى ذلك اتقاءً لسوء كلام المنافقين، ولو أنه أظهره وتحمل سوء مقالتهم لكان أكثر ثواباً فيه، فيرجع حاصله إلى ترك الأولى والأفضل، فليس ذلك من الذنب في شيء»[٢].

هذا تمام الكلام في أهم الآيات التي تمسك بها من لم يؤمن بالعصمة المطلقة.

بعض النتائج المترتبة على الأجوبة المتقدمة:

وإذا اتضحت الإجابة عن تلك الآيات، يتضح الجواب أيضاً عن الآيات الأخرى التي تمسكوا بها لإلصاق الذنوب بالأنبياء وإنكار العصمة المطلقة لهم، وذلك:

١- نظير الآيات التي تأمر النبي الأكرم بالاستغفار، كقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[٣]، فهو كما تقدم، مبني على الوجوه التي ذكرناها، ككونه استغفاراً عمّا لذات النبي المخلوقة من

---

(١) ابن خمير المالكي الأموي، تنزيه الأنبياء: ص٦٥، ط٢ - دار الفكر المعاصر - بيروت.

(٢) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص١٠٣- ١٠٤.

(٣) محمد: ١٩.

الفقر والنقص والحاجة ونسبتها إلى الذات الإلهية المقدسة عن كل نقص يتصف به المخلوق، أو لكونه على سبيل المبدأ القائل: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٢- ويتضح أيضاً المراد من استغفار الأنبياء في بعض الآيات المباركة، كقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾[١]، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وأنه إما من باب ترك الأولى، أو من باب أن واجباتهم ووظائفهم الرسالية تستلزم الانشغال بالأمة عن الانقطاع إلى الله تعالى، أو من جهة ملاحظة حقارة العمل وقلّته بالنسبة إلى العظمة الإلهية، أو غيرها من الجهات التي تقدمت الإشارة إليها.

٣- ومما تقدّم أيضاً تبين الجواب عمّا ورد في قوله تعالى لنبيه الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾[٣]، إذ أن (لولا) في الآية امتناعية، تدل على امتناع الجزاء لوجود العصمة والاصطفاء والتثبيت، فالآية الكريمة هي بذاتها دالة على مبدأ العصمة، ومن نفس الباب ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ فإن هذه الآية المباركة شاهدة على العصمة من السهو والخطأ ومطلق الضلال؛ لدلالتها على العناية الإلهية الخاصة بالرسول الأكرم

---

(١) نوح: ٢٨.

(٢) إبراهيم: ٤١.

(٣) الإسراء: ٧٤.

والمراقبة الدائبة لجميع مفاصل الحياة النبوية المطهّرة.

٤- كذلك يتضح المقصود من الآيات المباركة التي خاطبت النبي صلى الله عليه وآله بلحن شديد وحادّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لأخذنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(٢). وذلك لاشتمالها على قضايا شرطية، ومعلوم أن القضية الشرطية لا تدل إلا على الملازمة بين الشرط والجزاء، وليس فيها أي دلالة على تحقق الطرفين ولا على إمكان تحققهما، وقد صدرت هذه القضايا الشرطية في الآيات المباركة لبيان مدخلية الاختيار في العصمة، وأن العصمة والاصطفاء الإلهي لا يتنافى مع الاختيار ولا يوجب سلبه أصلاً؛ لأن الاصطفاء والعصمة ناتج العلم الذي جاء إلى النبي الأكرم واختص به، ولا شك أن العلم مبدأ الإرادة والاختيار، فكيف يتنافى معهما؟!

وهذا نظير ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾(٣)، حيث سبق وأن قلنا أن الآية في الوقت الذي تثبت فيه العصمة والاجتباء والهداية الخاصة للأنبياء والذرية تؤكد أيضاً أن ذلك على سبيل الاختيار، وأن بإمكانهم أن يشركوا، وإن كان ذلك لا يقع منهم

---

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) الحاقة: ٤٤- ٤٦.

(٣) سورة الأنعام: ٨٧ - ٨٩.

خارجاً.

٥- ومن ذلك أيضاً نقف على حقيقة قوله تعالى في النبي يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، إذ أن يونس عليه السلام لما علم من قومه الامتناع عن دعوته دعا عليهم وعلم أن الله تعالى قد استجاب دعوته، فأخبرهم بذلك وخرج غاضباً على قومه، وشاهد قومه طلائع العذاب وعلائمه فبادروا إلى التوبة فنفعتهم توبتهم، وكان خروجه بظن منه أن الله تعالى لا يحاسبه على ذلك ولا يضيّق عليه لأجل ما فعل من تركه الأولى، ولكن بما أن مفارقته بحسب سياق الآيات المباركة كان بلا إذن من الله تعالى ومن قبيل ترك الأولى ابتلاه الله بالحوت فالتقمه، فندم يونس عليه السلام على عمله ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، لأن خروجه ظلم بالنسبة إليه؛ إذ كان المترقب من مقام الأنبياء الصبر والتحمل والعطف على الناس إلى أن يأتي أمر الله تعالى.

إذن بمثل ما تقدم من الإجابات الواضحة يجاب عن كل آية قد يستدل بها البعض في قبال المحكم من القرآن، الذي دلّ على العصمة المطلقة لأنبياء الله ورسله.

هذا كله بالنسبة إلى الآيات المتشابهة، التي قد يتوهم منافاتها للآيات المحكمة في العصمة المطلقة.

---

(١) الأنبياء: ٨٧ - ٨٨

المبحث الثالث: الروايات والأحاديث المنافية للعصمة

إن الروايات التي تضمنتها كتب الطائفة السنية، والتي تـزري بالأنبيـاء بصورة مسيئة وتنسب إليهم النقائص والذنوب والفاحشة وكل ما يتنافى مع العصمة القرآنية المطلقة والمحكمة. فلا شك أنها مـن الإسـرائيليات التي نسبت إلى الرسول الأكرم، كما فعل ذلك علماء بنـي إسـرائيل فـي كتبهم عندما حرفوها ونسبوا الفواحش إلى الأنبياء.

ونحن نهيب بالأخوة من أعلام الطائفة السنية أن يتصدّوا لتنقية كتبهم وتراثهم مما ورد فيها من الترهات ونسبة النواقص والعيوب إلى سـاحة الأنبياء المطهّرة، ولا نرى أنفسنا ملزمين بالتصدّي لها والإجابة عليها متناً أو سنداً، وذلك لما نراه من ضعف طرقها وعدم حجيتها بالنسبة إلينا.

وأما ما ورد من طرقنا في هذا المجال فسيأتي الحديث عنه لاحقاً في مسألة نسبة السهو أو الإسهاء إلى الساحة النبوية الخاتمة.

المبحث الرابع: شبهة الإجماع على إنكار العصمة المطلقة

يتمسك البعض لنفي العصمة المطلقة للأنبياء بـدعوى قيـام الإجمـاع بين المسلمين على خلافها.

الجواب:

والإجابة عن هذا الشبهة تقع ضمن الوجوه التالية:

الوجه الأول: إن هذا الإجماع لا شاهد عليه، بـل الـدليل علـى عدمـه،

وذلك لما تقدم من أقوال بعض أعلام السنة في العصمة المطلقة للأنبياء، كما تفدم في كلمات القسطلاني والزرقاني والقاضي عياض وجملة من المعتزلة العدلية وغيرهم.

الوجه الثاني: لو فرضنا تحقق الإجماع بين أعلام الطائفة السنية فهو لا يكون حجة ملزمة على طائفة أخرى لا إجماع بين علمائها على ذلك، بل إن إجماعهم على الخلاف وهو القول بالعصمة المطلقة للأنبياء.

الوجه الثالث: لو أغمضنا الطرف عن الجواب الأول والثاني، وفرضنا جدلاً تحصيل الإجماع بين الطوائف الإسلامية على رفض العصمة المطلقة، فهو إجماع على الضلالة بعد ما تقدم من صريح الآيات القرآنية والسنة النبوية الدالة على العصمة بتلك الدرجة والمنزلة، خصوصاً وأننا لا نؤمن بالمبدأ القائل بعصمة الأمة، كما سيأتي لاحقاً.

الوجه الرابع: ذكروا في مباحث أصول الفقه أن الإجماع إذا كان مستنداً على مدرك خاص من القرآن أو السنة النبوية أو كان محتمل المدرك والدليل فلا قيمة له، ويسمى إجماعاً مدركياً، ولابد من ملاحظة نفس المدرك والدليل الذي استند عليه الإجماع، وفي المقام لو سلمنا وقلنا بتحقق الإجماع على نفي العصمة المطلقة فإنه بلا شك مستند إلى الظهور البدوي لبعض الآيات القرآنية المتشابهة المتقدمة أو إلى بعض الإسرائيليات التي تضمنتها مجامع حديث الطائفة السنية، وقد ذكرنا أن كلا المستندين - سواء ظهور بعض متشابهات القرآن أو جملة من الإسرائيليات الموضوعة - لا قدرة لهما على الصمود أمام صريح

محكمات القرآن الكريم، الناصّة على تنزيه ساحة الأنبياء عن كل دنس ورجس وعن كل خطأ أو غفلة أو نسيان أو معصية.

ونختم هذا المبحث الرابع بما قاله الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في مقام ردّه على المرجفين في عصمة الأنبياء المطلقة تمسكاً بمتشابه بعض الآيات المتقدمة، حيث أخرج الصدوق بسنده عن القاسم بن محمد البرمكي، قال: حدثنا أبو الصلت الهروي، قال:

«لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام أهل المقالات من أهل الإسلام والديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين وسائر أهل المقالات، فلم يقم أحد إلا وقد ألزمه حجته كأنه قد ألقم حجراً، قام إليه علي بن محمد بن الجهم، فقال له: يا بن رسول الله، أتقول بعصمة الأنبياء؟ قال: بلى، قال: فما تعمل في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، وقوله في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾، وقوله عزّ وجلّ في داود: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ وقوله في نبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ ؟

فقال مولانا الرضا عليه السلام: ويحك - يا علي - اتق الله، ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش، ولا تتأول كتاب الله عزّ وجلّ برأيك، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. أما قوله عزّ وجلّ في آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فإن الله عزّ وجلّ خلق آدم حجة في أرضه وخليفة في بلاده، لم يخلقه للجنة، وكانت المعصية من آدم في

الجنة لا في الأرض لتتم مقادير أمر الله عزّ وجلّ. فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة، عصم بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ إنما ظن أن الله عزّ وجلّ لا يضيق عليه رزقه، ألا تسمع قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي ضيق عليه، ولو ظن أن الله تبارك وتعالى لا يقدر عليه لكان قد كفر. وأما قوله عزّ وجلّ في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فإنها همت بالمعصية، وهم يوسف بقتلها إن أجبرته، لعظم ما داخله، فصرف الله عنه قتلها والفاحشة، وهو قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ يعني القتل (والفحشاء) يعني الزنا. وأما داود، فما يقول من قبلكم فيه؟ فقال علي بن الجهم: يقولون: إن داود كان في محرابه يصلي، إذ تصور له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور. فقطع صلاته وقام ليأخذ الطير، فخرج الطير إلى الدار، فخرج في أثره، فطار الطير إلى السطح، فصعد في طلبه، فسقط الطير في دار أوريا بن حنان، فاطلع داود في أثر الطير، فإذا بامرأة أوريا تغتسل، فلما نظر إليها هواها، وكان أوريا قد أخرجه في بعض غزواته، فكتب إلى صاحبه: أن قدم أوريا أمام الحرب، فقدم فظفر أوريا بالمشركين، فصعب ذلك على داود، فكتب إليه ثانية: أن قدمه أمام التابوت، فقتل أوريا عليه السلام، وتزوج داود بامرأته. قال: فضرب الرضا عليه السلام بيده على جبهته، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد نسبتم نبياً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته، حتى خرج في أثر الطير، ثم

بالفاحشة، ثم بالقتل! فقال: يا بن رسول الله، فما كانت خطيئته؟ فقال: ويحك، إن داود إنما ظن أن ما خلق الله عزّ وجلّ خلقا هو أعلم منه، فبعث الله عزّ وجلّ إليه الملكين فتسورا المحراب، فقالا: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۞ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ فعجل داود عليه السلام على المدعى عليه، فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾، ولم يسأل المدعي البينة على ذلك، ولم يُقبل على المدعى عليه فيقول: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة حكمه، لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع قول الله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية؟ فقلت: يا بن رسول الله، فما قصته مع أوريا؟ فقال الرضا عليه السلام: إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبداً، وأول من أباح الله عزّ وجلّ له أن يتزوج بامرأة قتل بعلها داود عليه السلام، فذلك الذي شق على [الناس] من قبل أوريا. وأما محمد نبيه صلى الله عليه وآله وقول الله عزّ وجلّ له: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ فإن الله عزّ وجلّ عرف نبيه صلى الله عليه وآله أسماء أزواجه في دار الدنيا، وأسماء أزواجه في الآخرة، وأنهن أمهات المؤمنين، وأحد من سمى له زينب بنت جحش، وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة، فأخفى صلى الله عليه وآله اسمها في نفسه ولم يبده، لكيلا يقول أحد من المنافقين: إنه قال في امرأة في بيت رجل إنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين، وخشي قول المنافقين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ في نفسك،

وإن الله عزّ وجلّ ما تولى تزويج أحد من خلقه إلا تزويج حواء من آدم، وزينب من رسول الله صلى الله عليه وآله، وفاطمة من علي عليه السلام. قال: فبكى علي بن الجهم، وقال: يا بن رسول الله، أنا تائب إلى الله عزّ وجلّ أن أنطق في أنبياء الله عزّ وجلّ بعد يومي هذا إلا بما ذكرته»[1].

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي: ص١٥٠- ١٥٣.

الفصل الخامس

سهو وإسهاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

* تمهيد
* المبحث الأول: الفرق بين حقيقتي السهو والنسيان
* المبحث الثاني: النسيان الإلهي في القرآن
* المبحث الثالث: نسيان الأنبياء في الآيات القرآنية

سهو وإسهاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

تمهيد:

تقدّمت الإشارة سابقاً إلى وجود بعض الروايات في المجامع الحديثية للطائفة السنّية ترسم صورة سيّئة لشخصية النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وتستنقص من طهارته وعصمته المطلقة، وقلنا إنّ المذهب الإمامي الإثني عشري ليس مسؤولاً في التصدّي للإجابة عن تلك الإسرائيليات، التي وضعتها اليهود بإيعاز من السلطات الأموية الحاكمة.

فيتركّز البحث في هذا الموضوع حول الروايات التي وردت في المصادر الشيعية، والتي توهم التنافي مع مبدأ العصمة المطلقة، الذي تقدّم إثباته.

وقبل الولوج في تلك الروايات وبيان حالها واستعراض رأي علماء الشيعة فيها، لابدّ من التعرّض للفرق بين مفهوم السهو ومفهوم النسيان، مع ذكر الآيات التي نسبت النسيان إلى الله تعالى، وكذا الآيات القرآنية التي أثبتت النسيان لبعض الأنبياء، مما قد يوهم التنافي مع العصمة المطلقة والانسجام مع الروايات الآتية، التي قد يستدلّ ببعض ظواهرها على سهو نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله.

وعلى هذا الضوء يقع البحث في هذا الفصل ضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: الفرق بين حقيقتي السهو والنسيان

يتضمّن هذا المبحث الكلام في الفرق بين السهو والنسيان لغة واصطلاحاً، مما يمهّد الحديث في آيات النسيان في هذا الفصل، وروايات السهو الآتية في الفصل اللاحق.

١- مفهومي السهو والنسيان في اللغة والاصطلاح

السهو في اللغة:

قال الفراهيدي: «السهو: الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، وإنه لساه بين السهو والسهو، وسها الرجل في صلاته، إذا غفل عن شيء منها»[١].

وقال الجوهري في الصحاح: «والسهو: الغفلة»[٢].

وقال ابن فارس في المقاييس: «فالسهو: الغفلة، يقال سهوت في الصلاة أسهو سهواً»[٣].

وقال في المصباح المنير:«سها عن الشيء (يسهو) (سهواً) غفل، وفرّقوا بين الساهي والناسي، بأنّ الناسي إذا ذكّرته تذكّر والساهي بخلافه، والسهوة الغفلة»[٤].

---

(١) الخليل الفراهيدي، كتاب العين: ج٤ ص٧١، ط٢ ـ مؤسسة دار الهجرة ـ إيران.

(٢) اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح: ج٦ ص٢٣٨٦، ط١ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.

(٣) ابن فارس، معجم المقاييس في اللغة: ص٤٩٤ مادة (سهو)، ط٢ ـ دار الفكر ـ بيروت.

(٤) الفيّومي، المصباح المنير: ج١ ص٢٩٣، المكتبة العلمية ـ بيروت.

وفي تاج العروس قال: «وقال المناوي في التوقيف: السهو ذهول المعلوم عن أن يخطر بالبال، وقيل خطأ عن غفلة، وهو ضربان: أحدهما لا يكون مِن الإنسان جرٌّ إليه وموالدته، كمجنون سبّ إنساناً، الثاني أن يكون منه موالدته، كمن شرب خمراً ثم ظهر منه منكر بلا قصد، والأول عفو والثاني مؤاخذ به»[(١)].

وقال الراغب في المفردات: «السهو: خطأ عن غفلة، وذلك ضربان: أحدهما، أن لا يكون من الإنسان جوالبه ومولّداته، كمجنون سبّ إنساناً، والثاني، أنه يكون منه مولّداته، كمن شرب خمراً، ثم ظهر منه منكر لا عن قصد إلى فعله، والأول معفو عنه والثاني مأخوذ به، وعلى نحو الثاني ذم الله تعالى، فقال: ﴿فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[(٢)] ﴿عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[(٣)]»[(٤)].

وفي لسان العرب: «السهو والسهوة: نسيان الشيء والغفلة عنه وذهاب القلب عنه إلى غيره، والسهو في الصلاة: الغفلة عن شيء منها، سها الرجل في صلاته.

قال ابن الأثير: السهو في الشيء تركه عن غير علم، والسهو عنه تركه مع العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

---

(١) الزبيدي، تاج العروس: ج١٠ ص١٩١، مكتبة الحياة ـ بيروت.

(٢) الذاريات: ١١.

(٣) الماعون: ٥.

(٤) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ص٤٣١، ط١ ـ دار القلم دمشق الشامية ـ بيروت.

أبو عمر: ساهاه غافله.

والمساهاة في العشرة: ترك الاستقصاء»[(١)].

وفي تهذيب اللغة: «قال الليث: السهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، وإنَّه لساه بين السهو والسهو، وسها الرجل في صلاته إذا غفل عن شيء منها»[(٢)].

وفي مقام ذكر الفرق بين الغفلة والسهو قال في (الفروق اللغوية): «إنَّ الغفلة تكون عما يكون، والسهو يكون عما لا يكون، تقول: غفلت عن هذا الشيء حتى كان، ولا تقول: سهوت عنه حتى كان؛ لأنك إذا سهوت عنه لم يكن، ويجوز أن تغفل عنه ويكون، وفرق آخر: أنَّ الغفلة تكون عن فعل الغير، تقول: كنت غافلاً عمّا كان من فلان، ولا يجوز أن يُسهى عن فعل الغير»[(٣)].

وقال أيضاً: «الفرق بين الغفلة والسهو: قيل السهو عدم التفطّن للشيء مع بقاء صورته أو معناه في الخيال أو الذكر، بسبب اشتغال النفس والتفاتها إلى بعض مهمّاتها.

والغفلة: عدم حضور الشيء في البال بالفعل، فهي أعم من السهو»[(٤)].

والذي يتحصّل من كلمات اللغويين: أنَّ الأصل الواحد في مادة

(١) ابن منظور، لسان العرب: ج١٤ ص٤٠٦ ـ ٤٠٨، ط١ ـ دار صادر ـ بيروت.

(٢) الأزهري، تهذيب اللغة: ج٦ ص٣٦٦.

(٣) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص٣٨٨، ط١ ـ جامعة المدرسين ـ قم.

(٤) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص٣٨٩، ط١ ـ جامعة المدرسين ـ قم.

(السهو) هو الغفلة عن عمل يقصده من نفسه ويريد أن يعمل به، وذلك بذهاب القلب عنه إلى غيره وذهول المعلوم عن أن يخطر بالبال من دون قصد منه إلى ذلك.

ومن ذلك يتضح الخطأ في قول ابن الأثير، من أنّ «السهو في الشيء تركه عن غير علم، والسهو عنه تركه مع العلم»، فإنّ قوله هذا لا شاهد عليه، إلا أنَّه حاول أن يدفع به إشكال توجّه الذمّ إلى الساهي، كما هو مضمون قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1]، فأراد أن يبين أنّ الذمّ للتاركين صلاتهم إنما هو ذمّ لتركهم الصلاة عن قصد والتفات، وقد خالف ابن الأثير في ذلك جملة اللغويين والمفسّرين، إذ إنّ اللغويين صرّحوا بأنّ السهو لا يكون إلا عن غفلة وترك من دون قصد كما تقدّم، وذكروا أيضاً أنّ السهو وإن كان تركاً للفعل بلا قصد، إلا أنَّه ينقسم إلى قسمين: أحدهما، لا يستوجب الذم ولا العقاب. والآخر، يستوجبهما، كما نصّ على ذلك الراغب والمناوي فيما تقدّم من كلامهما، حيث ذكرا أنّ الوقوع في السهو وفعل الحرام سهواً، إذا كانت مقدّماته ومولّداته بفعل الشخص وسوء اختياره فإنّه يكون معاقباً ومؤاخذاً على فعله المحرّم، الذي وقع منه سهواً من دون قصد؛ لأنَّه كان السبب المباشر لإيقاع نفسه في فعل الحرام، وإن كان حين الفعل ساهياً غافلاً عن فعله، كمن شرب خمراً باختياره ثم ظهر منه منكر من المنكرات لا عن قصد، وهذا ما نصّ عليه المفسّرون عند

---

(١) الماعون: ٤- ٥.

تعرضهم لتفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٢]، ونشير فيما يلي إلى بعض أقوالهم:

١- ما أخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال: «في غفلة لاهون»[٣].

وأخرج عن مجاهد في قوله: ﴿عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «لاهون»، وعن قتادة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: «غافلون»، وعنه أيضاً قال: «ساه عنها لا يبالي صلّى أم لم يصلّ»، ثم قال الطبري بعد أن نقل أقوالاً أخرى في تفسير الآية المباركة: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب بقوله: ﴿سَاهُونَ﴾: لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها تضييعها أحياناً وتضييع وقتها أخرى».

ثم حاول أن يرجع الأقوال الأخرى إلى هذا القول، فمن قال بأنَّ المراد تضييع وقتها معناه اللهو والتشاغل بغيرها الموجب للغفلة عن الإتيان بها في وقتها، ومن قال بأنَّ المراد تضييع الصلاة ذاتها فمعناه أيضاً التشاغل بغيرها الموجب للغفلة عن الإتيان بها بالمرّة.

وبذلك فسّر الطبري قول النبي صلى الله عليه وآله، عندما سأله سعد بن أبي وقاص

---

(١) الذاريات: ١٠ ـ ١١.

(٢) الماعون: ٤ ـ ٥.

(٣) الطبري، جامع البيان: ج٢٦ ص٢٤٨، ط١ ـ نشر دار الفكر ـ بيروت.

عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فقال صلى الله عليه وآله: «هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها»[١].

٢- قال ابن كثير في تفسيره: «وقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس (رضي الله عنهما) وغير واحد: في الكفر والشكّ غافلون لاهون»[٢].

وقد أخرج في قوله تعالى: ﴿عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ عن جابر عن عاصم عن مصعب عن أبيه موقوفاً: «سهوا عنها حتى ضاع الوقت».

ثم قال: «وهذا أصحّ إسناداً، وقد ضعّف البيهقي رفعه و صحّح وقفه، وكذلك الحاكم»[٣].

٣- قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغمرة: ما ستر الشيء وغطّاه، ومنه نهر غمر، أي يغمر من دخله، ومنه غمرات الموت. ﴿سَاهُونَ﴾: أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة»[٤].

وقال في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ : «وفي قراءة عبد الله: **الذين هم عن صلاتهم لاهون**»[٥].

٤- قال الزمخشري في الكاشف: «﴿فِي غَمْرَةٍ﴾: في جهل يغمرهم.

---

(١) الطبري، جامع البيان: ج٣٠ ص٣٥٠ ـ ٣٥١، ط١ ـ دار الفكر ـ بيروت.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج٤، ص٢٤٩، طبعة ١٤١٢، نشر دار المعرفة ـ بيروت.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج٤ ص٥٩٤، نشر دار المعرفة ـ بيروت.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج١٧ ص٢٩، ط٤ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج٢٠ ص١٩٤، ط٤ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

﴿سَاهُونَ﴾: غافلون عمّا أمروا به»[١].

وقال أيضاً: «﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ كأنه قال: فإذا كان الأمر كذلك، فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلّة مبالاة بها، حتى تفوتهم أو يخرج وقتها».

ثم قال: «فإن قلت: أيّ فرق بين قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ وبين قولك: في صلاتِهِم؟ قلت: معنى (عن): أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين.

ومعنى (في): إنَّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم»[٢].

٥- قال الشوكاني: «﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[٣]، أي: في غفلة وعمى وجهالة عن أمور الآخرة، ومعنى ﴿سَاهُونَ﴾: لاهون غافلون، والسهو: الغفلة عن الشيء و ذهابه عن القلب، وأصل الغمرة ما ستر الشيء وغطّاه»[٤].

٦- قال البغوي في تفسيره: «﴿سَاهُونَ﴾: لاهون غافلون عن أمر الآخرة، والسهو: الغفلة عن الشيء وهو ذهاب القلب عنه»[٥].

---

(١) الزمخشري، الكشاف: ج٤ ص٣٩٧، منشورات البلاغة.

(٢) الزمخشري، الكشاف: ج٤ ص٨٠٤ ـ ٨٠٥، منشورات البلاغة.

(٣) الذاريات: ١١.

(٤) الشوكاني، فتح القدير: ج٥ ص٨٤.

(٥) البغوي، معالم التنزيل: ٣٧٢.

وقال أيضاً: «﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: أي: عن مواقيتها غافلون»[١].

وأقوال المفسّرين بهذا المضمون كثيرة[٢].

وحاصل أقوال المفسّرين: إن السهو في الآيات القرآنية يراد منه معناه اللغوي، وهو ترك الفعل المأمور به عن غفلة ومن دون قصد، ولكن إذا كان ذلك بتقصير العبد وإهماله المتعمّد والإشتغال عن الواجب بالمحرمات، فإنه يكون محاسباً ومعاقباً ومذموماً على سهوه.

إذن ترك الفعل عن قصد والتفات خارج عن مفهوم السهو، ولا يعبَّر عن ذلك بالسهو إلا مجازاً.

مفهوم النسيان في اللغة:

قال الجوهري في الصحاح: «والنسيان بكسر النون: خلاف الذكر والحفظ، والنسيان: الترك، قال تعالى: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾»[٣].

وقال ابن فارس في المقاييس: «نسي: النون والسين والياء أصلان صحيحان؛ يدلّ أحدهما على إغفال الشيء، والثاني على ترك شيء.

---

(١) البغوي، معالم التنزيل: ص٣٧٢.

(٢) لاحظ: تفسير الفخر الرازي: ج١٧ ص١١٥، وتفسير البيضاوي: ص٢٣٦ وص٥٣٤، وتفسير الجلالين: ص٦٩٣ وص٨٢٣، والوجيز للواحدي: ص١٢٣٥، وتفسير المراغي: ج٩ ص٢٨٤، وتفسير أبي السعود: ج٩ ص٢٠٤.

(٣) إسماعيل إبن حماد الجوهري، الصحاح: ج٦ ص٢٥٠٨، ط٤ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.

فالأول: نسيت الشيء إذا لم تذكره نسياناً.

والآخر: الترك، وعلى ذلك يفسّر قوله تعالى: ﴿نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، أراد والله أعلم: فترك العهد.

وقال بعضهم: الأصل في الباب النسيان، وهو عزوب الشيء عن النفس بعد حضوره لها»[1].

وقال ابن الأثير:«إن أصل النسيان الترك»[2].

وقال الفيومي في المصباح: «ونسيت الشيء أنساه نسياناً: مشترك بين معنيين:

أحدهما: ترك الشيء على ذهول وغفلة، وذلك خلاف الذكر له.

والثاني: الترك على تعمّد، وعليه ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تقصدوا الترك والإهمال»[3].

وقال الراغب في المفردات: «النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد، حتّى ينحذف عن القلب ذكره، وقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ هو ما كان سببه عن تعمّد منهم وتركه على طريق الإهانة، وإذا نسب ذلك إلى الله

---

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة: ص١٠٢٥، ط٢ ـ دار الفكر ـ بيروت.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ج٥ ص٥٠، ط٤ ـ مؤسسة إسماعيليان ـ قم.

(٣) الفيومي، المصباح المنير: ج٢ ص٦٠٤، المكتبة العلمية ـ بيروت.

فهو تركه إيّاهم استهانة بهم ومجازاة لما تركوه، قال: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا﴾، ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾»(١).

وقال في اللسان:«النسيان: بكسر النون ضدّ الذكر والحفظ.

والنسيان: الترك، وقوله عزّ وجلّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: نأمركم بتركها، يقال: أنسيته، أي: أمرت بتركه، ونسيته تركته.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قال ثعلب: لا ينسى الله عزّ وجلّ، إنما معناه تركوا الله فتركهم، فلمّا كان النسيان ضرباً من الترك وضعه موضعه.

وفي التهذيب: أي تركوا أمر الله فتركهم من رحمته، وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾: أي تركتها، فكذلك تترك في النار، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ معناه أيضاً ترك؛ لأن الناسي لا يؤخذ بنسيانه، والأوّل أقيس.

وقوله: ﴿فَلا تَنسَى﴾ أي: فلست تترك إلا ما شاء الله أن تترك.

ومما يقوي هذا، ماروى ثعلب عن إبن الأعرابي أنه أنشده:

إنَّ عليَّ عقبة أقضيها لست بناسيها و لا منسيها

قال: بناسيها بتاركها، ولا منسيها ولا مؤخّرها، فوافق قول ابن الأعرابي قوله في الناسي: إنَّه التارك.

والنَّسوة: الترك للعمل.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ قال الزجاج: تنسون ههنا على

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات: ص٨٠٣.

ضربين: جائز أن يكون تنسون تتركون، وجائز أن يكون المعنى أنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ أي: نتركهم من الرحمة في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ يجوز أن يكون معناه تركوا، ويجوز أن يكون في تركهم القبول بمنزلة من نسي»[(١)].

وقال المناوي في (التوقيف على مهمّات التعاريف): «النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه وإما عن غفلة أو عن قصد، حتى ينحذف عن القلب»[(٢)].

وفي الفروق اللغويّة قال: «الفرق بين النسيان والسهو: أن النسيان إنّما يكون عّما كان، والسهو يكون عمّا لم يكن، تقول: نسيت ما عرفته، ولا يقال: سهوت عمّا عرفته؛ وإنما تقول: سهوت عن السجود في الصلاة، فتجعل السهو بدلاً عن السجود الذي لم يكن، والسهو والمسهو عنه يتعاقبان.

وفرق آخر: أن الإنسان إنما ينسى ما كان ذاكراً له، والسهو يكون عن ذكر وعن غير ذكر؛ لأنه خفاء المعنى بما يمتنع إدراكه.

وفرق آخر: وهو أن الشيء الواحد محال أن يُسهى عنه في وقت ولا

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ج١٥ ص٣٢٢ ـ ٣٢٣، ط١ ـ دار صادر ـ بيروت.

(٢) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف: ص٦٩٨، ط١ ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت.

يسهى عنه في وقت آخر؛ وإنما يُسهى عنه في وقت آخر عن مثله، ويجوز أن ينسى الشيء الواحد في وقت ويذكره في وقت آخر»[1].

حصيلة المعنى اللغوي لمفهومي السهو والنسيان:

لقد تبين من التعريفات و التطبيقات اللغوية لمفهومي السهو والنسيان الأمور التالية:-

١- إن مفهوم السهو هو: الغفلة عن عمل يقصده من نفسه ولم يقع منه بعد، ويريد أن يعمل به، وذلك بذهاب القلب عنه إلى غيره وذهول المعلوم عن أن يخطر بالبال من دون قصد منه إلى ذلك، سواء كان ذاكراً لفعله قبل السهو عنه حين العمل أم لم يكن.

٢- إن السهو على قسمين:

الأول: السهو الذي لا تكون مقدّماته ومولّداته بفعل الشخص الساهي، فيقع منه الفعل المحرّم مثلاً من دون قصد ولا تمهيد له بارتكاب مقدّماته، و هذا ما لا يكاد يخلو منه مسلم، وهو لا يستوجب ذمّاً ولا عقاباً.

الثاني: السهو الذي تكون مقدّماته بفعل الشخص الساهي، وسوء اختياره، فيقع منه الفعل سهواً من دون قصد؛ لكنه محاسب ويعاقب عليه؛ لأنه كان السبب في إيقاع نفسه في فعل الحرام مثلاً، وإن كان حين الفعل غافلاً عن فعله، كمن شرب خمراً باختياره، ثم ظهر منه منكرٌ من

(١) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص٥٣٩، ط١ ـ مؤسسة النشر الإسلامي.

المنكرات لا عن قصد والتفات.

٣- إنّ الشخص إذا انطبق عليه مفهوم السهو وكان ساهياً لا يمكن أن يكون ملتفتاً حين سهوه ولا قاصداً إلى الإتيان بالفعل السهوي ولا عامداً لترك المسهو عنه، بل لا يمكن تذكير الساهي حين سهوه.

٤- إنّ مفهوم النسيان هو: أن يترك الشخص ما كان موجوداً وذاكراً له، إما عن غفلة وذهول وإما عن قصد وعمد وإهمال ملحوظ، بحيث يكون ملتفتاً وقاصداً لترك الفعل المنسي والإتيان بما يخالفه.

٥- إنّ النسيان على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يترك الشخص أمراً كان موجوداً وذاكراً له بسبب الغفلة والذهول حين الإتيان بالفعل، وهذا هو النسيان الذي قد يكون فيه العبد معذوراً، والذي قال فيه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إنّ الله تجاوز عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري[1].

الثاني: أن يترك الشخص أمراً كان موجوداً وذاكراً له بسبب التوجّه والانشغال بأمور تخالفه، فيغفل عن العمل بالوظيفة التي كان ذاكراً لها، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ**﴾[2].

الثالث: حصول حالة الترك والنسيان بالاختيار والتعمّد من دون غفلة وذهول، كما في فعل الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿**نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ**

(١) ابن حبان، صحيح بن حبان: ج١٦ ص٢٠٢، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط٢ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) الفرقان: ١٨.

﴿الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]، فإنّ المراد من نسيان الله تعالى للمنافقين، تركهم عن الذكر بالرحمة و اللطف.

إذن حقيقة النسيان: عبارة عن انقطاع الذكر والتوجّه وحصول حالة الترك والإعراض عن الشيء، سواء كان السبب في ذلك هو الغفلة والذهول، أم الانشغال بالمنافيات، أم بداعي الحساب والمجازاة عن عمد واختيار.

٦- إن الشخص إذا انطبق عليه مفهوم النسيان وكان ناسياً يمكن أن يكون ملتفتاً حين نسيانه وقاصداً لترك الفعل المنسي والإتيان بمخالفه، وإذا كان غافلاً يمكن تذكيره.

حصيلة الفرق بين المفهومين:

١- إنّ السهو لا يكون إلا عن غفلة وذهول حال الإتيان بالفعل، والنسيان يمكن أن يكون عن قصد والتفات في ذلك الحين، ولذا كان السهو على قسمين فقط والنسيان على ثلاثة أقسام.

٢- إنّ الساهي لا يمكن تذكيره حال السهو، بخلاف الناسي.

٣- إنّ النسيان عن أمر كان موجوداً، وحالة السهو لا تحصل إلا عن أمر لم يكن موجوداً.

٤- إنّ الإنسان إنما ينسى ما كان ذاكراً له، والسهو يكون عن ذكر

(١) التوبة: ٦٧.

وعن غير ذكر.

٥- إنَّ الشيء المنسي عن غفلة في وقت يمكن أن يكون بعينه ملتفتاً إليه في وقت آخر، وأما الشيء المسهوّ عنه في وقت لا يمكن أن يكون بعينه ملتفتاً إليه في وقت آخر، وإنما يلتفت إلى مثله، كترك ركعة من ركعات الصلاة سهواً، فإنه لا يلتفت في الوقت اللاحق إلى الركعة ذاتها، وإنما يلتفت إلى مثلها.

٦- إنَّ القسم الأول والثاني في كلا المفهومين متباينان من حيث الحقيقة والماهية، وإن كانا قد يشتركان في المعذورية وعدمها، كما قد يشتركان أيضاً في المنافاة مع مبدأ العصمة، ولكن ذلك لا يعني أنَّ مفهوم السهو بقسميه متّحد في المفهومية مع مفهوم النسيان في قسمه الأول والثاني، بل هما أمران متباينان، وحقيقتان مختلفتان كلّ واحد منهما بقسميه يتنافى في حدّ ذاته مع مبدأ العصمة، وعليه يكون مبحث النسيان منفصلاً تماماً عن مبحث السهو.

ثمار البحث اللغوي:

١- إنَّ من الخطأ جعل آيات النسيان الواردة في حق الأنبياء مبحثاً وشاهداً قرآنياً لروايات السهو، وجعل رويات السهو امتداداً روائياً لآيات النسيان.

٢- لا يمكن أن يقال: إنَّ روايات السهو موافقة لكتاب الله تعالى، إعتماداً على آيات النسيان الآتي ذكرها.

٣- إذا كان القرآن يثبت العصمة المطلقة للأنبياء -كما تقدّم- فإنّ الروايات المعارضة لروايات السهو والنافية له تكون هي الموافقة لكتاب الله تعالى، وروايات السهو مخالفة له، خصوصاً إذا عالجنا آيات النسيان بما لا يتنافى مع العصمة المطلقة.

٤- إنّ هناك علاجاً خاصاً -كما سيتضح- لآيات النسيان تفتقده روايات السهو؛ و ذلك لأنّ النسيان يكون عن قصد والتفات وينسب إلى الله تعالى أيضاً، وهذا بخلاف السهو فهو لا يكون إلا عن غفلة وذهول؛ و لذا لم يُنسب إلى الله تعالى في الآيات القرآنية.

هذا كلّه في الجانب اللغوي لمفهومي السهو والنسيان.

السهو والنسيان اصطلاحاً:

وأما في الجانب الاصطلاحي للمفهومين، فسيتضح أنّه متطابق تماماً مع المعنى اللغوي لكل واحد منهما، حيث لم يستخدم السهو في الآيات والروايات إلا في حال الغفلة والذهول، تارة عن عذر وأخرى عن غير عذر، أما السهو الذي يعذر فيه الشخص، فهو ما ورد في متواتر الروايات وفتاوى الفقهاء في مسألة السهو في الصلاة وغيرها[1]، وأما السهو الذي لا يكون الشخص فيه معذوراً، فهو ما تقدّم في قوله تعالى:﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ**﴾، ولم نعثر على مورد واحد في الآيات والروايات استخدم

(١) لاحظ: المغني، ابن قدامة: ج١ ص٥٨٧ ـ ٨١٥، دار الفكر ـ بيروت.

مفهوم السهو في ترك الفعل عن قصد والتفات، بل يستخدم دائماً في حال الغفلة والذهول.

وأما النسيان فقد استعمل في الآيات والروايات بأقسامه الثلاثة المتقدّمة، فالنسيان الذي يقع عن غفلة ويعذر فيه الشخص، هو الذي رفعه الله تعالى عن هذه الأمّة، كما تقدّم عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث قال: **«إنّ الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»**(١)، وأما النسيان والترك الذي يكون عن غفلة ولا يعذر فيه الشخص، فهو ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾(٢)، وأما النسيان والترك الذي يحصل عن قصد والتفات فسيأتي تفصيل الكلام فيه لاحقاً عند ذكر الآيات التي نسبت النسيان إلى الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام.

المبحث الثاني: النسيان الإلهي في القرآن

هناك آيات عديدة في القرآن الكريم أسندت النسيان إلى الذات الإلهية المقدّسة، وقد تقدّمت الإشارة إلى بعضها عند استعراض كلمات اللغويين، وصرّح اللغويون بأنّ هذه الآيات المباركة استعملت النسيان وأرادت القسم الثالث منه، وهو الترك عن قصد والتفات، والقرينة على ذلك هو قيام الدليل القطعي على أنّ الله تعالى منزّه عن النسيان بقسميه الأول والثاني الذي يتضمن الغفلة والذهول، وهو نقص لا يمكن أن

---

(١) ابن حبان، صحيح بن حبان: ج١٦ ص٢٠٢، ط٢ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) الفرقان: ١٨.

تتصف به الذات المقدّسة، وهذا ما أكّد عليه المفسّرون عند بيانهم لتلك الآيات الكريمة.

وفيما يلي نستعرض بعض تلك الآيات المباركة مع ذكر أقوال المفسّرين فيها:-

١- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1].

قال القمي في تفسيره: «أي: نتركهم والنسيان منه عزّ وجلّ هو الترك»[2].

وقال الطبرسي في مجمع البيان: «أي: نتركهم في العذاب كما تركوا التأهّب والعمل للقاء هذا اليوم، عن ابن عباس والحسن ومجاهد»[3].

وقال ابن كثير في تفسيره: «وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا.

وقال مجاهد: نتركهم في النار.

وقال السدّي: نتركهم من الرحمة كما تركوا لقاء يومهم هذا»[4].

وفي تفسير القرطبي: «﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾: أي: نتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا﴾ أي: تركوا العمل به وكذّبوا به»[5].

---

(١) الأعراف: ٥١.
(٢) القمي، تفسير القمي: ج١ ص٢٣٥، ط٣ ـ مؤسسة دار الكتاب ـ قم.
(٣) الطبرسي، مجمع البيان: ج٤ ص٢٦٥، ط١ ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج٢ ص٢٩٣.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج٧ ص١٩٤.

وقال الثعالبي: «وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ هو من إخبار الله عزّ وجلّ عما يفعل بهم، والنسيان هنا بمعنى الترك، أي: نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم، قاله إبن عباس»[(١)].

وفي تفسير مجاهد: «في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ يقول: نتركهم في النار، ﴿كَمَا نَسُواْ﴾ يقول: كما تركوا أن يعملوا ليومهم هذا»[(٢)].

وقد نصّ على المعنى ذاته البغوي في تفسيره، والواحدي في الوجيز، وابن الجوزي في زاد المسير وغيرهم[(٣)].

وحاصل كلماتهم: أنَّ النسيان في الآية المباركة استعمل في الترك عن قصد، فالجاحدين للآيات الإلهية تركوا التأهّب والعمل للقاء يوم الحساب عن قصد والتفات، وكذلك الله تعالى ينساهم، بمعنى أنَّه يتركهم في النار والعذاب عن قصد والتفات.

٢- قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[(٤)].

قال الشريف المرتضى في الناصريات: «والنسيان عبارة عن معنيين:

أحدهما: النسيان الذي هو ضدّ العمد.

---

(١) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ج٢ ص٢٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت.

(٢) مجاهد، تفسير مجاهد: ج١ ص٢٣٨، المنشورات العلمية- بيروت.

(٣) لاحظ: تفسير البغوي: ج١ ص٢٣٤، الوجيز للواحدي: ص٣٩٦، زاد المسير: ج٣ ص٢٠٩.

(٤) التوبة: ٦٧.

والآخر: عن ترك الشيء على وجه العمد، كقوله تعالى: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾»[١].

وقال الطبرسي: «إنّ لفظ النسي المنقول منه أنسى على ضربين:

أحدهما: بمعنى النسيان الذي هو خلاف الذكر، نحو قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

والآخر: بمعنى الترك، نحو قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا طاعة الله فترك رحمتهم، أو ترك تخليصهم»[٢].

وقال أيضاً: «﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا طاعته فتركهم في النار، وترك رحمتهم وإثابتهم، عن الأصمّ»[٣].

و قال الطبري: «وأما قوله: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فإنّ معناه: تركوا الله أن يطيعوه ويتّبعوا أمره، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته، وقد دللنا فيما مضى على أنّ معنى (النسيان) الترك بشواهده، فأغنى عن إعادته هنا»[٤].

وقال القرطبي: «﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا عبادته فتركهم في العذاب»[٥].

---

(١) الشريف المرتضى، مسائل الناصريات: ص٢٥٢، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ـ طهران.
(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ج١ ص٣٤٠، ط١ ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.
(٣) الطبرسي، مجمع البيان: ج٥ ٨٥، ط١ ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.
(٤) الطبري، جامع البيان: ج٦ ص٤١١.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج٢ ص٦١.

وفي فتح القدير للشوكاني قال: «وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قال: تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه»(١).

وقال البغوي: «﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعة الله فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة وتركهم في عذابه»(٢).

وقال الجصّاص في أحكام القرآن: «والنسيان بمعنى الترك مشهور في اللغة، قال تعالى: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ يعني: تركوا أمر الله تعالى فلم يستحقّوا ثوابه»(٣).

وقال النحاس: «والمعنى عند أهل اللغة، تركوا أمر الله فتركهم من رحمته وتوفيقه، يقال: نسي الشيء إذا تركه»(٤).

وهكذا ما في الوجيز للواحدي وزاد المسير لابن الجوزي(٥)، وغيرها.

وحاصل كلماتهم: أنَّ النسيان كما في الآية السابقة استعمل في الترك عن قصد والتفات.

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾(٦).

قال العلامة الحلّي في المختلف: «إنَّ الترك عمداً يطلق عليه إسم

---

(١) الشوكاني فتح القدير: ج٢ ص٥٥٣.

(٢) البغوي، معالم التنزيل: ص٧١.

(٣) الجصاص، أحكام القرآن: ج٢ ص٢٧٨، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٤) النحاس، معاني القرآن: ج٣ ص٢٣١، ط١ ـ جامعة أم القرى ـ السعودية.

(٥) لاحظ الوجيز للواحدي: ص٤٧١، زاد المسير لابن الجوزي: ج٣ ص٤٦٧.

(٦) طه: ١٢٦.

النسيان، لاشتراكهما في مطلق الترك، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾»[١].

وفي تفسير الأصفى: «﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾: فعميت عنها وتركتها غير منظور إليها، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل تركك إياها، ﴿الْيَوْمَ تُنسَى﴾: تترك في العمى والعذاب»[٢].

وقال الطبري: «﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ يقول: فكما نسيت آياتنا في الدنيا فتركتها وأعرضت عنها، فكذلك اليوم ننساك فنتركك في النار»[٣].

وقال القرطبي: «﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: تركتها ولم تنظر فيها وأعرضت عنها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ أي: تترك في العذاب»[٤].

وقد أجمعت التفاسير على المعنى المذكور.

والمعنى ذاته ذكره المفسرون في الآيات الآخرى التي نسبت النسيان إلى الله تعالى.

كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾[٦].

حصيلة البحث: إنَّ إطلاق لفظ النسيان وإرادة معنى الترك عن قصد

---

(١) العلامه الحلي، مختلف الشيعة: ج٢ ص٤١٩، ط١ ـ مؤسسة النشر الإسلامي ـ إيران.

(٢) الفيض الكاشاني، الأصفى: ج٢ ص٧٧٣، ط١ ـ مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية ـ إيران.

(٣) الطبري، جامع البيان: ج٨ ص٤٧٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ج١١ ص٢٥٩ ط١٤٠٥، نشر مؤسسة التاريخ العربي ـ لبنان.

(٥) الجاثية: ٣٤.

(٦) السجدة: ١٤.

والتفات من الاستعمالات الشائعة في القرآن الكريم، مضافاً إلى ما تقدّم في البحث اللغوي من كونه معنًى حقيقياً للفظ النسيان.

ولو فرضنا جدلاً أنّ الترك عن قصد والتفات من المعاني المجازية للفظ النسيان، مع ذلك نقول: إنّ صحّة الاستعمالات المجازية تتطلّب وجود علاقة ورابطة حقيقية بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي، وهذه العلاقة والرابطة متوفّرة بين النسيان وبين الترك عن قصد، كما اتضح مفصلاً في الاستعمالات اللغوية والقرآنية، ولكن العلاقة ذاتها مفقودة، بين مفهوم السهو وبين الترك عن قصد، فلا يصح استعمال لفظ السهو في الترك عن التفات؛ ولذا لم يستعمل القرآن لفظ السهو في الذات الإلهية المقدّسة، بخلاف لفظ النسيان.

وهناك آيات قرآنية أخرى أطلقت لفظ النسيان وأرادت منه الترك عن قصد والتفات، كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾(٣).

قال الطبري: «وأولى القرآءات في قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ بالصواب من قرأ ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ بمعنى: نتركها»(٤).

---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) البقرة: ٢٣٧.

(٣) البقرة: ١٠٦.

(٤) الطبري، جامع البيان: ج١ ص٥٢١.

وكقوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾[١].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا﴾ وتركوا نصيباً، وهو كقوله: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا الله فتركهم الله»[٢].

وهكذا قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾[٣].

قال القرطبي في تفسير الآية: «والنسيان يطلق على الساهي والعامد التارك، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾: أي تركوه عن قصد، ومنه ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾»[٤].

والآيات في هذا المجال كثيرة نقتصر على ما ذكرناه، وقد توقّفنا عند هذه النقطة بإمعان لعلاقتها وارتباطها الوثيق بالآيات التي أسندت ونسبت النسيان إلى الأنبياء عليهم السلام كما سيتضح في العنوان التالي.

ونختم الحديث في هذه النقطة بما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، حيث أخرج العياشي في تفسيره عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «﴿نَسُواْ اللَّهَ﴾ قال عليه السلام: تركوا طاعة الله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ قال: فتركهم»[٥].

وأخرج الصدوق في (العيون) عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبد العزيز بن مسلم، قال: «سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فقال: إنّ الله تعالى لا ينسى ولا يسهو، وإنما ينسى ويسهو

---

(١) المائدة: ١٣.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج٤ ص٤٩٥.

(٣) الأعراف: ١٦٥، الأنعام: ٤٤.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج٧ ص٢٧١.

(٥) العياشي، تفسير العياشي: ج٢ ص٩٥، المكتبة العلمية الإسلامية ـ طهران.

المخلوق المحدث، ألا تسمعه عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، وإنما يجازي من نسيه و نسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا﴾: أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا»[(١)].

فالإمام الرضاعليه السلام يؤكّد على أنَّ النسيان والسهو الذي يتضمّن الغفلة والذهول ممتنع الوقوع من الذات الإلهية المقدّسة، وأما اذا كان النسيان بمعنى الترك عن قصد فهو الذي يصدر من الله تعالى، وهو المراد من آيات النسيان.

كما أنّه عليه السلام يؤكّد أيضاً على أنَّ طبيعة المخلوق المحدث هو الذي فيه قابلية السهو والنسيان عن غفلة وجهل؛ بسبب عجزه وفقره وحدوثه واشتمال ذاته على النقص والاحتياج، ولكن هذا لا يعني أن كلّ مخلوق هكذا حاله بالفعل، بل إنَّ الذين اصطفاهم الله تعالى وطهَّر ذواتهم وأذهب عنهم كلّ رجس ودنس منزهّون عن السهو والنسيان بفضله تعالى وجوده، كما تقدّم تفصيل ذلك، ويأتي الإشارة إليه في آيات نسيان الأنبياء.

---

(١) الصدوق، عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج٢ ص١١٤، ط١ ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

المبحث الثالث: نسيان الأنبياء في الآيات القرآنية

قبل الولوج في ذكر الآيات المباركة، التي يظهر منها نسبة النسيان إلى الأنبياء عليهم السلام، لابدّ من استذكار أهم النتائج المترتّبة على الأبحاث السابقة، والتي لها دور أساس في فهم آيات نسيان الأنبياء عليهم السلام، وهي:

١- إنّ الأدلة العقلية والقرآنية والروايات المتضافرة دلت وبوضوح على عصمة الأنبياء جميعاً، عن السهو والخطأ والنسيان قبل النبوّة وبعدها. وعلى هذا الضوء، فالآيات القرآنية التي قد يتوهّم من بعض ظواهرها التنافي مع العصمة المطلقة، تكون من الآيات المتشابهة التي لابدّ من عطفها على محكمات القرآن الكريم، وقطعيّات العقل والسنة النبوية، الدالّة على اصطفاء بيوت الأنبياء عليهم السلام بالعلم الخاص والطهارة الكاملة، وبالوقوف على الصراط المستقيم، والإطلاع على حقائق الأشياء وعواقبها بالشهود التام والحضور الدائم، وقلوبهم في يقظة مستمرّة لا تغفل ولا تسهو ولا تنام، وإن نامت عيونهم كسائر البشر.

وقد أوضحنا هذه الحقيقة مفصّلاً في البحوث السابقة، فلاحظ.

٢- ذكرنا سابقاً أن منشأ العصمة والاصطفاء المطلق هو العلم الخاص الشهودي، الذي يُنتج أعلى درجات التقوى، وهو يتنافى مع الجهل والسهو والنسيان.

٣- تقدّم أيضاً أنّ عصمة نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله أوسع من عصمة سائر الأنبياء عليهم السلام؛ لشمولها ترك الأولى مع سبقها الوجودي على عصمة بقيّة

الأنبياء.

٤- إنّ مفهوم النسيان لغة شامل في مصاديقه وأفراده للترك عن قصد والتفات، وقد استعمل القرآن الكريم مفهوم النسيان بكثرة -كما تقدّم- في هذا المعنى، سواء في ذلك نسبته إلى الله تعالى، أم نسبته إلى المخلوقين.

٥- إنّ استعمال مفهوم النسيان في الترك عن قصد لا يعني دائماً النقص في الناسي، كما هو الحال في نسبة النسيان إلى الله تعالى، نعم، استعمل هذا المعنى في الذم والتوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾[1]، و غيرها من الآيات المتقدّمة.

٦- إنّ النسيان عن غفلة من النقائص، وقيام الدليل القطعيّ على خلو الذات الإلهية المقدّسة عن كل نقص كان كافياً ومسوغاً لحمل النسيان المنسوب إلى الله تعالى في بعض الآيات القرآنية على القسم الثالث من معانيه، وهو الترك عن قصد والتفات، كذلك في الأنبياء عليهم السلام فإنه مع قيام الدليل القطعي على عصمتهم المطلقة -كما سبق- لابدّ أن يكون كافياً لحمل الآيات التي تثبت النسيان لهم على الترك عن قصد مع الإمكان، وحينئذٍ يكون من قبيل ترك الأولى الجائز على بعض الأنبياء، كما تقدّم.

بعد ذكر هذه النتائج المهمّة والالتفات إليها نحاول الشروع في آيات نسيان الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) المائدة: ١٣.

آيات نسيان الأنبياء

هناك جملة من الآيات المباركة التي أثبتت النسيان لبعض الأنبياء، فهل هي منسجمة أم متنافية مع عقيدة العصمة؟ ولكي يتضح الجواب عن هذا التساؤل نستعرض فيما يلي تلك الآيات مع بيان دلالتها والمراد من مضمونها:

الآية الأولى: نسيان أدم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[(١)].

إنَّ هذه الآية المباركة تقع في ضمن سياق قصّة آدم عليه السلام، التي أشارت إلى دور الشيطان وتأثيره على القرار الذي اتخذه آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة ومخالفة أمر ربّه، حيث نهاه عن الأكل منها، وقد تقدّم ذكر هذه القصّة سابقاً، و أجبنا بشيء من التفصيل عن توهّم مخالفتها ومنافاتها لعقيدة العصمة المطلقة للأنبياء، ولا نريد إعادة ما ذكرناه هناك؛ وإنما نحاول في المقام تسليط الضوء على جانب النسيان في هذه القصّة، وهو الذي صرّحت به الآية الكريمة المذكورة في محلّ البحث.

فهل ذكر النسيان في الآيه المباركة ونسبته للنبي آدم عليه السلام يتقاطع مع المبدأ القائل بعصمته المطلقة، أم لا؟

---

(١) طه: ١١٥.

الجواب:

إنَّ المراد من النسيان في الآية المباركة هو القسم الثالث من معانيه المستعمل فيه لغة، وهو ترك الفعل عن قصد والتفات. وبناءً على هذا الفهم للآية الكريمة يكون المقصود من مدلولها أنَّ آدم عليه السلام إنما ترك الأمر والعهد الإلهي والوصيّة والنصيحة بالابتعاد عن الشجرة عن قصد وإرادة واختيار، إذ لم يكن له طاقة ولا عزم على تحمّل ذلك العهد والأمر الإلهي.

ولكن ليس ذلك الترك مما ينافي العصمة؛ لأن الأوامر والعهود الإلهية كانت قبل الهبوط إلى الأرض إرشادية لا تكلفية، لانتفاء التكليف المولوي في دار السماء، والظرف الذي تلقّى فيه آدم النهي عن الأكل من الشجرة لم يكن معدّاً للتشريع والتكليف؛ وإنما أعدّ لتبصير ذلك المخلوق الجديد بأعدائه، وتحصيل الاستعداد لتحمّل تكاليف المستقبل بالتعليم والاختبار، فيكون منطلق الأمر والنهي الإلهي في ذلك الظرف من موقع النصح والإرشاد والهداية إلى سُبل الحياة، ثم يترك له الاختيار بعد ذلك، فإن اتّبع النصح والإرشاد يكون قد نجا عما يترتّب على الأكل من تعب وعناء، وإن خالف النصيحة يقع في المضاعفات التي تكمن في ذات الفعل، كما هو حال التعامل بين الطبيب والمريض.

وبناءً على هذ البيان يتّضح أنّ ترك العهد والأمر بالابتعاد عن الأكل من الشجرة لم يكن معصية أو ذنباً أو مخالفة مولويّة، كي تتنافى مع مبدأ

العصمة المطلقة؛ وذلك لأسبقيّة الواقعة المذكورة على تقنين الشرائع السماويّة.

ولو افترضنا جدلاً أنّ الدار كانت دار تكليف، فلا شك أنّ فعله كان من ترك الأولى الذي ينسجم مع العصمة العامة أيضاً؛ لأنه بقرينة ما تقدّم من محكمات الآيات في عصمة الأنبياء وعدم الضلال والانحراف في سلوكهم عن صراط الحقّ المستقيم يتبيّن أنّ النهي لم يكن نهياً إلزامياً، بل هو من النهي التنزيهي الذي لا تكون مخالفته إلا من ترك الأولى والأفضل.

ثم إنَّ هناك شواهد عديدة تثبت أنَّ النسيان في الآية الكريمة يراد منه ترك الفعل عن إرادة وقصد و اختيار، وليس المراد منه الغفلة والذهول:-

منها: إنَّ آدم عليه السلام كان ملوماً من قبل الله تعالى ومؤاخذاً على ما فعله من ترك النصائح أو الأوامر الإلهية، وكان ما صدر منه نوعاً من أنواع الظلم والمعصية ـ بما لا يتنافى مع العصمة المطلقة ـ مما استوجب الهبوط إلى الأرض وطلب المغفرة، وهذا كلّه إنما يتلائم مع الاتيان بطبيعة الفعل عن وعي والتفات؛ إذ لو كان النسيان عن غفلة وذهول لما كان آدم عليه السلام مؤاخذاً ومُلاماً على فعله؛ لأنَّ الناسي مرفوع عنه قلم المؤاخذة.

ومنها: إنَّ الغفلة والنسيان والذهول من أحكام عالم الدنيا وشؤون المادة الزائلة والمتغيرة من حال إلى حال، وأما جنة آدم التي سبقت

الهبوط إلى عالمنا هذا، فهي دار يسكنها الملائكة، وهي دار حضور وتجرّد وشهود، ولا يحكمها نظام الغفلة و النسيان و التشويش الذي يقع في العلوم الحصولية التصوريّة، خصوصاً وأن آدم عليه السلام يسكن منزلاً علّمه الله تعالى فيه الأسماء كلّها، علماً خاصاً لا يختلط بالباطل والزيغ أبداً.

ومنها: إنّ العصمة المطلقة بعد أن ثبتت لآدم عليه السلام بالدليل القطعي كما تقدّم، فلابدّ حينئذ من تفسير النسيان المنسوب إليه عليه السلام بالترك عن قصد اختياري، كما صرح بذلك جملة من المفسّرين عندما حملوا النسيان المنسوب إلى الله تعالى في الآيات القرآنية على الترك عن قصد، وليس ذلك إلا لقيام الدليل القطعي على تنزيه الذات الإلهية عن نقص الغفلة والذهول.

والحاصل: إنّ النسيان المنسوب إلى آدم عليه السلام ليس إلا من ترك الأمر الإرشادي، أو من ترك الأولى عن قصد والتفات، وكلاهما ينسجمان مع مبدأ عصمة الأنبياء المطلقة.

وقد صرّح بهذا المعنى جملة من علماء الفريقين:

قال الشيخ الطوسي في التبيان: «وقوله: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معناه عهد الله إليه بأن أمره به ووصّاه به (**فَنَسِيَ**): أي ترك»[1].

---

(١) الشيخ الطوسي، التبيان: ج٧ ص٢١٣، ط١ ـ مكتب الإعلام الإسلامي.

وقال أيضاً: «والنسيان الترك، ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾»[1].

ومن الواضح أنَّ مراده الترك عن قصد، كما هو صريح كلامه.

وقال الطبرسي: «معناه: أمرناه وأوصينا إليه أن لا يقرب الشجرة ولا يأكل منها، فترك الأمر، عن ابن عباس، ولم نجد له عقداً ثابتاً»[2].

وقال أبو الفتح الكراجكي في كنز الفوائد: «قالت المجبّرة: ما معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وكيف يجوز أن يتعبّدنا بالدعاء بذلك وعندكم أن النسيان من فعله سبحانه، ولا تكليف على الناسي في حال نسيانه؟

جواب: يقال للمجبّرة لسنا نحيل أن يكون المراد من النسيان المذكور في هذه الآية السهو وفقد العلم... و يجوز أيضاً أن نحمل النسيان المذكور فيها على أن المراد به الترك، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ أي: فترك، ولولا ذلك لم يكن فعله معصية. كقوله: ﴿نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا طاعته الله فتركهم من ثوابه ورحمته، وقد يقول الرجل لصاحبه لا تنسني من عطيتك، أي: لا تتركني منها، و أنشد أبو عرفة:

ولم أك عند الجـود للجود قالياً ولا كنت يوم الروع للطعن ناسياً

يعني: تاركاً.

---

(١) الشيخ الطوسي، التبيان: ج٨ ص٣٠١، ط١ ـ مكتب الإعلام الإسلامي.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ج٧ ص٦٠، ط١ ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.

ويشهد بصحة ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ بمعنى: وتتركون أنفسكم»[1].

وقال صاحب (الحدائق الناضرة) بعد ذكره روايتين في نسيان النبي صلى الله عليه وآله في الصلاة: «والمراد بالنسيان في الخبرين المتقدّمين الترك، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي: ترك، لا النسيان بالمعنى المعهود، فإنه لا مؤاخذة عليه لحديث رفع القلم»[2].

وقد تقدّم قول ابن فارس في (المقاييس)، حيث حمل النسيان المنسوب إلى آدم عليه السلام في الآية الكريمة على ترك العهد، لا إغفاله[3].

وقال الزمخشري في الكشاف: «فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟

قلت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر... و‹يجوز› أن يراد الترك وأنه ترك ما وصّي به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها»[4].

وقال الطبري في تفسيره: «وقوله: (فَنَسِيَ) يقول: فترك عهدي، كما حدّثني علي قال: حدّثنا أبو صالح، قال: حدّثني معاوية عن علي، عن بن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ يقول: فترك.

حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبدالرزاق قال: أخبرنا معمر، عن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: (فَنَسِيَ) قال: ترك أمر ربّه»[5].

---

(١) أبو الفتح الكراكجي، كنز الفوائد: ص٤٠، ط٢ ـ مكتبة المصطفوي ـ قم.

(٢) الشيخ الطوسي، التبيان: ج٨ ص٣٠١، ط١ ـ مكتب الإعلام الإسلامي.

(٣) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة: ص١٠٢٥، ط٢ ـ دار الفكر ـ بيروت.

(٤) الزمخشري، الكشاف: ج١ ص٧٦٩.

(٥) الطبري، جامع البيان: ج٨ ص٤٦٥.

وقد أخرج ابن كثير في تفسيره المضمون ذاته[١].

وقال القرطبي: « ﴿فَنَسِيَ﴾ بإسكان الياء، وله معنيان:

أحدهما: ترك، أي: ترك الأمر والعهد، وهذا قول مجاهد وأكثر المفسّرين، ومنه﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

و ثانيهما: قال ابن عباس: (**نسي**) هنا من السهو والنسيان».

ثم نقل قول ابن عطية: «والعهد ها هنا في معنى الوصية و(**نسي**) معناه ترك، ونسيان الذهول لا يمكن هنا؛ لأنه لا يتعلّق بالناسي عقاب»[٢].

ونقل أيضاً في موضع آخر قول محمد بن يزيد، حيث قال: «والدليل على أنه بمعنى ترك، أنَّ الله عزّ وجلّ أخبر عن إبليس أنه قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾[٣]، فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكره»[٤].

وفي فتح القدير للشوكاني: «﴿فَنَسِيَ﴾ قرأ الأعمش بإسكان الياء، والمراد بالنسيان هنا ترك العمل بما وقع به العهد إليه وينتهي عنه، وبه قال أكثر المفسّرين»[٥].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج٣ ص٢٢٥.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج١١ ص٢٢٣.

(٣) الأعراف: ٢٠.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج١٤ ص٨٩.

(٥) الشوكاني، فتح القدير: ج٣ ص٥٥٦.

ثم أخرج القول بذلك عن ابن عباس[١].

وفي الدرّ المنثور: «وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن، في قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ قال: ترك ما قدم إليه، ولو كان منه نسيان ما كان عليه شيء؛ لأن الله قد وضع عن المؤمنين النسيان و الخطأ، ولكن آدم ترك ماقدم إليه من أكل الشجرة»[٢].

ولا حاجة للإطالة في هذه النقطة، فإنّ المفسّرين مجمعون على أنّ آدم عليه السلام إنما ترك الأمر والعهد عن قصد والتفات[٣]، وقلنا هو من ترك النصيحة والإرشاد أو من ترك الأولى، وهو لا يتنافى مع عصمته المطلقة.

الآية الثانية: نسيان يوسف عليه السلام

قال الله تعالى حكاية عن حال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[٤].

في مطلع الحديث عن هذه الآية المباركة لابدّ أن يتضح:

أولاً: إنّ النسيان الوارد في هذه الآية لا يمكن أن يراد منه الترك عن قصد والتفات؛ لأنه خلاف تصريح الآية الكريمة، حيث أوردت النسيان في مقابل التذكّر، وقالت: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، فالمراد من النسيان

---

(١) الشوكاني، فتح القدير: ج٣ ص٥٥٨.

(٢) السيوطي، الدر المنثور: ج٥ ص٦٠٤، دار الفكر ـ بيروت.

(٣) لاحظ أيضاً: تفسير البغوي: ص٢٩٧، والوجيز للواحدي: ص٧٠٧، وزاد المسير لابن الجوزي: ج٥ ص٣٢٨.

(٤) يوسف: ٤٢.

فيها هو الغفلة والذهول المقابلان للتذكّر والالتفات.

وثانياً: إنّ الشيطان كان له دور وسلطان على الشخص الذي نسي ذكر ربّه.

وبناءً على هذين الأمرين حاول القائلون بنسيان الأنبياء عليهم السلام أن يتمسّكوا بهذه الآية المباركة لإثبات وقوع النسيان منهم وسلطان الشيطان عليهم في هذا المجال، وذلك بإرجاع الضمير في قوله تعالى: ﴿**فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾ إلى النبي يوسف عليه السلام، وأنّ الشيطان أنساه ذكر الله تعالى، فتعلّق بغيره للنجاة من السجن، فعوقب على ذلك، ولبث في السجن بضع سنين.

الجواب:

لم يكن المقصود بقوله تعالى: ﴿**فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾ النبي يوسف عليه السلام؛ وإنما المقصود هو السجين الذي سينجو من السجن ويسقي ربّه خمراً، فأنسى الشيطان ذلك الناجي من السجن أن يذكر يوسف عند ربّه الملك، ولبث يوسف عليه السلام لهذا السبب في السجن بضع سنين.

والشواهد لهذا البيان الذي ذكرناه كثيرة نشير إلى بعضها:

١- ذكرنا إنّ النسيان الوارد في الآية المباركة إنما وقع بتأثير الشيطان وسلطانه، والشيطان لا سلطان له على الأنبياء والمخلصين بصريح القرآن الكريم، قال تعالى حكاية لكلام إبليس: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ**

عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١]، ولا شكّ أنّ يوسف عليه السلام من المخلصين بصريح القرآن أيضاً، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٢]، ونتيجة ذلك أنّ الشيطان لاسبيل ولا سلطان له على يوسف عليه السلام، فلايمكن أن يكون هو المقصود بالنسيان في الآية الكريمة، وإلا لكان للشيطان سلطان عليه، وهو مرفوض بنصّ القرآن الكريم، كما تبيّن.

٢- إنّ يوسف عليه السلام عبّر عن الملك بالربّ، وأنّ الملك هو ربّ السجين الذي كان يخدمه وسيسقيه خمراً بعد خروجه من السجن، ففي الآية الأسبق قال يوسف عليه السلام: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾[٣].

وقال أيضاً في الآية اللاحقة التي هي محلّ البحث: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، والمشاكلة في التعبير والوحدة في السياق تقتضي أن يكون المراد من لفظ الربّ في المواطن الثلاثة واحد، وهو الملك، فالمراد من ﴿يَسْقِي ربّه خَمْرًا﴾ و﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ و ﴿أنساهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ ربّه﴾ واحد ضمن سياق واحد، وقال يوسف عليه السلام للرسول الذي بعثه الملك في آيات لاحقه: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[٤]، وهذا

---

(١) ص: ٨٢ _ ٨٣.

(٢) يوسف: ٢٤.

(٣) يوسف: ٤١.

(٤) يوسف: ٥٠.

خير شاهد على أنّ هذا الربّ هو المنسيّ، لا ربّ يوسف عليه السلام.

٣- إنّ قوله تعالى بعد آيتين لاحقتين: ﴿**وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾(١) قرينة واضحة على أنّ المراد من الناسي في الآية هو الساقي وليس يوسف عليه السلام.

٤- إنّ قول يوسف عليه السلام لصاحب السجن الذي ظن أنه ناج ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾ ليس فيه أيّ محذور عقائدي، ولا يستوجب العقاب من الله تعالى؛ لأنّ التوسّل بالأسباب في عالم المادّة مما لابدّ منه، ويوسف عليه السلام لا يريد في قوله أن يشرك مع الله تعالى أحداً في قضاء حاجته والخروج من السجن، فإنّ هذا مخالف لحال يوسف وإخلاصه وإيمانه المنقطع النظير بالله تعالى الذي بيّنته الآيات السابقة، فلا شكّ أنّ قول يوسف عليه السلام: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾ مع التوكّل على الله تعالى وترك الثقة بالأسباب، وأما ترك الأسباب مطلقاً، فهو من التواكل المذموم في الشرائع السماوية، وهذا يكشف عن أنّ بقاء يوسف عليه السلام في السجن لم يكن السبب فيه قوله للساقي: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾؛ وإنما كان سببه نسيان الساقي.

٥- إنّ الآيات المباركة في سورة يوسف تنصّ على أنّ يوسف عليه السلام كان على ذكر دائم لربّه عزّ وجلّ، ولم يغفل عنه في أشدّ الظروف، بل كان يذكّر الآخرين بالله تعالى، قال تبارك وتعالى: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**

(١) يوسف: ٤٥.

﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾(١)، فهذه الآية تكشف وبوضوح عن أنَّ يوسف الصديق عليه السلام كان وفي أصعب الظروف ذاكراً لربّه، مقبلاً عليه، مستغرقاً في حبه، مستمسكاً بعرى التوحيد، حيث لم يُجب امرأة العزيز المغرمة بحبّه إلا بالاستعاذة بالله تعالى واللجوء إليه، ولم يكن في قلبه أحد سوى الله تعالى، ولا تعدّى رجاؤهُ إلى غيره، وهذا هو التوحيد الخالص الذي قدّم فيه يوسف عليه السلام ربّه على سائر أسباب الخلاص، ثم ذكر عليه السلام لامرأة العزيز أنَّ الله تعالى هو الذي أحسن مثواه، وليس إكرامها وإكرام العزيز له إلا من لطف الله عزّ وجلّ وجميل صنعه فيه.

وهكذا استعصم يوسف عليه السلام بربّه الذي كان حاضراً في ذكره دائماً عندما راودته نساء المدينة مرة أخرى، فـ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٢).

ولنقف قليلاً مع حديث يوسف عليه السلام لصاحبي السجن، لنرى مدى ذكره الدائم لربّه وتوحيده الخالص وخضوعه أمام سلطان الله تعالى وحكمه الذي لا ينسجم ولا يجتمع مع سلطان الشيطان وغوايته، خصوصاً وأنَّ آية النسيان التي هي محلّ البحث جاءت في سياق استعراض يوسف عليه السلام لمبادىء التوحيد الإبراهيمي النقي عن كلّ مراتب الشرك. قال تعالى حكاية لخطاب يوسف التوحيدي:

﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا

---

(١) يوسف: ٢٣.

(٢) يوسف: ٣٣.

عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(١).

بعد أنّ استغل النبي يوسف عليه السلام فرصة التبليغ والدعوة إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له ونبذ كل سلطان إلا سلطان الله تعالى، قال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾(٢).

وهذا السياق المتناسق المترابط للآيات القرآنية يكشف وبكل وضوح أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربّه هو الذي ظن أنه ناج منهما، والربّ هو الملك وليس هو ربّ يوسف عليه السلام الذي لم يغب عن وجوده وذاكرته طرفة عين.

والحاصل: إنّ النسيان الوارد في الآية المباركة ليس المقصود به يوسف عليه السلام؛ وإنما هو صاحبه في السجن الذي نجى وادّكر بعد أمّة، ولم يكن في قول يوسف عليه السلام لصاحبه: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي محذور يتنافى مع العصمة المطلقة، وهذا ما أكّد عليه مفسّروا الفريقين وعلماؤهم.

---

(١) يوسف: ٣٧- ٤٠.

(٢) يوسف: ٤١ _ ٤٢.

قال الشيخ الطوسي في تفسيره (التبيان): «والهاء في قوله ﴿فَأَنسَاهُ﴾ تعود إلى يوسف في قول ابن عباس.

وقال ابن إسحاق والحسن والجبائي تعود على الساقي، وتقديره فأنسى الساقي الشيطان ذكر يوسف»[١].

وقال المجلسي صاحب البحار في معرض تفسيره للآية المباركة: «﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: فأنسى الشيطان صاحب الشراب أن يذكره لربّه»[٢].

وقال القاضي السيد نور الله التستري الشهيد في (إحقاق الحق): «﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ والمعنى الظاهر الذي اختاره أرباب التنزيه هو أنّ ضمير أنساه راجع إلى الشرابيّ، والحاصل: أنه أنسى الشرابيّ أن يذكر لربّه»[٣].

وقال السيد العلامة الطباطبائي في (تفسير الميزان): «وقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الضميران راجعان إلى (الذي) أي: فأنسى الشيطان صاحبه الناجي أن يذكره لربّه أو عند ربّه، فلبث يوسف في السجن بضع سنين.

وأما إرجاع الضميرين إلى يوسف، حتى يفيد أنّ الشيطان هو الذي أنسى يوسف ذكر الله سبحانه، فتعلّق بذيل غيره في نجاته من السجن

---

(١) الشيخ الطوسي، التبيان: ج٦ ص١٤٤، ط١ ـ مكتب الإعلام الإسلامي.
(٢) المجلسي، البحار: ج٦٨ ص١١٣، ط٢ ـ مؤسسة الوفاء ـ بيروت.
(٣) السيد التستري، إحقاق الحق وإزهاق الباطل: ج٢ ص٢٣٣، منشورات مرعشي النجفي ـ قم.

فعوقب على ذلك، فلبث في السجن بضع سنين كما ذكره بعضهم، وربّما نسب إلى الرواية، فمما يخالف نصّ الكتاب، فإنّ الله سبحانه نصّ على كونه عليه السلام من المخلصين، ونصّ على أنّ المخلصين لا سبيل للشيطان إليهم، مضافاً إلى ما أثنى الله عليه في هذه السورة.

والإخلاص لله لا يستوجب ترك التوسّل بالأسباب، فإنّ ذلك من أعظم الجهل؛ لكونه مطمعاً فيما لا مطمع فيه، بل إنما يوجب (أي الإخلاص) ترك الثقة بها والاعتماد عليها، وليس في قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما يشعر بذلك البتّة»[(١)].

وقال ابن كثير في تفسيره: «﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصّتي عند ربّك وهو الملك، فنسي ذلك الموصى أنّ يذكّر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان؛ لئلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب، أنّ الضمير في قوله ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد»[(٢)].

وقال أيضاً في كتابه (قصص الأنبياء): «وقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصّاه به يوسف عليه السلام، قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو الصواب وهو منصوص أهل الكتاب».

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ج١١ ص١٨١، مؤسسة إسماعيليان ـ قم.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج٢ ص٤٩٧، دار المعرفة ـ بيروت.

ثم قام ابن كثير بعد ذلك بتضعيف الأقوال والروايات التي فيها إشارة إلى أنَّ الذي أنساه الشيطان ذكر ربّه هو يوسف عليه السلام[(١)].

وقال ابن تيمية في هذا المجال: «قال تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ قيل: أنسى يوسف ذكر ربّه لمّا قال: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، وقيل. بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربّه، وهذا هو الصواب، فإنّه مطابق لقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، قال تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك؛ ولأنَّ يوسف لم ينس ذكر ربّه، بل كان ذاكراً لربّه، وقد دعاهما قبل الرؤيا إلى الإيمان بربّه، وقال لهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ الآية - إلى أن قال:- بهذا يذكر ربّه عزّ وجلّ، فإنّ هذا مما علّمه ربّه؛ لأنّه ترك ملّة قوم مشركين لا يؤمنون بالله، وإن كانوا مقرّين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة، واتّبع ملّة آبائه أئمة المؤمنين- الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره- إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فذكر ربّه ثم دعاهما إلى الإيمان بربّه، ثم بعد هذا عبَّر الرؤيا.... فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربّه؟ وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربّه، أي: الذكر المضاف إلى ربّه ـ ثم قال بعد ذلك:- ليس في قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما يناقض التوكّل، بل قد قال يوسف: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾... وأيضاً يوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصاً مع توكّله على غير الله»[(٢)].

---

(١) ابن كثير، قصص الأنبياء: ج١ ص٣٢٨، ط١ ـ دار الكتب الحديثة.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: ج١٥ ص١١٢ ـ١١٤.

وختاماً نقول:

إنّ الروايات التي ورد فيها إشعار بأنّ الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربّه مخالفة لصريح القرآن الكريم، الذي نفى أي سلطان للشيطان على أولياء الله وأنبيائه المخلصين.

وأما الروايات التي أشارت إلى أنّ الله تعالى عاقب يوسف عليه السلام على قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فأبقاه في السجن بضع سنين؛ لكون ذلك منافياً للتوكّل على الله تعالى وتفويض الأمور إليه، الذي يناسب مقام الأنبياء، فإنّ هذه الروايات أيضاً لا يمكن الأخذ بمضمونها؛ لأن سياق سورة يوسف تكشف وبوضوح -كما تقدّم- عن التوكّل التام من قبل يوسف عليه السلام على ربّه وتفويض أموره إليه تعالى، وقد كان الله تعالى معه في كل موقف ومحنة يقع فيها.

ولكن إن أبيت إلا عن التمسّك بتلك الروايات، فإنها لا تنافي مقام العصمة المطلقة أبداً؛ لأن غاية ما فيها هو ترك الأولى الذي يتناسب مع المقامات العالية التي منّ الله تعالى بها على يوسف عليه السلام، وبذلك أراد الله تعالى أن ينبّه يوسف عليه السلام على ذلك كي يعود إلى محلّه ومقامه الرفيع الذي شرّفه به الله عزّ وجلّ، وكان عقابه بأن تسلّط الشيطان على الساقي فنسي ما وصاه به يوسف، فلبث في السجن بضع سنين.

قال السيد شرف الدين صاحب المراجعات في كتابه (أبو هريرة): «﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: صفتي عند الملك

بصفاتي وقصّ عليه قصّتي لعله يرحمني ويتداركني من هذه الورطة ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: أنَّ الشيطان أنسى الرجل أن يذكر يوسف لربّه، أعني الملك ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وكان نسيان الرجل ولبث يوسف في السجن بضع سنين إنما كانا تنبيهاً له إلى أنه قد فعل غير الأولى، إذ كان الأولى له أن لا يتوسّل إلى رحمة الله بغير الله عزّ وجلّ»[1]، وقريب من هذا المضمون ما أخرجه الطبري في تفسيره عن ابن إسحاق، قال: «لما خرج- يعني الذي ظن أنه ناج منهما- ردّ على ما كان عليه ورضي عنه صاحبه، فأنساه الشيطان ذكر ذلك للملك، الذي أمره يوسف أن يذكره، فلبث يوسف بعد ذلك في السجن بضع سنين، يقول جل ثناؤه: فلبث يوسف في السجن؛ لقيله للناجي من صاحبي السجن من القيل اذكرني عند سيّدك، بضع سنين عقوبة له من الله بذلك»[2].

والحاصل: إنَّ النسيان المذكور في الآية المباركة لم يكن من نصيب يوسف عليه السلام، بل كان سلطان الشيطان على الساقي الذي نجا من السجن ولم يكن معصوماً عن النسيان والغفلة ونحوهما.

الآية الثالثة: نسيان فتى موسى عليه السلام

قال تعالى حكاية لقصّة موسى عليه السلام وفتاه عندما خرجا للبحث عن الشخص الذي علّمه الله تعالى من لدنه علماً: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا

---

(١) السيد شرف الدين الموسوي، أبو هريرة: ص٨٢، انتشارات أنصاريان ـ قم.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج٧ ص٢١٩.

غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ * وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾[1].

قبل الولوج في الإجابة والردّ على من استدلّ بهذه الآية المباركة على وقوع النسيان عن غفلة من الأنبياء، لابدّ من استيضاح بعض الأمور المهمّة والمؤثّرة في الجواب:

الأمر الأول: من هو الفتى المذكور في الآية الكريمة؟

إنَّ الفتى الذي كان مع موسى عليه السلام في سفره والذي نسي الحوت[2] هو النبي يوشع بن نون، وروايات الفريقين تؤكّد ـ كما سيتضح ـ أنَّ يوشع بن نون عليه السلام كان مجمعاً بين مقامي النبوّة والوصاية، فهو نبيّ مرسل من أنبياء الله تعالى، وفي الوقت ذاته كان وصيّاً لموسى عليه السلام وقائماً بشؤون الإمامة والقيادة والخلافة الدينية والسياسية على بني إسرائيل من بعده.

وهذا يعني أنَّ يوشع بن نون عليه السلام من الأنبياء الذين نالوا مقام الإمامة، كما هو الحال في النبي إبراهيم عليه السلام، الذي قلّده الله تعالى ذلك المقام بعد النبوّة والرسالة، حيث قال عزّ وجلّ: **﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّه بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**[3]،

---

(١) الكهف: ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) قال ابن منظور في اللسان: الحوت: السمكة، ج٢ ص٢٦.

(٣) البقرة: ١٢٤.

وقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(١)، وقال تعالى أيضاً لتأكيد هذه الحقيقة في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٢).

أما بالنسبة إلى الروايات من طرف الفريقين التي دلّت على نبوّة يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام فهي كثيرة نشير إلى بعضها:

١- ما أخرجه القاضي النعمان عن ابن عجلان بسنده عن أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّ الله عزّ وجلّ اختار يوشع بن نون وصيّاً لموسى عليه السلام، وجعله من بعده نبيّاً**»(٣).

٢- ما أخرجه الصدوق في الخصال بسنده عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام، قال: «**كان علي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة في الجامع، إذ قام إليه رجل من أهل الشام، فسأله عن مسائل؛ فكان فيما سأله أن قال: أخبرني عن ستّة من الأنبياء لهم إسمان، فقال: يوشع بن نون وهو ذو الكفل، ويعقوب وهو إسرائيل، والخضر وهو حلقيا، ويونس وهو ذو النون، وعيسى وهو المسيح، ومحمّد وهو أحمد، (صلوات الله عليهم**

---

(١) الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٣.

(٢) السجدة: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار: ج٢ ص٤٧٦، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

أجمعين»[١]، ومن الواضح أن ذا الكفل من الأنبياء بنصّ القرآن الكريم.

٣- ما أخرجه الصدوق أيضاً في كمال الدين بسنده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام، في حديث طويل جاء فيه: «**ثم إنَّ الله تبارك وتعالى أرسل يوشع بن نون إلى بني إسرائيل من بعد موسى، فنبوّته بدؤها في البّرية التي تاه فيها بنو إسرائيل، ثم كانت أنبياء كثيرون منهم من قصّه الله عزّ وجلّ على محمد صلى الله عليه وآله ومنهم من لم يقصّه على محمّد صلى الله عليه وآله**»[٢].

٤- ما جاء في البحار عن (صفوة الصفات) للكفعمي عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث طويل أيضاً جاء في ضمنه: «**ولما توفي موسى عليه السلام بعث الله يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبيّاً إلى بني إسرائيل**»[٣].

٥- ما أخرجه الحاكم عن سعيد المقبري، قال: سمعت أبا هريرة وكنت جالساً عنده، فقال أبو هريرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**إنَّ نبيّاً من الأنبياء قاتل أهل مدينة حتى إذا كاد أن يفتتحها خشي أن تغرب الشمس، فقال لها: أيتها الشمس إنك مأمورة وأنا مأمور، بحرمتي عليك ألا ركدت ساعة من النهار، قال: فحبسها الله حتى (افتتحها)**- إلى أن قال:- فقال كعب: صدق الله ورسوله هكذا والله، في كتاب الله- يعني في التوارة- ثم قال يا أبا هريرة، أحدّثكم النبي صلى الله عليه وآله أي نبيّ كان؟

---

(١) الشيخ الصدوق، الخصال: ص٣٢٢، جماعة المدرسين ـ قم.

(٢) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: ص٢٢٠، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار: ج١٣ ص٣٧٣، ط٢ ـ مؤسسة الوفاء ـ بيروت.

قال: لا، قال كعب: هو يوشع بن نون، قال: فحدّثكم أي قرية هي؟ قال: لا، قال: هي مدينة أريحاء».

ثم قال الحاكم: «هذا حديث غريب صحيح ولم يخرجاه».

وقال الذهبي في التلخيص: «صحيح غريب»(١).

٦- ما أخرجه ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس جاء في ضمنه: «ثم كانت وفاة هارون عليه السلام، ثم بعده بمدّة ثلاث سنين وفاة موسى عليه السلام، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبيّاً خليفة عن موسى بن عمران»(٢).

٧- ما أخرجه الطبري وابن كثير في تفسيريهما عن السدّي في مسألة التيه أربعين سنة، جاء فيه: «لما انقضت الأربعون سنة بعث يوشع بن نون نبيّاً، فأخبرهم: أنّه نبي وأنّ الله قد أمره أن يقاتل الجبّارين، فبايعوه وصدّقوه، فهزم الجبّارين»(٣).

إذن نبوّة يوشع بن نون واضحة في كتب الفريقين.

قال الشريف المرتضى في نبوّة يوشع بن نون: «لا خلاف بين المسلمين في أنّه كان نبيّاً بعد موسى عليه السلام»(٤).

وقال ابن خلدون في تاريخه: «كان من الأنبياء يوشع وغوزيا وأموص

---

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين: ج٢ ص١٥١، مع تعليقات الذهبي في التلخيص، ط١ ـ الكتب العالمية ـ بيروت ـ ١٩٩٠م.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج٢ ص٥٠.

(٣) الطبري، جامع البيان: ج٤ ص٥٢٢، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج٢ ص٣٥١.

(٤) الشريف المرتضى، الشافي في الإمامة: ج٣ ص٣٦، ط٢ ـ مؤسسة اسماعيليان ـ قم.

وأشعيا ويونس بن متى»[١].

هذا بالنسبة إلى نبوّة يوشع بن نون عليه السلام.

وأما خلافته وإمامته ووصايته عليه السلام على بني إسرائيل فقد صحّ من طرقنا مستفيضاً الدلالة على ذلك، ضمن روايات متضافرة:

منها: ما أخرجه محمد بن سليمان الكوفي في المناقب عن سلمان، قال: «**إني دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في غمرات الموت، فأفاق إفاقة، فقلت: يا رسول الله، أما أوصيت؟ فقال: يا سلمان، وما تدري من كان وصيّ موسى؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إنه كان وصيّ موسى يوشع بن نون، وكان أفضل من ترك بعده، ألا وإني أوصيت إلى علي، وهو أفضل من أترك بعدي**»[٢].

ومنها: ما أخرجه الصفّار في البصائر، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّ يوشع بن نون كان وصيّ موسى بن عمران**»[٣].

ومنها: ما أخرجه الكليني في الكافي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث طويل جاء فيه: «**وكان وصيّ موسى يوشع بن نون عليه السلام وهو فتاه الذي ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه**»[٤].

ومنها: ما أخرجه الصفّار في البصائر أيضاً عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «**وأوصى موسى إلى يوشع بن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى ولد**

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ج٢ ص١١٦.

(٢) محمد الكوفي، مناقب أمير المؤمنين: ج١ ص٣٨٩، ط١ ـ مجمع إحياء الثقافة الإسلامية.

(٣) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الرجات: ص١٦١، مؤسسة الأعلمي ـ طهران.

(٤) الكليني، الكافي: ج٨ ص١١٧، ط٢ ـ دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

هارون، ولم يوص إلى ولد موسى؛ لأن الله له الخيرة، يختار من يشاء ممن يشاء»[١].

هذا في كتب الشيعة الإمامية.

وأما في كتب الطائفة السنّية، فكذلك توجد روايات كثيرة في هذا المجال:

منها: ما أخرجه الطبراني، عن سلمان قال: «**قلت: يا رسول الله، لكل نبيّ وصيّ فمن وصيّك؟ فسكت عني، فلمّا كان بعد رآني، فقال: يا سلمان، فأسرعت إليه، قلت: لبيك، قال: تعلم من وصيّ موسى؟ قلت: نعم، يوشع بن نون، قال: لِمَ؟ قلت: لأنه كان أعلمهم، قال: فإنّ وصيّي وموضع سرّي وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني، علي بن أبي طالب عليه السلام**»[٢].

ورجال الحديث ثقاة لم يقع فيهم كلام، إلا في ناصح بن عبد الله، وفي (تهذيب الكمال) بعد أن نقل بعض التضعيفات للرجل، قال:

«وقال أحمد بن حازم بن أبي غرزة: سمعت عبيد الله بن موسى وأبا نعيم يقولان جميعاً عن الحسن بن صالح: قال ناصح بن عبد الله المحلمي: نعم الرجل. وروى له أبو أحمد بن عدي أحاديث عن سماك عن جابر بن سمرة، منها قوله: لأن يؤدّب الرجل ولده خير له من أن يتصدّق بصاع، ثم قال: وهذه الأحاديث عن سمّاك عن جابر بن سمرة غير محفوظة ولناصح غير ما ذكرت، وهو من جملة متشيّعي أهل الكوفة، وهو ممن يكتب حديثه، روى له الترمذي هذا الحديث»[٣].

---

(١) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات: ص٤٨٩، مؤسسة الأعلمي ـ طهران.
(٢) الطبراني، المعجم الكبير: ج٦ ص٢٢١، ط٢ ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.
(٣) المزي، تهذيب الكمال: ج٢٩ ص٢٦٣، ط١ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

والظاهر أن القوم لم ينقموا عليه إلا تشيّعه ومحبّته لأهل البيت عليهم السلام.

وقال ملا علي القاري في ترجمته: «روى عن مالك وعنه أبو داود، وقال: ما رأيت أحفظ منه، وكان أحمد يعظّمه، ومن أركان الدين، مات سنة أربع وثلاثين ومائتين»[1].

ومنها: ما أخرجه أحمد بن حنبل في الفضائل عن أنس بن مالك، قال: قلنا لسلمان سل النبي صلى الله عليه وآله من وصيّه؟ فقال له سلمان: «**يا رسول الله، من وصيّك؟ قال يا سلمان، من كان وصيّ موسى؟ قال: يوشع بن نون، قال: فإنّ وصيّي ووارثي يقضي ديني وينجز موعودي علي بن أبي طالب عليه السلام**»[2].

وقال الطبري في تفسيره: «قال الربيع: ذكر لنا أنّ موسى لما حضرته الوفاة استخلف فتاه يوشع بن نون على بني إسرائيل، وأنّ يوشع بن نون سار فيهم بكتاب الله التوراة وسنّة نبيّه موسى»[3].

وفي تفسير البغوي، أخرج عن وهب وابن اسحاق والكلبي وغيرهم قولهم: «لمّا مات موسى عليه السلام خلّف بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون، يقيم فيهم التوراة وأمر الله تعالى حتى قبضه الله تعالى»[4].

لقد اتضح من مجموع الروايات والأقوال من الفريقين أنّ يوشع بن نون عليه السلام كان نبيّاً مرسلاً لبني إسرائيل، وفي الوقت ذاته كان خليفة وإماماً ووصيّاً قائماً بالأمر من بعد موسى عليه السلام، وهو الفتى الذي كان مع

(١) ملا علي القاري، شرح مسند أبي حنيفة: ص٥٣٥، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
(٢) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة: ج٢ ص٦١٥، ط١ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
(٣) الطبري، جامع البيان: ج٢ ص٦١٠.
(٤) البغوي، تفسير البغوي: ص٢٩٥.

موسى عليه السلام في سفره بمتواتر الروايات وإجماع المسلمين؛ وإنما سمّاه الله تعالى فتى لموسى عليه السلام؛ لأنه كان ملازماً له في حلّه وترحاله لتلقّي علوم النبوّات ومواريث الرسالة، وليتحمّل أعباء الخلافة والنبوّة من بعده، ويخدمه في الوقت ذاته.

قال الشوكاني في فتح القدير: «قال الفرّاء: وإنما سمّي فتى موسى، لأنَّه كان ملازماً له يأخذ عنه العلم ويخدمه»[(١)].

هذا تمام الكلام في الأمر الأول.

الأمر الثاني: لا سلطان للشيطان على الأنبياء

تقدّم في بداية الكتاب مفصلاً أنَّ الشيطان لا سلطان له على الأنبياء والأوصياء المصطفين، وقد استثناهم الشيطان من القدرة على إغوائهم، وأقرّ بعجزه عن ذلك عندما توعّد بني البشر بالوقوف مانعاً أمام تكاملهم وسيرهم على الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾[(٤)].

---

(١) الشوكاني، فتح القدير: ج٣ ص٤٢٧.
(٢) الحجر: ٣٩ ـ ٤٠.
(٣) سورة ص: ٨٢ ـ ٨٣.
(٤) الإسراء: ٦٢.

فإذا كان المخلصون هم الأنبياء والأوصياء كما تقدّم فلا تأثير مباشر للشيطان عليهم، وإذا كان يوشع بن نون من الأنبياء والأوصياء فلا سلطان للشيطان عليه.

إذن فما هو دور الشيطان في وقوع النسيان من يوشع بن نون عليه السلام في الآية المباركة؟

الأمر الثالث: ما هو دور الشيطان في حياة الأنبياء؟

في الوقت الذي ينصّ القرآن الكريم على أنّ إبليس لا سلطان له على الأنبياء، ينصّ أيضاً على أنّ له تأثيراً ودوراً في حياة الأنبياء، كما في قوله تعالى في قصّة آدم: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾(١)، وفي آيه أخرى قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾(٢)، وفي آية ثالثة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾(٣).

وقال تعالى في قصّة أيوب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى ربّه أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(٤).

---

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) الأعراف: ٢٠ _ ٢٢.

(٣) الأعراف: ٢٧.

(٤) سورة ص: ٤١.

كما قال تعالى في قصّة يوسف عليه السلام مع أخوته: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾[1].

وقال تعالى أيضاً في قصّة موسى عليه السلام مع القبطي المتقدّمة الذكر: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[2].

وفي الآية التي هي محلّ البحث قال تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[3].

كما خاطب الله تعالى نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[4].

ونرى أيضاً أنّ القرآن الكريم يثبت دوراً وتأثيراً للشيطان في طموحات الأنبياء وأمانيهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[5].

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ

---

(١) يوسف: ١٠٠.

(٢) القصص: ١٥.

(٣) الكهف: ٦٣.

(٤) الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٥) الحج: ٥٢ ـ ٥٣.

بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

هذه بعض الآثار والأدوار الواقعة أو التي يمكن أن تقع ضمن مسيرة الأنبياء وحياتهم الرسالية في أوساطهم الاجتماعية، وهي التي نصّ عليها القرآن الكريم.

وقبل الخوض في التعرّف على طبيعة ذلك الدور الشيطاني، لابدّ أن نلتفت إلى أنّ الحوارات التي يقوم بها الشيطان ومحاولة التأثير من أجل كسب المواقف والوصول إلى هدفه المنشود يختلف ويتنوّع بتنوّع واختلاف المخاطبين، فخطاب الشيطان مع الله تعالى للوصول إلى هدفه يختلف عن الخطاب مع الأنبياء ومحاولة التأثير على مسيرتهم، في الوقت الذي يختلف ذلك أيضاً عن الأدوار الشيطانية في حياة المؤمنين، ويتّضح الفارق أكثر في تعامل الشيطان مع الطوائف والفرق المنحرفة، كالكافرين والمنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم.

أساليب الحوار الشيطاني مع المخاطبين

ولكي تتّضح أنماط وأشكال تعامل الشيطان مع المخاطبين نجملها ضمن الشواهد القرآنية التالية:

الأسلوب الأول: الخطاب والحوار الشيطاني مع الله عزّ وجلّ

عندما نطالع الآيات القرآنية نجد أنّ للشيطان حواراً واسعاً وعريضاً

---

(١) المجادلة: ١٠.

مع الله تعالى، وتبيّن الآيات المباركة أيضاً أن الشيطان يستهدف في خطابه مع الله عزّ وجلّ الوصول إلى بعض الأطماع التي يراها بزعمه متناسبة مع صراط تكامله ورقيّه، والآيات الكريمة تؤكّد أيضاً على أن الشيطان أعطي بعض ما أراده وطلبه من الله تعالى في أثناء حواره، وهذا لا يعني أن للشيطان حقّا أو تأثيراً على الله تعالى في نيل مآربه الفاسدة، ولكن الله تعالى أعطاه بحسب ما يتناسب مع عدله وجوده وكرمه وحكمته، فإنّ الله تعالى يعطي لكلّ موجود ما أراد بحسب استعداده وقابليّته، قال تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[2]. وهذا يعني أنَّ الله تعالى يعطي بكرمه وعدله وجوده وحكمته كلّ موجود بحسبه، فمن يريد اليسرى فلليسرى ومن يريد العسرى فإليها.

إذن يعطي الله تعالى لكلّ مخلوق ما يريد بحسب استعداده، وحيث إن الشيطان بيّن إرادته في ضمن حواره مع الله تعالى، وكان مستعداً وقابلاً لما أراد، أعطاه الله تعالى ما يريده وهو الخلود في دار الدنيا، للوقوف أمام تكامل الإنسان الذي فضلّه الله تعالى عليه.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ *

---

(١) الإسراء: ٢٠.

(٢) الليل: ١٠.

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(١).

وفي حوار آخر جاء فيه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(٢).

إنّ هذا الحوار الإلهي المفصّل مع إبليس وإعطائه ما أراد بما يوافق قابلياته واستعداده، لا يعني أنّ الله تعالى خضع لرغبات إبليس وتأثيره، فإنّ الله تبارك وتعالى منزّه عن مثل هذه النقائص الخاصّة بعالم التأثير والتأثّر وهو عالم الدنيا؛ وإنما حقيقة الأمر أنّ إبليس بسجيّته الخبيثة طلب من الله تعالى باختياره ما ينسجم مع سجاياه، فأعطاه ما أراد وفقاً لجوده وكرمه وحكمته، ولكن مع ذلك حدّد دوره وتأثيره بالغاوين على مستوى الوسوسة والإيحاء فحسب.

الأسلوب الثاني: الخطاب والحوار الشيطاني مع المخلصين عليهم السلام

إنّ الآيات المتقدّمة نصّت على أنّ الشيطان لا سلطان له على ثلّة من عباد الله المخلصين.

(١) الأعراف: ١٢ ـ ١٦.

(٢) الحجر: ٣٢ ـ ٤٢.

حيث قال تعالى مخاطباً إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1]، وقد بيّنت الآيات القرآنية أيضاً أنَّ سلطان الشيطان على البشر يرتكز على ثلاثة أسس:

الأسس الثلاث لسلطان الشيطان

الأول: الوسوسة والمناجاة الخفيّة من إبليس للبشر، المتمثّلة بالوعد والتخويف والتزيين والنزغ وإيقاع العداوة والبغضاء والصدّ عن السبيل والأمر بالفواحش والرذائل، وغيرها من سبل الشيطان في الوسوسة.

الثاني: الاتباع والتأثّر بذلك التزيين والوسوسة.

الثالث: أن يكون اتباعاً وتأثّراً على سبيل الضلالة والغواية والانحراف عن الصراط المستقيم.

إذن كل إنسان يوسوس له الشيطان في واقعة، فيتّبعه اتباع غواية وضلال فإنَّ للشيطان حينئذٍ سلطاناً عليه، حيث أخرجه عن صراط الحقّ في تلك الواقعة، ولكن باختيار الشخص وسوء إرادته.

هذه هي حدود وأبعاد سلطان الشيطان على البشر، وقد عصم الله تعالى عباده المخلصين عن التأثّر بوساوس إبليس، فلا يتّبعونه على الإنحراف عن الصراط أبداً، سواء على مستوى الذنب والمعصية أم على

---

(١) الحجر: ٤٢.

مستوى الخطأ والسهو والنسيان وكلّ ما يوجب الإخفاق عن إصابة صراط الحقّ والواقع بتأثير الشيطان ووسوسته.

إذن فما هو دور إبليس وتأثيره في حياة عباد الله المخلصين؟

والجواب على ذلك:

إنّ الشيطان بعد أن علم أنّ عباد الله المخلصين لا يحيدون عن صراط الحقّ، ويئس عن اتّباعهم له في طريق الضلال والغواية، حاول أن يؤذيهم ويشاكسهم في مجالات أخرى خارجة عن إطار سلطانه، ولا تتقاطع مع عصمة المخلصين عن الوقوع في حبائل الشيطان.

الأدوار الشيطانية في حياة المخلصين

ويمكننا أن نجمل تلك المجالات والأدوار الشيطانية في حياة المخلصين ضمن العناوين التالية:-

الدور الأول: دائرة ترك الأولى الإرشادي

لقد تقدّم بيان هذا الدور الشيطاني في حياة الأنبياء في قصّة آدم عليه السلام بنحو من التفصيل، وقلنا إنّه خارج عن سلطان الشيطان الذي يتنافى مع عصمة الأنبياء المطلقة، وقد أسلفنا القول بأنّ النهي الإلهي المتوجّه إلى آدم عليه السلام بعدم الأكل من الشجرة كان نهياً على سبيل النصح والإرشاد، ولا ينافي مخالفته العصمة المصطلحة للأنبياء؛ لأنّ ترك الأولى الإرشادي لا يعني الخروج عن واقع الصراط المستقيم المطابق للحقيقية بكلّ

أبعادها، بل الأولى وغير الأولى كلاهما مطابقان للواقع الصحيح، نعم الأولى يتناسب مع مقام النبيّ التارك له، ولا يتناسب غير الأولى مع مقامه، وإن لم يكن تركه زيغاً بحسب موازين العصمة المطلقة.

وقد جاء إبليس لآدم عليه السلام وهو يعلم أنه لا سلطان عليه في إضلاله عن طريق الحقّ، فواجهه مواجهة مباشرة وعرض بضاعته على سبيل النصح والإرشاد، فأصبح أمام آدم عليه السلام طريقان مباحان: أحدهما: ترك الأكل من الشجرة، وهو ما نصحه الله تعالى به، والآخر الأكل منها، وهو ما نصحه به إبليس، فاختار آدم الأكل الذي لا محذور فيه إلا ترك الأولى، ولم يكن في ذلك السبيل الذي اختاره آدم إخفاقاً للواقع لكي يتنافى مع عصمته واصطفائه، فما فيه الاصطفاء والعصمة المطلقة لا مجال لوسوسة الشيطان فيه والتسلّط عليه، وما وسوس به الشيطان لا تأثير له على العصمة الثابتة للأنبياء عليهم السلام؛ فكان للشيطان دور في أن يختار آدم فعلاً مباحاً، وإن كان لا يتناسب مع مقام الخلافة الذي أولاه الله تعالى إيّاه.

ثم إنّ وسوسة الشيطان لآدم عليه السلام وغيره من الأنبياء تختلف عن الوسوسة لسائر البشر من جهة أخرى، وهي أنّهم يرون إبليس حين وسوسته ويسمعون ما يقوله مباشرة، ثم هم يختارون ما يتناسب مع عزمهم وقوّة مقامهم، وهذا يعني أنّ الشيطان لا سلطان له أبداً على الأنبياء؛ وإنما يُبدي النصح بحسب زعمه مشافهة، مع خروجه عن

صدور الأنبياء ونفوسهم، فهو كمن يتكلّم معهم من سائر البشر، وهذا بخلاف تعامله مع غيرهم - كما سيأتي - فإن الناس العاديّون يراهم ولا يرونه، ويخنس في نفوسهم، ويوسوس في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[2]، وهذا هو السلطان الحقيقي للشيطان والذي توعّد به البشر أمام الله تعالى.

وهناك اختلافات أخرى بين سلطان الشيطان على سائر البشر وبين مشاكسته للأنبياء في مقام فعل الأولى أو تركه، كما سيتضح في الأبحاث اللاحقة عند بيان دور الشيطان في حياة سائر البشر.

ونجد أنفسنا ملزمين بالتنبيه على ما تقدّم من أنّ الشيطان لا دور له على نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله حتى في مرتبة الأولى، فالنبي صلى الله عليه وآله منزّه عن ترك الأولى أيضاً.

والحاصل: إنّ الشيطان لا يوسوس في صدور الأنبياء ولا يتسلّط على نفوسهم؛ وإنما يشافههم مجابهةً ويحاول نصحهم كاذباً، ليؤثر في التقليل من عزم بعض الأنبياء ومجاهدتهم الدائبة بفعل ما يناسب مقاماتهم الشريفة. وفي خضمّ هذا الصراع قد يترك بعض الأنبياء ما هو الأولى بمقامه، ويحاسبه الله تعالى لا لسيئة فعلها، بل لأنّ حسنات الأبرار سيّئات

---

(١) الأعراف: ٢٧.

(٢) الناس: ٤ ـ ٥.

المقربين.

الدور الثاني: دائرة ترك الأولى المولوي

والبيان في عدم منافاته للعصمة، وحقيقة دور الشيطان وتأثيره فيه هو البيان الذي ذكرناه في ترك الأولى الإرشادي، والفرق بينهما أنَّ الأمر الإلهي أو النهي فيه ليس على سبيل النصح والإرشاد فقط، وإنما هو صادر من مقام الولاية والسيادة على العبد، إلا أنّه من الأوامر الندبية الاستحبابية التي يباح مخالفتها، وإن كان من ترك الأفضل الذي لا يناسب فعله مقام الأنبياء.

ولو افترضنا أنَّ ترك الأولى بالمعنى المذكور يجوز وقوعه من بعض الأنبياء، فإنه مع ذلك لا يتنافى مع مبدأ العصمة المطلقة؛ لأنه من ترك الأوامر المولوية الندبية المتناسبة مع مقاماتهم وقربهم من الله تعالى، وقد لا تكون أموراً مستحبّة بالنسبة إلى غيرهم، إذ قد يؤمر المقرّبون بما لا يؤمر به الأبرار، فترك تلك الأوامر لا يتناسب مع مقامهم، وهو لا يعني المخالفة لصراط الحقّ الذي أمر به الناس جميعاً.

وقد تقدّمت الإشارة إلى بعض أمثلة هذا الفرض في البحوث السابقة.

الدور الثالث: محاربة الأنبياء في إبلاغ رسالات ربّهم

لقد أعلن الشيطان أهدافه من طلب البقاء والهبوط إلى الأرض، وكانت أهدافه هي الصدّ عن سبيل الله تعالى وصراطه المستقيم واحتناك

وإغواء ذرية آدم وإضلالهم عن طريق الحقّ، ولا شكّ أنّ هذه الأهداف المعلنة تتقاطع وتتناقض مع الدور التبليغي والرسالي الذي بعث به الأنبياء عليهم السلام، حيث بعثوا مبشّرين ومنذرين وهادين إلى سبيل ربّهم، ومن ذلك يتّضح أنّ هناك حرباً يديرها الشيطان وأتباعه لعرقلة حركة الأنبياء في الأمة.

وقد رسمت الآيات القرآنية معالم تلك الحرب ببيانات واضحة:

منها: ما تقدّم في قوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾**(١)، حيث ذكر المفسّرون من الفريقين أنّ المراد بالآية المباركة هو أنّ الله تعالى ما أرسل من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنّى أمراً لصالح الدين والمجتمع، ألقى الشيطان في أمنيّته، بإثارة الشبهات المضلّة وتهييج الظالمين وإغراء المفسدين، ليحاربوه ويجادلوه ويؤذوه ويفسدوا على المؤمنين إيمانهم، فينسخ الله ذلك، ويبطل ما يلقيه الشيطان، ويحكم آياته بإنجاح سعي الأنبياء والرسل وإظهار الحقّ على أيديهم.

ومنها: قوله تعالى في قصّة أيوب عليه السلام: **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾**(٢)، فقد كان للشيطان دور في إغراء قوم

---

(١) الحج: ٥٢ _ ٥٣.

(٢) سورة ص: ٤١.

أيوب عليه السلام بالكفر والإفساد في الأرض، وهذا ما يوجب نزول البلايا والمصائب الكونية، كامتناع السماء من المطر وحصول القحط والجدب والبلاء والطاعون وسائر الأمراض الأخرى، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[1]، فبسبب ذلك الإغراء الشيطاني للناس أصاب أيوب عليه السلام ما أصابه من المرض والبلوى؛ لأنّ أيوب عليه السلام غير مستثنى من الأمراض والبلايا التي تحلّ في مجتمعه، بسبب ذنوبهم وفسادهم وإضلال الشيطان لهم، وبعد أن كان للشيطان دور في بلوى أيوب عليه السلام ومرضه ومرض أسرته وموت أكثرهم وهلاك مواشيه وأمواله، وسوس ثانية لقومه بأن يجتنبوه ويبتعدوا عنه ويطعنوا في نبوّته، قائلين: إنه لو كان نبيّاً لما أصابته تلك البلية من كل جانب، وهكذا أغراهم الشيطان بأن يشتموه ويستهزؤا به، ويستخدموا كافّة الوسائل الإعلامية في إيذائه والطعن بسمعته بين الناس.

وهذه بلية عظيمة واجهها أيوب عليه السلام وصبر عليها، وجازاه الله تعالى على صبره بمعافاته وإرجاع ما افتقده في أيام بلواه.

وكانت هذه من سبل الشيطان في إيذاء الأنبياء والوقوف أمام الحقّ الذي يدعون إليه.

ومنها: قوله تعالى في قصّة يوسف عليه السلام مع أخوته: **﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾**[2].

---

(١) الروم: ٤١.

(٢) يوسف: ١٠٠.

فإنَّ النزغ هو الدخول في أمر لإفساده، وبوسوسة الشيطان لأخوة يوسف من أجل إيذائه أفسد الأمر بينهم، فألقوه في الجبّ وابتاعوه كالعبيد وفارق أبويه وتعرّض لابتلاءات عظيمة وساقوه إلى السجن ولبث فيه بضع سنين، ولكنّ الله تعالى أنجاه بلطفه وإحسانه من الهلاك ورفع ذكره من حيث ما ابتلي.

والآيات في هذا المجال كثيرة، كلّها تشير إلى أنَّ الشيطان يعمل جاهداً لإيذاء الأنبياء عليهم السلام في أبدانهم وأهلهم وإفساد قومهم وإضلالهم وحثّهم على محاربتهم وتشريدهم والاستهزاء بهم والافتراء عليهم وقتلهم، ليقف الشيطان بذلك حائلاً أمام مدد السماء لهداية البشر، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾[١].

الأسلوب الثالث: الخطاب والحوار الشيطاني مع عامة الناس

يتمثّل الحوار الشيطاني مع سائر الناس بمحاولة إضلالهم وإيقاعهم في الفساد وإخراجهم عن سبل الحقّ والهداية.

والآيات في هذا المجال كثيرة جدّاً، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾[٢]، وهذا سلطان من الشيطان، ولكن من دون اتّباع وتولّ له.

وقد يتّبع بعض الناس خطوات الشيطان فيكون هو وليّه ويدخل في

---

(١) الأنعام: ١٢.

(٢) آل عمران: ١٥٥.

حزبه، فيتنزّل عليه الشيطان في كلّ حين، ويوحي إليه ما يريد ويسخّره لإيذاء الآخرين فيكون شيطاناً من شياطين الإنس.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[1].

إذن قد يكون للشيطان سلطان على سائر البشر فيستزلّهم عن الصراط، ولكن من دون أن يتولّونه أو يدخلون في حزبه، وهذا ما قد يقع فيه أكثر المؤمنين.

وقد يكون للشيطان سلطان على الإنسان بأن يدخل تحت ولايته وحزبه، ويكون قريناً له، ويستحوذ عليه، ويأخذ بمجامع قلبه وروحه فيكون من الغاوين الضالّين، فيتنزّل عليه الشيطان في كلّ حين، ويوحي إليه سبل الضلال، ليضلّ بها الآخرين.

خلاصة الكلام في هذا الأمر:

إنّ الحوار أو التأثير الشيطاني على ثلاثة أنحاء أساسية:

١- الحوار مع الله تعالى والاستجابة الإلهية لذلك، وهو لا يتنافى مع الكمال اللامتناهي لله عزّ وجلّ.

٢- الحوار مع الأنبياء والتأثير عليهم، وهو لا يتنافى مع العصمة المطلقة الثابتة لهم.

٣- الحوار مع سائر الناس والتأثير والتسلّط عليهم، وهذا النحو من

---

(١) الأنعام: ١٢١.

التأثير والتسلّط هو الذي يتنافى مع العصمة المطلقة للأنبياء، وهو الذي استثنى الله تعالى منه عباده المخلصين.

هذا تمام الكلام في الأمر الثالث، وهو تحديد مركز وحقيقة تأثير الشيطان في حياة الأنبياء وفرقه عن تأثيره وسلطانه في حياة سائر البشر من المؤمنين وغيرهم.

الأمر الرابع: حقيقة النسيان في الآية المباركة

إنّ النسيان الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ المقصود منه هو الترك عن قصد والتفات، وليس المراد منه الترك عن غفلة وذهول، ومتعلّق الترك هو ذكر وبيان ما جرى على الحوت لموسى عليه السلام، فقوله: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ ليس المراد من الذكر ما يقابل الغفلة والذهول، وإنما المراد ذكر الشيء وإلقاؤه على السامع وبيانه له، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾(1).

ومحصّل معنى الآية:

إنّ يوشع بن نون لمّا وضع الحوت على الصخرة وأخذ طريقه في البحر عجباً ترك ذكر ذلك لموسى عليه السلام عن قصد والتفات، وكان الأولى والأصلح بيوشع عليه السلام أن يبيّن ما رآه لموسى عليه السلام؛ لأنّ ما جرى على الحوت كان هو العلامة على مكان العبد الصالح الذي خرجا للبحث عنه، وإعراض يوشع عن بيان هذه الحقيقة وذكرها لموسى عليه السلام، أدّى

---

(1) محمد: ٢٠.

بهما إلى أن يسيرا مسافة طويلة وشاقّة في الطريق حتّى تعبا ومسّهما الجوع والنصب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾(١)، ولو أعلمه بما حصل لما وقعا في التعب والنصب، ولعلم موسى مكان العبد الصالح، ولذا قال موسى عليه السلام بعد أن أعلمه يوشع بالأمر: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾(٢).

إذن كان الأولى بيوشع أن يخبر موسى بما جرى على الحوت، وقد ترك يوشع ذلك الأولى، وهو من ترك الأصلح الإرشادي لا المولوي؛ لأنه لا يوجد أمر مولوي متوجّه إلى يوشع باستحباب إخبار موسى عليه السلام بما جرى على الحوت.

نعم كان ذلك تركاً للأولى الإرشادي بتأثير من الشيطان، نظير ما تقدّم من تأثير الشيطان على آدم عليه السلام في الأكل من الشجرة، وهو كما أوضحناه هناك مفصّلاً لا يتنافى مع عصمة الأنبياء المطلقة، التي أثبتناها بمحكم الآيات ومتواتر الروايات وصريح أقوال العلماء.

وقد كان يوشع عليه السلام ملتفتاً إلى تأثير الشيطان في ترك الأولى، كما كان آدم عليه السلام كذلك، وقد ذكرنا أن هذا ليس من السلطان الذي توعّد به الشيطان على سائر البشر، وإنّما هي مشاكسة مباشرة في إطار الأولى الإرشادي، ولا منافاة بينه وبين عصمة يوشع المطلقة بما هو نبيّ ووصيّ من الأوصياء.

---

(١) الكهف: ٦٢.

(٢) الكهف: ٦٤.

والحاصل: إنّ الآية المباركة ليست في معرض بيان النسيان عن غفلة لكي تنافي العصمة المطلقة للأنبياء، وكان دور الشيطان بالنسبة إلى يوشع إنّما هو في تركه للأولى الإرشادي، ودوره بالنسبة إلى موسى عليه السلام هو أن يصيبه بالنصب والتعب كما أصاب أيّوب عليه السلام بذلك.

الآية الرابعة: نسيان موسى عليه السلام

قال موسى عليه السلام للخضر عليه السلام: ﴿**لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**﴾[(١)]، يتراوح معنى النسيان المذكور في الآية المباركة ويدور بين احتمالين أساسيّين:

الاحتمال الأول: أن يكون موسى عليه السلام قد غفل وذهل عن العهد الذي قطعه عليه العالم الذي رافقه وهو الخضر عليه السلام، عندما قال له: ﴿**فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾[(٢)]، فيكون النسيان بناءً على هذا المعنى هو ترك العهد عن غفلة وذهول.

وقد تمسّك بهذا الاحتمال للآية المباركة القائلون بجواز الغفلة على الأنبياء.

الاحتمال الثاني: أن يكون موسى عليه السلام قد ترك عن عمد والتفات ما افترضه عليه الخضر عليه السلام من العهد بعدم المبادرة إلى السؤال عمّا يفعله أثناء سفرهم، وعلى هذا الاحتمال ـ كما هو واضح ـ لا تكون الآية نافية لعصمة الأنبياء المطلقة.

---

(١) الكهف: ٧٣.

(٢) الكهف: ٧٣.

الجواب:

إذا اتضح هذان الاحتمالان في الآية المباركة لمعنى النسيان، فلابدّ أن يُعلم ـ بناءً على ما تقدّم ـ أن كلا المعنيين المحتملين من المعاني الحقيقية للفظ النسيان، فإنّ النسيان المأخوذ في معناه الترك تارة يكون الترك فيه عن غفلة وذهول، وأخرى يكون الترك فيه عن قصد والتفات، وحينئذٍ فتعيين كل واحد من الاحتمالين وترجيحه على الآخر في فهم الآية بحاجة إلى قرائن وشواهد تعيّنه وترجّحه على صاحبه، والشواهد القرآنية تشير إلى ترجيح الاحتمال الثاني على الأول، وإليك فيما يلي بعض تلك الشواهد:

١ـ إنّ أحد معاني المتشابه في القرآن الكريم هو أن تتضمّن الآية المتشابهة جملة من الاحتمالات، ويترجّح أحد تلك الاحتمالات بعطف الآية المتشابهة على الآيات المحكمة، فيؤخذ بما ينسجم مع المحكمات وتترك الاحتمالات التي تتقاطع مع مضمونها.

وإذا أردنا تطبيق هذه الضابطة في المقام، نجد أنّ الاحتمال الأول يتنافى مع ما تقدّم من الآيات المحكمة التي تنصّ على العصمة المطلقة للأنبياء، وتنزيههم عن كل ما يجانب الواقع وصراط الحقّ المستقيم، وإن كان عن غفلة ونسيان، وهذا بخلاف المعنى الثاني الذي لا يتضمّن إلا ترك الفعل عن قصد، وسيتّضح أنّ اعتراض موسى عليه السلام وتركه العهد عن التفات كان متناسباً مع مقامه وليس فيه أيّ محذور، بل ولا هو من ترك الأولى أصلاً.

٢- بعد أن خرق الخضر عليه السلام السفينة واعترض عليه موسى عليه السلام قائلا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[(١)] أجابه الخضر قائلاً: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[(٢)]، ومن الواضح أن عدم الصبر على الشيء لا ينسجم مع الغفلة عنه، فلا يقال لمن يترك الشيء عن غفلة: لماذا لم نصبر على الالتزام به؛ إذ الصبر إنما يكون على الفعل القصدي، ولا ينسجم الأمر بالصبر على الفعل إذا كان الفعل مغفولاً عن الإتيان به.

أضف إلى هذا البيان: أنّ موسى عليه السلام كان معاتباً ومؤاخذاً على تركه العهد حتى بعد أن أبدى اعتذاره، ولذا قال له الخضر عليه السلام عندما قرّر أن يفارقه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[(٣)]، وكان من ضمنها خرق السفينة الذي اعترض عليه موسى عليه السلام، ولو كان موسى غافلاً عن العهد حين اعترض على خرق السفينة لم يجز مؤاخذته على ذلك لأنه قبيح، ولا يظهر من الآيات أنّ الخضر عليه السلام فعل قبيحاً عندما وجّه عتابه لموسى عليه السلام حينما ترك العهد، وهذا يعني أنّ الترك كان عن قصد وعمد والتفات.

وأما قول موسى عليه السلام: ﴿لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ فهو لا يعني أنّ موسى عليه السلام يريد أن يتمسّك بقاعدة قبح مؤاخذة الناسي، وإلا لما جاز للخضر أن يقول في آخر المطاف: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

---

(١) الكهف: ٧٢.

(٢) الكهف: ٧٢.

(٣) الكهف: ٧٨.

وإنما كان المفروض عليه أن يقول: سأنبّئك بما غفلت عنه وبما لم تستطع عليه صبراً، وحيث إنّ الخضر عليه السلام كرّر لسان اللوم والمؤاخذة على اعتراض موسى عليه السلام، فإنه يفهم من ذلك أنّ موسى عليه السلام لا يريد التمسّك بقاعدة قبح مؤاخذة الناسي، وإنما يريد أن يتمسّك بأمر آخر، كما سيتضح من الشاهد اللاحق.

٣ـ يتضمّن هذا الشاهد جهات متعدّدة تدلّ بمجموعها على أنّ موسى عليه السلام لم يكن غافلاً عن العهد عندما خالفه ولم يلتزم بمضمونه:

الجهة الأولى: العلم الخاص

إنّ الآيات الواردة في سياق هذه القصّة تؤكّد على أنّ الله تعالى اختصّ العبد الصالح وهو الخضر عليه السلام برحمة خاصّة وعلوم إلهية لدنّية، قال تعالى: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾[(١)].

وهذه العلوم الإلهيّة الخاصّة تختلف في طبيعتها وحقيقتها عن علوم النبوّات، التي كان موسى واقفاً عليها ويعلمها بمقتضى كونه نبيّاً مرسلاً حين سفره، كما هو صريح روايات الفريقين، ولأجل التغاير الماهوي بين طبيعة العلمين خرج موسى النبيّ المرسل مع فتاه للبحث عن ذلك العبد العالم؛ لكي يتزوّد من علومه اللدنّية الخاصّة، ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾[(٢)].

---

(١) الكهف: ٦٥.

(٢) الكهف: ٦٦.

الجهة الثانية: عدم اطلاع موسى على ذلك العلم

لمّا لم يكن موسى عليه السلام خبيراً ولا متمرّساً في كيفية تأثير تلك العلوم اللدنّية في إدارة الحياة وحفظ النظام الكوني قال له الخضر عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾[1]، ولكن موسى عليه السلام خرج وقطع المسافات في سفره الشاق، ولا يريد أن يعود من دون التعرّف على طبيعة تلك العلوم الشريفة؛ ولذلك أصرّ على أن يسير بصحبة العالم في سفره قائلاً: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾[2]، ولما وجد الخضر عليه السلام أنّ موسى عازماً على متابعته في سفره، ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[3]. وقَبِل موسى عليه السلام بذلك العهد وسارا متصاحبين.

الجهة الثالثة: لم يغفل موسى عن العهد

موسى عليه السلام لمّا لم يكن خبيراً ولا مطّلعاً على مقتضيات ذلك العلم الخاص في إدارة الحياة ونظام الكون، ولم يأت في حسبانه أنّ ذلك العلم قد يقتضي طريقة من التعامل مع مجريات الأمور تخالف بحسب ظاهرها صريح الأحكام الشرعية التي نشأ عليها موسى عليه السلام وبعث بها إلى الناس، وحينئذٍ لا يكون موسى قد تعهّد ضمناً بالسكوت على ما

---

(١) الكهف: ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) الكهف: ٦٩.

(٣) الكهف: ٧٠.

يراه مخالفاً لأحكام الشريعة وحقائق الدين، نظير قتل النفس البريئة بغير حقّ، أو الاعتداء على أموال الناس وتعريض حياتهم للخطر والغرق، وتتضح هذه النقطة أكثر إذا علمنا أنّ موسى عليه السلام كان مكلّفاً من الله تعالى بتطبيق الأحكام الشرعيّة التي بعث بها إلى الناس والأمر بالمعروف والنهي عمّا يراه منكراً بحسب الموازين الشرعية.

نتيجة الجهات الثلاث:

إنّ موسى عليه السلام لمّا وجد أنّ الخضر عليه السلام يريد التجاوز بحسب الظاهر على الأموال الخاصّة للآخرين بغير حقّ؛ وذلك عن طريق خرق السفينة وتعريض حياة ركّابها إلى مخاطر الغرق، لم يجد نفسه ملزماً حينئذ بالسكوت وعدم الاعتراض، فبادر إلى الاعتراض قائلاً: ﴿**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾(1)، فأهمل العهد عملاً بوظيفته الشرعية، مبادراً إلى الردع عمّا ظاهره المنكر، فانشغل موسى عليه السلام بالأهم، وهو الردع عن إتلاف حياة الآخرين بغير حقّ، وأعرض عمّا هو مهم فقط بحسب نظره وعلمه، وهو العهد بالسكوت، وقد كرّر موسى عليه السلام الاعتراض ذاته في الوقائع الأخرى عندما رآه مخالفًا بظاهره للأحكام الشرعية.

إذن موسى عليه السلام لم يغفل عن العهد، بل تركه وأهمله عندما وجد نفسه مكلّفاً بما هو أهم، وسكت موسى عليه السلام عندما علم أنّ في الموضوع حكمة تقتضي خرق السفينة سيُعلمه بها العالم فيما بعد؛ ولذا لم يقل

---

(1) الكهف: 71.

موسى عليه السلام: لا تؤاخذني بنسياني، وإنّما قال: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: لا تؤاخذني بتركي العهد في المورد الذي كان يجب عليّ تركه بحسب وظيفتي الشرعية، ولم يقصد موسى عليه السلام باعتذاره أن يتمسّك بقاعدة عدم مؤاخذة الناسي الغافل، وإنما تمسّك بقاعدة تقديم الأهم بحسب الظاهر وترك المهم، وهو من الترك عن قصد والتفات.

والحاصل: إن موسى عليه السلام ترك العهد عملاً بموازين شريعته التي تحاسب على الظاهر، وتوكل النوايا وبواطن الأفعال إلى الله تعالى، ولم يكن فعله من ترك الأولى؛ لأنه لو لم يبادر إلى الدفاع عن حياة الآخرين وحقوقهم لما كان أهلاً لتحمّل رسالة السماء التي تتضمّن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولعلّ ذلك هو السبب في خلوّ الآيات المباركة عن أيّ دور للشيطان في نسيان موسى عليه السلام وتركه للعهد عالماً عامداً، لأن دور الشيطان في حياة الأنبياء ـ كما تقدّم ـ يقتصر على التأثير بتركهم الأولى أو بوضع العراقيل الخارجية التي تقف أمام نشر رسالات الله تعالى إلى خلقه، وكلا هذين الأمرين مفقود في قصّة ترك موسى عليه السلام للعهد.

أخرج الطبري وابن كثير في تفسيريهما عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ**﴾ «أي: ما تركت من عهدك»[1].

وأخرج ابن الجوزي عن ابن الأنباري: «أنّ النسيان في الآية المباركة

---

(١) الطبري، جامع البيان: ج ١٥ ص ٣٤٧، ط ١٤١، نشر دار الفكر بيروت. ابن كثير، تفسير القران العظيم: ج ٣ ص١٠٠، ط ١٤١٢، دار المعرفة- بيروت.

بمعنى الترك، فالمعنى لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه»(١).

وقال الواحدي في الوجيز: «﴿لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: تركت من وصيتك»(٢).

وقال الشوكاني في فتح القدير: «فالنسيان: إما على حقيقته، على تقدير أنّ موسى نسي ذلك، أو بمعنى الترك على تقدير أنّه لم ينس ما قاله ولكنه ترك العمل به»(٣).

وقد ذكرنا أنّ هذا المعنى الثاني هو المقصود من الآية المباركة، وهو مذهب الشيعة الإمامية تبعاً لروايات المعصومين من أهل البيت عليهم السلام. فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في حديث طويل في شرح قصّة موسى مع الخضر (عليهما السلام)، جاء في ضمنه قوله عليه السلام: «قال موسى عليه السلام: ﴿لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بما تركت من أمرك»(٤).

آيات نسيان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بالخصوص

الآية الأولى: إنساء الشيطان

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٥).

---

(١) انظر ابن الجوزي، زاد المسير: ج ٥ ص١٢٠، ط ١ـ ١٤٠٧ـ دار الفكر ـ بيروت.
(٢) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ص٦٦٨.
(٣) الشوكاني، فتح القدير: ج٣ ص٣٠٢، عالم الكتب.
(٤) الصدوق، علل الشرائع: ج١ ص ٧٨ ط ٢، مؤسسة دار الحجّة للثقافة.
(٥) الأنعام: ٦٨.

حاول الجاحدون لعصمة الأنبياء المطلقة، والقائلون بجواز الغفلة والنسيان في أفعالهم أن يتمسّكوا بهذه الآية المباركة، حيث افترضوا أنّ الآية دالّة على إمكانية وقوع النسيان عن غفلة من النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، ولذا منعته الآية عن الجلوس مع الظالمين والإعراض عنهم في حال التذكر بعد النسيان.

والأجوبة عن هذا التوهّم متعدّدة، نشير فيما يلي إلى أهمّها:

الجواب الأول: خطاب الآية عامّ وواقع في سياق النفي

إنّ الخطاب الوارد في الآية الكريمة خطاب عام واقع في سياق القضية الشرطية، قال الشوكاني في معرض تفسيره للآية: «(إمّا) هذه شرطية وتلزمها غالباً نون التوكيد ولا تلزمها نادراً، والمعنى: إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم، فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت مع القوم الظالمين»(١).

ولا شك أنّ توجيه الخطاب المذكور بنحو القضية الشرطية إلى سائر الناس من غير المعصومين لا إشكال فيه؛ وذلك لكثرة صدور الأفعال منهم عن غفلة ونسيان، وأما توجيه ذلك الخطاب بنحو القضية الشرطية إلى ما يشمل المعصوم بالعصمة المطلقة، فهو مما لا إشكال فيه أيضاً؛ إذ سبق وأن ذكرنا إنّ القضايا الشرطية لا تدل إلا على الملازمة بين الشرط والجزاء أو توقف أحدهما على الآخر، كما تقدّم نظير هذا الكلام في

---

(١) الشوكاني، فتح القدير: ج٢ ص١٢٨، عالم الكتب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(٢)، فإنّ النبيّ الأكرم ﷺ مع كونه منزّهاً ومعصوماً عن النسيان في الأحكام الشرعية، ومعصوماً أيضاً عن اتباع أهواء الكافرين والتقوّل على الله بما لم ينزل به سلطاناً، مع ذلك كلّه خاطبه الله تعالى وأمره ونهاه بقضايا شرطية لا تكشف عن وقوع المنهيّ عنه أو المأمور به في الخارج، بل ولا تدلّ أيضاً على إمكان الوقوع في الخارج، وإنّما صدرت هذه الكيفية من الأوامر والنواهي لدواع تربوية، ولبيان مدخلية الاختيار في فعل المعصوم، وأنّ العصمة والاصطفاء الإلهي لا يتنافى مع الاختيار، ولا يوجب استحالة ترك الواجب أو فعل المنهيّ عنه وصدوره من المعصوم؛ لأنّ ركيزة العصمة المطلقة هي العلم الخاص، وهو مبدأ الإرادة والاختيار، فلا يعقل أن يتنافى معهما أو يوجب سلبهما.

ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣)، ففي الوقت الذي تثبت فيه الآية العصمة المطلقة للأنبياء تؤكّد على أن ذلك بنحو الاختيار، وأن بإمكانهم

---

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) الحاقّة: ٤٤ـ٤٥.

(٣) الأنعام: ٨٧ـ ٨٨.

أن يشركوا، ولكنه لا يقع منهم خارجاً بإجماع المسلمين على عصمة الأنبياء عن الكفر والشرك، ومع ذلك صحّ استعمال القضية الشرطية في حقّهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

الجواب الثاني: المقصود بالآية سائر الناس

لو افترضنا أنّ الآية دالّة على الإمكان الوقوعي وهو جواز الجلوس مع الظالمين عن غفلة وذهول، وافترضنا أيضاً أنّ الخطاب في الآية المباركة متوجّه إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فيه بالخصوص، مع ذلك كلّه نقول: إنّ المراد الجدّي والمقصود الحقيقي هم سائر المسلمين من أمّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله؛ وذلك للشواهد التالية:

الشاهد الأول: إنّ مورد النسيان في الآية الكريمة هو مخالفة ونسيان حكم إلهي شرعي، وقد أجمع المسلمون على أنّ قول النبي صلى الله عليه وآله وفعله وتقريره حجّة، وكيف يكون كذلك إذا خالطه السهو والنسيان؟!

قال العلامة الزرقاني في شرح المواهب اللدنّية، عند استعراضه لمناقب النبي صلى الله عليه وآله: «ومنها: أنه معصوم من الذنوب بعد النبوّة وقبلها، كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها على الأصح، في ظاهره وباطنه، سرّه وجهره، جدّه ومزحه، رضاه وغضبه، كيف، وقد أجمع الصحب على اتّباعه والتأسّي به في كلّ ما يفعله، وكذلك الأنبياء» (١).

وتقدّم من الآيات والروايات والأقوال ما يدل على نفي هذا النوع من

(١) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية بشرح الزرقاني: ج٧ ص٣٢٧ـ ٣٢٨، ط ١، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

النسيان.

الشاهد الثاني: توجيه الخطاب في الآية اللاحقة إلى المتّقين من الأمّة، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١)، وهذه الآية تتمّة واستثناء من الآية السابقة، وبيان لجواز الخوض إذا كان لأجل التذكير بالحقّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أخرج الطبرسي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله: «لما نزلت ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، قال المسلمون: كيف نصنع إن كان كلّما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم، فلا ندخل إذاً المسجد الحرام، ولا نطوف بالبيت الحرام؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، أمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا»(٢).

وقريب من هذا المعنى ما أخرجه القرطبي في تفسيره عن ابن عباس(٣).

الشاهد الثالث: إنّ النسيان الوارد في الآية المباركة هو الوقوع في الغفلة والذهول بتأثير الشيطان وسلطانه، وقد تقدّم مفصّلاً أنّ الشيطان لا سلطان له على عباد الله المخلصين فضلاً عن سيّدهم وخاتمهم نبيّنا الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله، وهو القائل: «ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه

---

(١) الأنعام: ٦٩.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ج٤ ص٨٠ ط ١ ـ ١٤١٥، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج٧ ص١٥. ط ـ ١٤٠٥، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت.

من الجنّ، قالوا: وإيّاك يا رسول الله! قال: وإياي، إلا أنّ الله أعانني عليه، فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»(١).

وقد تقدّم عن القاضي عياض قوله: «واعلم أنّ الأمّة مجتمعة على عصمة النبي صلى الله عليه وآله من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى ولا على خاطره بالوسواس»(٢).

وسبق أيضاً الاستدلال على تنزّه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عن ترك الأولى، فلا يبقى للشيطان أيّ دور في حياة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

الشاهد الرابع: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾(٣)، والمراد بالحكم الذي نزّل في الكتاب في هذه الآية المدنية من سورة النساء هو ما ورد في الآية التي هي محلّ بحثنا من سورة الأنعام، وهي مكيّة. ولا توجد آية غيرها تنصّ على هذا الحكم، وهذا ما يدلّ بوضوح على أنّ الحكم النازل سابقًا في الآية المكية من سورة الأنعام كان موجّهاً إلى المؤمنين، وتوجيه الخطاب إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يجري مجرى قولهم: إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

والحاصل: إنّ الخطاب في الآية المباركة لو كان المراد به جواز

---

(١) مسلم، صحيح مسلم: ج ٤ ص ٢١٦٧ـ ٢١٦٨، ط ١ـ دار الفكر ـ بيروت.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج ٢ ص١١٧، طبعة ١٤٠٩، دار الفكر ـ بيروت.

(٣) النساء: ١٤٠

النسيان عن غفلة، فلا يمكن أن يكون المخاطب هو النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لأجل الشواهد الأربعة المتقدّمة، ومع ذلك فإن الخطاب وإن كان متوجّهاً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله إلا أن المقصود والمراد به الأمّة، ولا يخفى ما في ذلك الخطاب من عناية خاصّة بالحكم؛ لأنّ توجيه الحكم إلى المعصوم مع العلم بأنه لا يصدر منه لا يخلو عن إشعار بأهمية ذلك الحكم.

الجواب الثالث: الأقوال في هذا المجال

١- قال ابن كثير في تفسيره: «﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ والمراد بذلك كلّ فرد من آحاد الأمّة أن لا يجلس مع المكذّبين، الذين يحرّفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسياً ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ بعد التذكّر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ولهذا ورد في الحديث: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» ـ إلى أن قال ـ وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، أي: أنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه»[1].

٢- أخرج الطبري عن السدّي قوله في بيان الآية: «كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبيّ صلى الله عليه وآله والقرآن، فسبّوه واستهزأوا به، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره»[2].

---

(١) ابن كثير، تفسير القران العظيم: ج ٢ ص ١٤٩، ط ـ ١٤١٢، دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج ٥ ص٢٢٥، ط ـ ١٤١٥، دار الفكر ـ بيروت.

٣- قال المراغي في تفسيره للآية: «والخطاب للرسول صلى الله عليه وآله والمراد غيره، على حدّ المثل: إياك أعني واسمعي يا جارة»(١).

هذا تمام الكلام في الآية الأولى.

الآية الثانية: واذكر ربّك إذا نسيت

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (٢).

الجواب:

إنّ الجواب الأوّل المتقدّم في الآية السابقة يأتي بتمامه في هذه الآية المباركة؛ وذلك لأنّ الآية الكريمة واقعة في سياق القضية الشرطية والخطاب فيها عامّ، وقلنا إنّ القضايا الشرطية لا تكشف عن وقوع المأمور به في الخارج، ولا على إمكانه الوقوعي، وإنّما تدلّ على الملازمة بين الشرط والجزاء، وتوقّف أحدهما على الآخر فحسب، وصدور هكذا قضايا شرطية يأتي لدواع تربوية للأمّة، ولبيان مدخلية الاختيار في فعل المعصوم.

ويمكن أن يقال أيضاً إنّ الخطاب في الآية المباركة جارٍ مجرى القول القائل: إياك أعني واسمعي يا جارة.

---

(١) المراغي، تفسير المراغي: ج ٣ ص١٣٢، ط ١ ـ ١٤١٨هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) الكهف: ٢٣ـ٢٤.

وكذلك يمكن أن يقال أنّ المراد من النسيان في الآية المباركة هو الترك عن قصد والتفات، كما أنّ المقصود من الذكر هو ذكر الله تعالى باللسان لا الذكر في مقابل الغفلة، ويكون معنى الآية على هذا البيان: إنّ الشخص إذا ترك فعلاً من الأفعال وكان قاصداً لذلك، فليذكر الله تعالى عسى أن يهديه لما هو أفضل وأقرب رشداً، فلا يكون الترك والنسيان متعلّقاً بالمشيئة، بل يكون متعلّقاً بالشيء في الآية الكريمة، وقد يكون الترك عن قصد متعلّقاً بالذكر اللساني لله تعالى أثناء الإتيان بالفعل، والآية المباركة تحثّ على الإتيان بالذكر بعد الترك حال الفعل، كما نصّ على ذلك الطبري في تفسيره لهذه الآية، حيث قال: «معناه: واذكر ربّك إذا تركت ذكره، لأنّ أحد معاني النسيان في كلام العرب الترك»[1].

الآية الثالثة: ولا تنس نصيبك من الدنيا

قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[2].

ليس المقصود في هذه الآية المباركة هو النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ولا أيّ نبيّ من الأنبياء عليهم السلام بل المخاطب هو قارون، كما يدلّ على ذلك سياق الآيات المباركة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ**

---

(١) الطبري، جامع البيان: ج ١٥، ص ٢٨٦.

(٢) القصص: ٧٧.

اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل قوم قارون له: لا تبغ يا قارون على قومك بكثرة مالك، والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة، بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا، وقوله: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، يقول: ولا تترك نصيبك وحظّك من الدنيا، أن تأخذ فيها بنصيبك من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيك غداً من عقاب الله»[٢].

الآية الرابعة: سنقرؤك فلا تنسى

قال تعالى: ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾[٣].

إنّ هذه الآية المباركة صريحة في الإخبار عن نفي النسيان عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله على نحو الاستمرار والدوام؛ لأن كلمة (لا) في قوله تعالى ﴿فَلا تَنسَى﴾ نافية كما هو واضح، ومعنى الآية: إنّ الله تعالى يخبر نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله بأنه لا ينسى الوحي أبداً بعد نزوله على قلبه المبارك وقراءته عليه من قبل جبرئيل عليه السلام، فهذه الآية المباركة تبرز عناية ورحمة إلهيّة خاصّة بالرسول محمّد صلى الله عليه وآله في تلقّيه الوحي من السماء، فلا منافاة بين منطوق هذه الآية الكريمة وبين مضمون العصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام،

---

(١) القصص: ٧٦ـ٧٨.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج ٢٠ ص ١٣٦.

(٣) الأعلى: ٦و٧.

وإنما وقع الكلام في استثناء المشيئة الإلهية في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ﴾، حيث قال المنكرون للعصمة المطلقة: إنّ هذه الآية الكريمة وهذا الاستثناء يدلّ على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ينسى فيما لو شاء الله تعالى ذلك، فلا ضمان من الله تعالى لأنبيائه بعدم وقوع النسيان منهم.

ولكن يُدفع هذا التوهّم بالأجوبة التالية:

الجواب الأول: بيان قدرة الله تعالى المطلقة

إنّ معنى الآية المباركة: سنقرئك فلا تنسى أبداً، بمقتضى الامتنان والعناية الإلهيّة الخاصّة، ولكن الله تعالى على كلّ شيء قدير، فهو مع ذلك قادر على إنسائك ما ينزل عليك من الوحي، فالاستثناء في الآية الكريمة يؤكّد بقاء القدرة الإلهيّة على سعتها وإطلاقها، وأنّ تلك العطيّة الخاصّة وهي الإقراء من دون نسيان لا تعني أنّ الله تعالى ليس قادراً على إنساء نبيّه صلى الله عليه وآله متى شاء، وإن كان الله تعالى بحسب لطفه وعدله وحكمته لا يشاء ذلك، بل يشاء وقوعاً عدم نسيان رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله في تلقّي الوحي دائماً، فهو نظير الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(١).

إذن ليس المراد باستثناء المشيئة هو إخراج بعض أفراد النسيان بحسب الوقوع من عموم النفي في الآية المباركة، وإلا لكان ذلك خلاف

(١) هود: ١٠٨.

الامتنان الخاص الظاهر من لسان الآية الكريمة، فإنّ كلّ إنسان له ذكر وحفظ، يحفظ أشياء وينسى أشياء أخرى، وكلّ ذلك بمشيئة الله تعالى.

قال القرطبي في تفسيره للآية: «ووجه الاستثناء على هذا ما قاله الفرّاء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً، كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ﴾ ولا يشاء» (١).

وبنفس المضمون ما ورد في فتح القدير للشوكاني(٢).

الجواب الثاني: الترك عن قصد والتفات

أن يكون المراد من النسيان المنفي في الآية المباركة هو الترك عن توجّه والتفات، ويكون المعنى حينئذ: سنقرئك الوحي فلا تترك منه شيئاً إلا ما شاء الله تعالى تركه، مما لم يكلّفك القيام بأدائه وتبليغه، بسبب النسخ أو لعدم الحكمة في تبليغه وإيصاله إلى الناس.

قال الفخر الرازي: «الشبهة الخامسة عشر: قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ﴾ والاستثناء يدلّ على جواز النسيان في الوحي.

وجوابه: إنّ النسيان يجيء بمعنى الترك، قال الله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا﴾، ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ فقوله: ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى﴾ أي: فلا تترك منها شيئاً، إلا ما شاء الله وهو المندوب أو المنسوخ»(٣).

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص ١٩.

(٢) الشوكاني، فتح القدير: ج ٥ ص٤٢٤.

(٣) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص١١٣.

الجواب الثالث: إجماع المسلمين على العصمة المطلقة في التبليغ:

إن توهّم دلالة الآية على إمكان النسيان وقوعاً من النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في الوحي يتنافى مع إجماع المسلمين بكل فرقهم على عصمة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله المطلقة في مقام التبليغ من السهو والخطأ والنسيان، وقد تقدّمت الإشارة إلى الأقوال في هذا المجال، قال الفخر الرازي:

«الثاني: ما يتعلّق بجميع الشرائع والأحكام من الله تعالى، وأجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة في هذا الباب، لا بالعمد ولا بالسهو، وإلا لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع»[1].

والحاصل:

١ـ إنّ روايات السهو الآتي ذكرها ليست امتداداً لآيات النسيان، كما أنّ آيات النسيان ليست شاهدة على صدق روايات السهو، ولا تكون روايات السهو بموجبها موافقة للقرآن الكريم.

٢ـ إنّ آيات النسيان لا يتنافى مضمونها مع عصمة الأنبياء المطلقة.

---

(١) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص٧.

الفصل السادس

روايات سهو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

* المبحث الأول: الدراسة السندية لروايات السهو
* المبحث الثاني: الدراسة المضمونية والدلالية لروايات السهو
* المبحث الثالث: الشيخ الصدوق ونظرية الإسهاء الإلهي
* المبحث الرابع: روايات نوم النبي صلى الله عليه وآله عن صلاة الصبح

روايات سهو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

ذكرنا في مقدمة الفصل الخامس أن البحث في روايات السهو سنخصّصه بما ورد في المصادر الشيعية من الروايات، والتي قد توهم للتنافي مع مبدأ العصمة، ولسنا مسؤولين عن التصدّي للبحث في الإسرائيليات التي وضعها اليهود في تراث الطائفة السنية.

وفيما يلي نستعرض أهم الروايات الواردة من طرقنا في سهو النبي صلى الله عليه وآله، مع ذكر الملاحظات السندية والمضمونية، وذلك ضمن المبحثين التاليين:

المبحث الأول: الدراسة السندية لروايات السهو

نحاول في هذا المبحث التركيز على عرض روايات السهو وملاحظة القيمة السندية لكل واحدة منها:

الرواية الأولى: رواية الشيخ الطوسي عن الحضرمي

أخرج الشيخ الطوسي في التهذيب، عن سعد بن عبد الله عن أحمد بن محمد عن الحسين عن فضالة عن سيف بن عميرة عن أبي بكر الحضرمي، قال: صلّيت بأصحابي المغرب، فلما أن صلّيت ركعتين سلّمت، فقال بعضهم: إنما صلّيت ركعتين، فأعدت فأخبرت أبا عبد الله عليه السلام، فقال: **«لعلك أعدت؟ فقلت: نعم، فضحك، ثم قال: إنما كان يجزيك أن تقوم وتركع ركعة، إن رسول الله صلى الله عليه وآله سها فسلّم في ركعتين، ثم ذكر حديث ذي الشمالين،**

فقال: ثم قام فأضاف إليها ركعتين»[١].

المناقشة: قال الشيخ الجليل الحرّ العاملي صاحب كتاب (وسائل الشيعة) في رسالته الموسومة بـ(التنبيه بالمعلوم) بعد أن أورد هذه الرواية:

«فإن في سند الأول سيف بن عميرة، وقد اختلف في توثيقه وتضعيفه، وقد نقل الشهيد في شرح الإرشاد تضعيفه عن جماعة من الأصحاب، وقد نقلوا أيضاً أنه فاسد المذهب واقفي، ومن هذا شأنه كيف يعمل بحديثه فيما يخالف المذهب، وأبو بكر الحضرمي غير معلوم الحال، بل هو مجهول لم يتحقق فيه توثيق ولا مدح يعتدّ به ولا يثبت صحة مذهبه»[٢].

الرواية الثانية: رواية الشيخ الطوسي عن ابن المغيرة

أخرج الشيخ الطوسي في التهذيب أيضاً بسنده، عن سعد عن محمد بن الحسين عن جعفر بن بشير عن الحرث بن المغيرة النصري، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنا صلّينا المغرب فسها الإمام فسلّم في الركعتين فأعدنا الصلاة، فقال: **«ولم أعدتم؟! أليس قد انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله في**

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص١٨٠، ط٤ ـ دار الكتب الإسلامية.

(٢) الحر العاملي، التنبيه بالمعلوم: ص٦٤.

ركعتين فأتم بركعتين؟ ألا أتممتم؟!»[١].

المناقشة: إن طريق الشيخ إلى سعد بن عبد الله في هذه الرواية والرواية الثانية أيضاً ضعيف بمحمد بن قولويه، إذ لم يرد فيه توثيق في كتبنا الرجالية، نعم ورد اسمه في أسناد كامل الزيارات، وهو لا يفيد توثيقاً.

والملاحظ في مضمون هذه الرواية أن السهو لم ينسب فيها إلى النبي صلى الله عليه وآله، وإنما قال عليه السلام: (انصرف رسول الله في ركعتين)، فالاستدلال بهذه الرواية على وقوع السهو من النبي غير تام، لأن الرواية لم تبيّن الملابسات التي انصرف النبي بسببها عن صلاته في ركعتين.

الرواية الثالثة: رواية الكليني عن سعيد الأعرج

أخرج الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن علي بن النعمان عن سعيد الأعرج، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **«صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله ثم سلّم في ركعتين، فسأله سن خلفه يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إنما صلّيت ركعتين، فقال: أكذلك يا ذا اليدين؟ – وكان يدعى ذا الشمالين – فقال نعم، فبنى على صلاته فأتم الصلاة أربعاً، وقال: إن الله هو الذي أنساه رحمة للأمة، ألا ترى لو أن رجلاً صنع هذا لعيّر، وقيل: ما تقبل صلاتك، فمن دخل عليه اليوم ذاك قال: قد سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصارت أسوة، وسجد سجدتين لمكان**

---

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص١٨٠، ط٤ ـ دار الكتب الإسلامية.

الكلام»[١].

المناقشة: إن سعيد الأعرج الواقع في سند هذه الرواية لم يوثّق بهذا العنوان في كتبنا الرجالية، وإن حاول بعض الأعلام أن يثبت اتحاده مع سعيد بن عبد الرحمن الذي وثّقه النجاشي.

ثم إن أحمد بن محمد بن عيسى يروي بالواسطة عن علي بن النعمان في أكثر الأحيان، وربما رويت عنه رواية واحدة عن علي بن النعمان بالواسطة تارة ومن دونها أخرى، وكثيراً ما تكون الواسطة هي الراوي علي بن حديد، وهو ضعيف جدّاً، ولذا فإن روايات أحمد بن محمد بن عيسى عن علي بن النعمان بلا واسطة تكون مضطربة من هذه الناحية، لاحتمال الواسطة الضعيفة أو المجهولة، وهذا ما يضعّف من درجة اعتبار الرواية، خصوصاً إذا كان لها ارتباط بالمعارف، وعلى هذا فإن أصالة عدم الواسطة وإن كان جارياً في المقام، إلا أن هذا لا يمنع من هبوط درجة اعتبار الرواية مع لحاظ ارتباطها بمسألة العصمة، التي هي من أهم المسائل في منظومة العقائد.

الرواية الرابعة: رواية الطوسي عن جميل بن درّاج

أخرج الشيخ الطوسي في التهذيب، عن الحسين بن سعيد عن ابن أبي عمير عن جميل، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل صلّى ركعتين، ثم قام، قال: **«يستقبل، قلت: فما يروي الناس؟ فذكر له حديث ذي**

---

(١) الكليني، الكافي: ج٣ ص٣٥٧، ط٣ ـ دار الكتب الإسلامية.

الشمالين، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبرح من مكانه ولو برح لاستقبل»[(١)].

المناقشة: إن طريق الشيخ إلى الحسين بن سعيد ضعيف بالحسين بن الحسن بن أبان، فإنه لم يرد له توثيق في كتبنا الرجالية، وبأحمد بن محمد بن الحسن بن الوليد، فهو أيضاً لم يوثّق، ولذا قال السيد الخوئي (قدس سره) في ترجمته:«فتحصّل: أنه لم تثبت وثاقة الرجل بوجه»[(٢)]، هذا مضافاً إلى عدم ثبوت وثاقة ابن أبي الجيد القمي الواقع في طريق الشيخ، وإن حاول بعض الأعلام إثبات وثاقته لكونه من مشايخ النجاشي.

ثم إن مضمون هذه الرواية ليس فيه تصريحاً بنسبة السهو إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وكان ذكر حديث ذي الشمالين من قبل الراوي.

الرواية الخامسة: رواية الشيخ الطوسي عن أبي بصير

أخرج الشيخ الطوسي في التهذيب أيضاً، عن الحسين بن سعيد عن فضالة عن الحسين بن عثمان عن سماعة عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: عن رجل صلّى ركعتين ثم قام فذهب في حاجته، قال: **«يستقبل الصلاة، فقلت: ما بال رسول الله صلى الله عليه وآله لم يستقبل حين صلّى ركعتين؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم ينفتل من موضعه»**[(٣)].

---

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٤٥، تحقيق السيد حسن الخرسان، ط٤ ـدار الكتب الإسلامية- قم.

(٢) السيد الخوئي، معجم رجال الحديث: ج٣ ص٤٤، ط٥.

(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٤٦ ـ تحقيق السيد حسن الخرسان ـ دار الكتب

المناقشة: ذكرنا في الرواية السابقة أن طريق الشيخ الطوسي إلى الحسين بن سعيد ضعيف، مضافاً إلى أن النجاشي ذكر في عدّة مواضع أن الحسين بن سعيد لم يلق فضالة ولم يرو عنه بالمباشرة، وأن ما يرويه عن فضالة إنما هو بواسطة أخيه الحسن بن سعيد[1]، والحسن بن سعيد لم يوثّق في كتبنا الرجالية، إلا ما ورد في الفهرست للشيخ الطوسي، حيث قال:«الحسن بن سعيد بن حماد بن سعيد بن مهران الأهوازي، من موالي علي بن الحسين عليه السلام أخو الحسين بن سعيد ثقة»[2].

وقد وقع في تفسير هذه العبارة خلاف واسع بين الرجاليين والفقهاء، فبعضهم أرجع قول الشيخ: (ثقة) إلى الحسين بن سعيد، لأنه الأقرب في العبارة، وبعضهم أرجعه إلى الحسن بن سعيد، لأنه هو المترجم له في العبارة، وهذا يعني أن الحسن بن سعيد وهو الراوي المباشر عن فضالة مختلف في توثيقه، فكيف يمكن الاستناد إلى روايته في التأسيس للعقيدة وبيان معالم العصمة وحدودها؟!

وأما بالنسبة إلى بقيّة رجال السند، فقد قال الفقيه المحدّث الشيخ الحرّ العاملي في رسالته (التنبيه بالمعلوم) في معرض تعليقه على هذه الرواية:

الإسلامية ـ قم.

(١) النجاشي، رجال النجاشي: ص٥٧، تحقيق السيد الزنجاني، ط٥ ـ مؤسسة النشر الإسلامي.

(٢) الطوسي، الفهرست: ص١٠٣ ـ ١٠٤، تحقيق جواد قيّومي، ط١ ـ مؤسسة نشر الفقاهة- قم.

«وحديث أبي بصير فيه ضعف لفساد مذهبه ومذهب جماعة»[١].

ومن جملة الذين أشار إلى فساد مذهبهم في عبارته هو سماعة بن مهران، حيث نصّ الشيخ الصدوق على أنه كان واقفياً في كتابه (من لا يحضره الفقيه) في باب (حكم الصائم يصبح جنباً)، حيث قال بعد أن أورد روايات متعدّدة في الباب المذكور:

«وبهذه الأخبار أفتي، ولا أفتي بالخبر الذي أوجب عليه [أي الصائم] القضاء، لأنه رواية سماعة بن مهران وكان واقفياً»[٢]، وذهب الشيخ إلى ما ذهب إليه الصدوق، حيث قال في رجاله:«سماعة بن مهران، مولى حضرموت، ويقال: مولى خولان، كوفي له كتاب روى عن أبي عبد الله عليه السلام، واقفي»[٣].

ولأجل ذلك أورد العلامة وابن داود سماعة بن مهران فيمن لا يعتمد على روايتهم، أي في القسم الثاني من الرواة[٤].

وهذه الرواية خالية من ذكر السهو أيضاً، فلا يمكن أن يعتمد عليها لتجويز السهو على النبي صلى الله عليه وآله، نعم هي تصلح أن تكون مؤيّدة لمن قال

---

(١) الحر العاملي، التنبيه بالمعلوم: ص٦٤ ـ ٦٥، تحقيق السيد مهدي اللاجوردي ـ المطبعة العلمية ـ قم.

(٢) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص١٢١، ط٢ ـ جماعة المدرسين ـ قم.

(٣) الطوسي، رجال الطوسي: ص٣٣٧، تحقيق القيّومي، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٤) العلامة الحلي، خلاصة الأقوال: ص٤٦٩، ابن داود، رجال ابن داود: ص٢٤٩.

بالسهو.

الرواية السادسة: رواية الكليني عن سماعة بن مهران

أخرج الكليني في الكافي، عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن عثمان بن عيسى عن سماعة بن مهران، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: **«من حفظ سهوه فأتمه فليس عليه سجدتا السهو، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الظهر ركعتين ثم سها، فسلّم، فقال له ذو الشمالين: يا رسول الله أنزل في الصلاة شيء؟ فقال: وما ذاك؟ قال: إنما صلّيت ركعتين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أتقولون مثل قوله؟ قالوا: نعم، فقام صلى الله عليه وآله فأتم بهم الصلاة وسجد بهم سجدتي السهو.**

قال: قلت: أرأيت من صلّى ركعتين وظن أنهما أربع فسلّم وانصرف، ثم ذكر بعد ما ذهب إنما صلّى ركعتين؟ قال: يستقبل الصلاة من أوّلها، قال: قلت: فما بال رسول الله صلى الله عليه وآله لم يستقبل الصلاة وإنما أتمّ بهم ما بقي من صلاته؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبرح مجلسه، فإن كان لم يبرح من مجلسه فليتمّ ما نقص من صلاته إذا كان قد حفظ الركعتين الأوليتين»(١).

المناقشة: إن عثمان بن عيسى الواقع في سند هذه الرواية لم يوثّق في كتبنا الرجالية، بل هو ضعيف وكان منحرفاً عن الحق ومعارضاً للإمام الرضا عليه السلام وغير معترف بإمامته، وقد استحلّ أموال الإمام طمعاً فيها، ولم يدفعها إليه، وأما توبته وردّه الأموال بعد ذلك فلم تثبت بطريق

(١) الكليني، الكافي: ج٣ ص٣٥٥، تحقيق علي أكبر غفاري، ط٢ ـ دار الكتب الإسلامية.

صحيح، لأن الذي ذكرها نصر بن الصباح وهو ليس بشيء[١]، وقال العلامة في الخلاصة عند ترجمته له:«والوجه عندي التوقف فيما ينفرد به»[٢].

نعم حاول بعض الأعلام أن يوثقه، فراجع[٣].

ويضاف إلى ذلك ما ذكرناه سابقاً في حال سماعة بن مهران الواقع في طريق هذه الرواية.

وأخرج هذه الرواية الشيخ الطوسي في التهذيب بطريق ضعيف أيضاً[٤].

الرواية السابعة: رواية الشيخ الطوسي عن الحسن بن صدقة

أخرج الشيخ الطوسي في التهذيب بسنده عن أحمد بن محمد البرقي عن منصور بن العباس عن عمرو بن سعيد عن الحسن بن صدقة، قال: قلت لأبي الحسن الأول عليه السلام:**«أسلّم رسول الله صلى الله عليه وآله في الركعتين الأوليتين؟ فقال: نعم، قلت: وحاله حاله؟ قال: إنما أراد الله عزوجل أن يفقههم»**[٥].

المناقشة: إن سند هذه الرواية ضعيف بمنصور بن العباس، فلم يرد له

---

(١) انظر، رجال النجاشي: ص٣٠٠، تحقيق السيد الزنجاني ـ دار الكتب الإسلامية ـ قم.

(٢) العلامة الحلي، خلاصة الأقوال: ص٣٨٣، ط٢ ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف.

(٣) السيد الخوئي، معجم رجال الحديث: ج١٢ ص١٣٢.

(٤) الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٤٧، تحقيق حسن الخرسان ـ دار الكتب الإسلامية، قم.

(٥) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٤٥، ط٤ ـ تحقيق السيد حسن الخرسان ـ دار الكتب الإسلامية ـ قم.

أي توثيق في كتبنا الرجالية، بل ذكروا أنه كان مضطرب الأمر، وأما عمرو بن سعيد فهو وإن وثّقه النجاشي إلا أنه كان فطحياً فاسد المذهب.

وقال الشيخ الحرّ العاملي (قدس سره) في رسالته المذكورة لتقييم سند هذه الرواية:

«في سنده البرقي وهو أحمد بن محمد بن خالد، وقد ذكروا أنه ضعيف في الحديث يعتمد المراسيل ويروي عن الضعفاء، ومنصور بن العباس ضعيف جدّاً غال، وعمرو بن سعيد فاسد المذهب فطحي، والحسن بن صدقة غير معلوم الحال»(١).

ثم إن هذه الرواية أيضاً ليس فيها أيّ ذكر للسهو.

الرواية الثامنة: رواية الشيخ الطوسي عن زيد بن علي

أخرج الشيخ الطوسي عن سعد بن عبد الله عن أبي الجوزاء عن الحسين بن علوان عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي عن آبائه عن الإمام علي عليه السلام قال: **«صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله الظهر خمس ركعات ثم انفتل، فقال له بعض القوم: يا رسول الله هل زيد في الصلاة شيء؟ فقال: وما ذاك؟ قال: صلّيت بنا خمس ركعات، قال: فاستقبل القبلة وكبّر وهو جالس، ثم سجد سجدتين ليس فيهما قراءة ولا ركوع ثم سلّم، وكان يقول: هما المرغمتان».**

---

(١) الحر العاملي، التنبيه بالمعلوم: ص٦٤، تحقيق السيد مهدي الآجوردي، المطبعة العلمية ـ قم.

قال الشيخ في تعليقه على هذا الحديث:

«هذا خبر شاذ لا يعمل عليه، لأنا قد بيّنا أن من زاد في الصلاة وعلم ذلك يجب عليه استئناف الصلاة، وإذا شك في الزيادة فإنه يسجد السجدتين المرغمتين»[1].

المناقشة: لقد تقدّم أن طريق الشيخ إلى سعد بن عبد الله ضعيف بمحمد بن قولويه، إذ لم يرد له توثيق في كتبنا الرجالية، مضافاً إلى أن الحسين بن علوان اختلف في توثيقه، للتشويش في عبارات التوثيق الواردة في حقّه، وعمرو بن خالد من رؤوس الزيدية فيكون إيراد مثل هذه الروايات تصب في الدعوة إلى بدعتهم، وذلك لعدم إيمانهم بالعصمة المطلقة للأنبياء والأوصياء، فتسقط الرواية عن الاعتبار.

وأما مدلول هذه الرواية فلم يتضمن لفظ السهو، ولم يذكر فيها سبب الإتيان بالركعة الخامسة.

الرواية التاسعة: رواية الشيخ الطوسي عن أبي أسامة

أخرج الشيخ الطوسي بسنده عن أحمد بن محمد عن الحسن بن علي بن فضّال عن أبي جميلة عن زيد الشحّام عن أبي أسامة، قال: سألته عن الرجل صلّى العصر ست ركعات أو خمس ركعات، قال:«**إن**

---

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٤٩ ـ ٣٥٠، ط٤ ـ دار الكتب الإسلامية.

استيقن أنه صلّى خمساً أو ستاً فليعد، وإن كان لا يدري أزاد أم نقص فليكبّر وهو جالس ثم ليركع ركعتين، يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب في آخر صلاته ثم يتشهّد، وإن هو استيقن أنه صلّى ركعتين أو ثلاثاً ثم انصرف فتكلّم فلم يعلم أنه لم يتم الصلاة قائماً، عليه أن يتم الصلاة ما بقي منها، فإن نبيّ الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس ركعتين ثم نسي حتى انصرف، فقال له ذو الشمالين: يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟ فقال: أيها الناس أصدق ذو الشمالين؟ فقالوا: نعم لم تصلّ إلا ركعتين، فقام فأتمّ ما بقي من صلاته»(١).

المناقشة: إن هذه الرواية ضعيفة السند بأبي جملية المفضل بن صالح، فقد ضعّفه ابن الغضائري والنجاشي وابن داود وأهمله الآخرون.

الرواية العاشرة: رواية الشيخ الطوسي عن أبي سعيد القمّاط

أخرج الشيخ الطوسي في التهذيب بسنده عن محمد بن أحمد بن يحيى عن موسى بن عمر بن يزيد عن ابن سنان عن أبي سعيد القماط، قال: «سمعت رجلاً يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن رجل وجد غمزاً في بطنه أو أذى أو عصراً من البول وهو في الصلاة المكتوبة في الركعة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة، قال: فقال: إذا أصاب شيئاً من ذلك فلا بأس بأن يخرج لحاجته تلك فيتوضأ، ثم ينصرف إلى مصلاه الذي كان يصلّي فيه فيبني على صلاته من الموضع الذي خرج منه لحاجته ما لم ينقض الصلاة بكلام، قال: قلت: وإن التفت يميناً أو شمالاً أو ولّى عن القبلة؟ قال: نعم، كل ذلك واسع، إنما هو بمنزلة رجل سها فانصرف في ركعة أو ركعتين أو ثلاث من

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٥٢، تحقيق حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية ـ قم.

المكتوبة، فإنما عليه أن يبني على صلاته، ثم ذكر سهو النبي صلى الله عليه وآله»(١).

المناقشة: إن طريق الرواية ضعيف من جهات، أما محمد بن أحمد بن يحيى فقد كان يروي عن الضعفاء ويعتمد المراسيل ولا يبالي عمن أخذ، وأما موسى بن عمر بن يزيد فلم يرد له توثيق في كتبنا الرجالية، ومحمد بن سنان ضعيف جدّاً لا يعّول عليه.

الرواية الحادية عشر: رواية الصدوق عن أبي الصلت الهروي

أخرج الشيخ الصدوق في عيون الأخبار عن تميم بن عبد الله بن تميم القرشي عن أبيه عن أحمد بن علي الأنصاري عن أبي الصلت الهروي، قال:«**قلت للرضا عليه السلام يا بن رسول الله إن في سواد الكوفة قوماً يزعمون أن النبي صلى الله عليه وآله لم يقع عليه السهو في صلاته، فقال: كذبوا لعنهم الله، إن الذي لا يسهو هو الله الذي لا إله إلا هو**»(٢).

المناقشة: هذه الرواية ضعيفة السند جدّاً، لضعف تميم بن عبد الله، وجهالة أبوه، وكذا جهالة أحمد بن علي الأنصاري، حيث لم يرد لهما ذكر في كتبنا الرجالية.

---

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٢ ص٣٣٥، تحقيق حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية ـ قم.

(٢) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١ ص٢١٩، تحقيق حسين الأعلمي، مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت.

الرواية الثانية عشر: رواية البرقي في المحاسن عن ابن القدّاح

أخرج البرقي في المحاسن عن جعفر بن محمد بن الأشعث عن ابن القدّاح عن أبي عبد الله عن أبيه عليه السلام، قال: «**صلّى النبي صلى الله عليه وآله صلاة وجهر فيها بالقراءة، فلما انصرف قال لأصحابه: هل أسقطت شيئاً في القراءة؟ قال: فسكت القوم، فقال النبي صلى الله عليه وآله: أفيكم أبي بن كعب؟ فقالوا: نعم، فقال: هل أسقطت فيها شيء؟ قال: نعم يا رسول الله، إنه كان كذا وكذا، فغضب صلى الله عليه وآله، ثم قال: ما بال أقوام يتلى عليهم كتاب الله، فلا يدرون ما يتلى عليهم، ولا ما يترك؟! هكذا هلكت بنو إسرائيل، حضرت أبدانهم وغابت قلوبهم، ولا يقبل الله صلاة عبد لا يحضر قلبه مع بدنه**»[1].

المناقشة: لقد ذكروا أن أحمد بن محمد بن خالد البرقي، صاحب كتاب (المحاسن) كان يروي عن الضعفاء ويعتمد المراسيل ولا يبالي عمن يأخذ، وجعفر بن محمد بن الأشعث لم يرد له توثيق في كتبنا الرجالية، مضافاً إلى أن جعفر بن محمد بن الأشعث من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، فلا يمكن أن يروي عنه أحمد بن محمد البرقي بالمباشرة، فتكون الرواية مرسلة وغير معتبرة.

وهذه الرواية خالية من ذكر السهو أيضاً.

هذه هي حصيلة الروايات التي تدل بظاهرها على صدور السهو من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد تبيّن من مجموع ما ذكرناه من التعليقات

---

(١) أحمد بن محمد البرقي، المحاسن: ج١ ص٢٦٠، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية.

والملاحظات حول طرق وأسانيد روايات السهو، أنه لا توجد ولا رواية واحدة خالية من المناقشة والضعف في سندها.

والحاصل: إن روايات السهو كلّها غير معتبرة، ولا يمكن الاعتماد عليها في إثبات جواز وقوع السهو من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله[1]، خصوصاً وإننا قد أثبتنا العصمة المطلقة وعدم جواز السهو على الأنبياء بحكم العقل ومحكم الآيات وصحيح وصريح الروايات النبوية المباركة.

المبحث الثاني: الدراسة المضمونية والدلالية لروايات السهو

بعد أن تبيّن لنا ضعف روايات السهو من الناحية السنديّة، ننتقل إلى ذكر بعض الملاحظات العامة التي يمكن تسجيلها على محتوى ومضمون تلك الروايات، وسيتضح من خلال ما سنذكره أن مضامينها أيضاً ساقطة عن الاعتبار، حتى على فرض صحة طرقها وأسانيدها.

ونستعرض فيما يلي بعض تلك الملاحظات المضمونية والدلالية الواردة على روايات السهو:

---

(١) ملحوظة: قد يقال: إن رواية سعيد الأعرج المتقدّمة حسنة من حيث السند، ولكن مع ذلك نقول: إن حسن الرواية سنداً قد يكفي لإثبات بعض الأحكام الشرعية الفرعية التفصيلية، إلا أنها لا تكفي لرسم حدود وأبعاد المسائل الأساسية في العقيدة، كمسألة العصمة وجواز صدور الفعل سهواً من الأنبياء، فلا يمكن لرواية واحدة على فرض حسنها أن تكون مؤثّرة في تحديد معالم العصمة، التي هي من أسس مباحث النبوّة والإمامة في المنظومة الاعتقادية.

أولاً: منافاة روايات السهو لحكم العقل القطعي

لقد ذكرنا في مستهل مبحث العصمة أن حكم العقل القطعي والصريح دال على عصمة الأنبياء المطلقة، وأن الأنبياء والرسل لابد أن يكونوا معصومين عن مطلق الذنب والخطأ والسهو والنسيان، وقد بيّنا أيضاًحكم العقل في ذلك من زوايا متعددة، حيث قلنا إن صدور المعصية أو الخطأ أو السهو أو النسيان وكل ما ينافي العصمة المطلقة يؤثّر سلباً على ثقة الناس بأنبيائهم في مجال إبلاغ الرسالة تامة وكاملة عن الله تعالى، فإنهم إذا رأوا شخصاً معرضاً في حياته اليومية والمعاشية للسهو والخطأ والنسيان تأبى نفوسهم عن قبول أمر بالغ الخطورة منه وهو إبلاغ شريعة السماء لتكامل البشر ورقيهم، وبناء على هذا فإن إرسال شخص من قبل الله تعالى معرّضاً للسهو والنسيان يعدّ نقضاً لغرضه، الذي هو انصياع الناس لذلك الشخص المرسل. ولا شك أن الله تعالى حكيم لا ينقض غرضه، فلابد أن يعصم أنبياءه عن السهو والنسيان لإنجاز غرضه، وهو هداية البشر وإتمام الحجة عليهم.

كما ذكرنا أيضاً أن منشأ العصمة هو العلم الشهودي الخاص، الذي لا يبقى معه مجال للخروج عن جادة الصراط المستقيم، ففرض السهو والنسيان يضادّ مبدأ العصمة، الذي هو عبارة عن العلم الحضوري التام بحقائق الأشياء والأفعال وعواقبها بنحو الحسّ والشهود.

وحينئذٍ لا يمكن الإعراض عن هذا الحكم العقلي القطعي والتمسك

بمضمون بعض الروايات الضعيفة المتعارضة، التي لا يتجاوز مضمونها درجة الظن، وذلك لأن الفطرة الإنسانية قاضية بأن الحكم القطعي لا يجوز تركه ونقضه بدليل ظنّي لم يبلغ مضمونه إلى درجة القطع، مضافاً إلى أن دليل حجية خبر الواحد - وهو سيرة العقلاء- لا يشمل الروايات المعارضة بدليل قطعي وهو حكم العقل، فإن العقلاء لا يتركون الحجة القطعية تمسّكاً بالظن، خصوصاً مع ضعف تلك الروايات الظنية ومعالجتها لأهم مسائل العقيدة الأساسية، التي ذهب أكثر العلماء إلى عدم نفع الظن في موردها.

ولعل ما ذكره الشيخ المفيد في ردّه على من قال بسهو النبي صلى الله عليه وآله يشير إلى مجمل ما بيناه في هذا الجواب الأول، حيث قال:

«الحديث الذي روته الناصبة، والمقلِّدة من الشيعة أن النبي صلى الله عليه وآله سها في صلاته، فسلّم في ركعتين ناسياً فلمّا نبّه على غلطه فيما صنع أضاف إليها ركعتين، ثم سجد سجدتي السهو، من أخبار الآحاد التي لا تثمر علماً، ولا توجب عملاً، ومن عمل على شيء منها فعلى الظن يعتمد في عمله بها دون اليقين، وقد نهى الله تعالى عن العمل على الظن في الدين، وحذّر من القول فيه بغير علم ويقين، فقال: ﴿**وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[1]، وقال: ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2]، وقال: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا**

---

(١) البقرة: ١٦٩.

(٢) الزخرف: ٨٦.

﴿لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1]، وقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[2]، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[3]، ومن أمثال ذلك في القرآن، مما يتضمّن الوعيد على القول في دين الله بغير علم، والذم والتهديد لمن عمل فيه بالظن، واللوم له على ذلك، والخبر عنه بأنه مخالف الحق فيما استعمله في الشرع والدين.

وإذا كان الخبر بأن النبي صلى الله عليه وآله سها من أخبار الآحاد، التي من عمل عليها كان بالظن عاملاً، حرم الاعتقاد بصحته ولم يجز القطع به، ووجب العدول عنه إلى ما يقتضيه اليقين، من كماله عليه السلام وعصمته، وحراسة الله تعالى له من الخطأ في عمله، والتوفيق له فيما قال وعمل به من شريعته، وفي هذا القدر كفاية في إبطال مذهب من حكم على النبي عليه السلام بالسهو في صلاته، وبيان غلطه فيما يتعلّق به من الشبهات في ضلالته»[4].

وفي ختام هذا الجواب الأول عن مضمون روايات السهو لابد من التأكيد على أن الروايات تشير إلى تكرر السهو من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مرّات عديدة وفي أوقات وأماكن مختلفة، وهذا ما يعزّز مخالفتها للدليل العقلي القطعي، لأن تعدّد الحادثة وتكرّر السهو يزيد من فقدان ثقة

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) يونس: ٣٦.
(٣) الأنعام: ١١، ويونس: ٦٦.
(٤) الشيخ المفيد، عدم سهو النبي: ص٢٠ ـ ٢١، ط٢ ه دار المفيد للطباعة والنشر ـ بيروت.

الناس بنبيّهم صلى الله عليه وآله ويوجب نقض الغرض من بعثته بشكل أوضح.

ثانياً: منافاة روايات السهو للمحكم من الآيات القرآنية

ذكرنا سابقاً في مبحث الأدلّة القرآنية على العصمة المطلقة جملة من الآيات، التي دلّت على عصمة جميع الأنبياء عموماً عن السهو، وآيات أخرى دلّت على عصمة نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله عن السهو بالخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[١]، وقوله تعالى حكاية عن توعّد الشيطان: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٥]، وغيرها من الآيات الأخرى، التي تقدّم تقريب دلالتها على العصمة المطلقة بما يشمل السهو والنسيان، فهذه الآيات

---

(١) سورة ص: ٤٥ ـ ٤٧.
(٢) سورة ص: ٨٣ ـ ٨٤.
(٣) الأنعام: ٨٦ ـ ٨٩.
(٤) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.
(٥) النجم: ٢ ـ ٤.

القرآنية المحكمة الدالة على عصمة نبينا الأكرم من السهو تكون مقدّمة مضموناً على روايات السهو المخالفة لها، لأن الروايات المستفيضة دلّت على أن ما خالف كتاب الله تعالى من الروايات فهو زخرف لم يصدر من أهل بيت العصمة والطهارة، مضافاً إلى أن سند الآيات القرآنية قطعي ومتواتر، وروايات السهو طرقها ضعيفة كما تقدّم.

ثالثاً: منافاة روايات السهو للروايات الصحيحة الموافقة للقرآن

إنّ الروايات الدالة على عصمة الأنبياء عن السهو والنسيان صحيحة ومتواترة من طرق الفريقين، وقد تقدّم ذكر بعضها في مبحث الروايات الدالة على العصمة، كقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إنّا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**»[1]، فهذه الرواية تدلّ على اليقظة القلبية الدائمة للأنبياء، فلا تعتريهم غفلة ولا سهو أو نسيان، وكقوله صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عمرو: «**اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق**»[2]، فكيف يصدر منه السهو إذا لم يكن يخرج من نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله إلا الحق المطابق للواقع؟!

وهكذا الحديث المعروف بشهادة خزيمة[3]، الذي استدل فيه خزيمة من صدق النبي صلى الله عليه وآله في الرسالة وعصمته المطلقة في التبليغ على عصمته المطلقة في معاشه وتعامله اليومي.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكُبرى: ج١ ص٨٢ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: ج٦ ص٦٨ ح٦٥١٠، ط١ ـ دار الحديث ـ القاهرة.

(٣) الطبراني، المعجم الكبير: ج٤ ص٨٧، ط٢ ـ مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل.

وكقول فاطمة الزهراء (عليها السلام) في محضر الصحابة من المهاجرين والأنصار: «**وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله وسمّاه قبل أن اجتباه واصطفاه قبل أن ابتعثه؛ إذ الخلائق بالغيب مكنونة وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور ومعرفة بمواقع المقدور**»(١).

وروايات الاصطفاء الواردة عن أهل البيت عليهم السلام كثيرة جدّاً وكلّها دالّة على العصمة المطلقة ـ كما تقدّم تقريب دلالتها على ذلك في مبحث الأدلة ـ وهذه الروايات صحيحة ومتواترة وموافقة للآيات القرآنية المتقدّمة في العصمة عن السهو، فيكون مضمونها مقدّماً على الروايات الدالة على السهو، لأن الروايات الصحيحة دلّت على تقديم الروايات الموافقة لكتاب الله تعالى وطرح الروايات المخالفة للقرآن الكريم والمعارضة لها في المضمون، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف**»(٢)، وقال أيضاً: «**كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف**»(٣)، وقال عليه السلام أيضاً: «**من خالف كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وآله فقد كفر**»(٤)، وقال عليه السلام: «**إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً،**

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي: ج١ ص١٣٣، ابن طيفور، بلاغات السناء: ص١٥.

(٢) الكليني، الكافي: ج١ ص٦٩، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٣) الكليني، الكافي: ج١ ص٦٩، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٤) الكليني، الكافي: ج١ ص٧٠، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتـــاب الله فـــدعوه»[1]، وبمـا أن روايـات العصمة عن السهو موافقة لكتاب الله تعالى، الدال على العصمة المطلقة، فتقدّم على روايات السهو المخالفة للآيات القرآنية وتطرح هذه.

مضافاً إلى أن روايات السهو كلّها منسوبة إلى أهـل بيـت النبـي صلى الله عليه وآله، وهي مخالفه لسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والروايات المستفيضة الواردة عنه صلى الله عليه وآله الدالة على العصمة عن السهو، فتكون مشمولة للروايات الصحيحة التـي تأمر بطرح ما خالف سنة النبي صلى الله عليه وآله، خصوصاً مـع لحـاظ ضـعف طـرق روايات السهو، فلا تصلح لأن تكون معارضـة للروايـات النافيـة للـسهو والمثبتة لعصمة النبي صلى الله عليه وآله المطلقة، فتكون متقدّمة عليها، من دون الحاجة إلى ملاحظة المرجّحات بين الروايات المتعارضة.

وقبل الانتقال إلى النقطة اللاحقة قد يتوهم متوهّم أن روايـات سـهو النبي صلى الله عليه وآله موافقة لآيات القرآن الكريم، حيث أن بعـض الآيـات القرآنيـة صرّحت بنسبة النسيان إلى بعض الأنبياء، وقد تقدّم ذكرهـا فـي الفـصل السابق.

فتكون روايات السهو امتداداً لتلك الآيات وموافقة لها، وتكون آيـات النسيان شاهد صدق على قوّة مضمونها وصحّة صدورها.

ولكننا أجبنا عن هذا التوهم مفصّلاً في مبحث آيات النسيان، وقلنا إن

---

(١) الكليني، الكافي: ج١ ص٦٩، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

هناك تغايراً واختلافاً بين مفهومي السهو النسيان، فالنسيان يتضمّن معنى الترك إما عن قصد والتفات وإما عن غفلة وذهول، وأما السهو فهو الغفلة بمعنى ذهاب القلب وذهول المعلوم عن أن يخطر بالبال، وذكرنا في ذلك البحث فوارق لغوية كثيرة بين مفهوم النسيان ومفهوم السهو، فلا يمكن أن يكون ما دلّ على السهو امتداداً لما دلّ على النسيان، وأما تعبير بعض روايات السهو بلفظ النسيان فأيضاً لا يعدّ امتداداً وموافقة لآيات النسيان، لأن المقصود من النسيان في روايات السهو هو الترك عن غفلة وذهول، أي أن النبي صلى الله عليه وآله ترك قسماً من الواجب وهو الركعتين الأخيرتين من صلاة الظهر أو العصر عن غفلة وذهول، وهذا المعنى لم يرد في آية واحدة من آيات القرآن الكريم، حيث ذكرنا في بحث تلك الآيات أن النسيان فيها إما بمعنى الترك عن قصد والتفات أو ترك الأولى عن غفلة وذهول، ولا توجد آية واحدة تذكر في حقّ أحد من الأنبياء أنه ترك واجباً من الواجبات أو حكماً من الأحكام الشرعية عن غفلة وذهول.

إذن فلا شاهد من القرآن الكريم يوافق مضمون روايات السهو.

رابعاً: منافاة روايات السهو للروايات الخاصة النافية له

لقد وردت روايات خاصة في كتبنا الشيعية، تنفي عنوان السهو بخصوصه عن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، وهي صحيحة وكثيرة نذكر بعضها:

١- موثّقة عبد الله بن بكير، عن زرارة قال: «**سألت أبا جعفر عليه السلام هل سجد**

رسول الله صلى الله عليه وآله سجدتي السهو قط؟ قال: لا، ولا يسجدهما فقيه»[1]، فهذه الرواية تعارض روايات السهو، التي نصّت على أن النبي صلى الله عليه وآله سجد سجدتي السهو وسمّاهما المرغمتان.

قال الشيخ في التهذيب بعد أن أورد هذه الموثّقة:«الذي أفتي به ما تضمنه هذا الخبر»[2].

٢- ما أخرجه الصفار في كتابه (بصائر الدرجات) عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال:«**يا مفضّل إن الله تبارك وتعالى جعل للنبي صلى الله عليه وآله خمسة أرواح، روح الحياة فبه دبّ ودرج، وروح القوة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه أمر وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوة** ـ إلى أن قال عليه السلام:ـ **وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو**»[3].

ولا شك أن روح القدس في النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مهيمنة على باقي الأرواح الأخرى، فهو صلى الله عليه وآله لا ينام قلبه ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو، وأما تلك الأرواح بمفردها في غيره صلى الله عليه وآله من سائر الناس فهي تنام وتغفل وتلهو وتسهو، وحيث أن النبي صلى الله عليه وآله حمل مقام النبوة منذ ولادته المباركة، بل وقبل ذلك أيضاً، كما ذكرنا الأدلة على ذلك في المباحث السابقة،

---

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٥، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٢) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٥، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٣) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات: ص٤٧٤، منشورات الأعلمي ـ طهران.

فيثبت عصمة نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله عن السهو منذ الولادة وقبلها؛ لتأييده بروح القدس.

وهذه الرواية وإن وقع في سندها كلام، إلا أنها تصلح للمعارضة المضمونية، بعد ثبوت ضعف طرق روايات السهو المتقدّمة.

٣- ما أخرجه المجلسي في البحار عن النعماني في تفسيره بإسناده عن إسماعيل بن جابر عن الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام، في بيان صفات الإمام، قال:

«فمنها: أن يعلم الإمام المتولّي عليه أنه معصوم من الذنوب كلها، صغيرها وكبيرها، لا يزل في الفتيا ولا يخطئ في الجواب ولا يسهو ولا ينسى ولا يلهو بشيء من أمر الدنيا»(١).

ومن الواضح أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إمام الأئمة وسيدهم، فهو لا يسهو ولا ينسى ولا يلهو بشيء من أمر الدنيا.

٤- صحيح معاوية بن وهب، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: **«ما علامة الإمام الذي بعد الامام؟ فقال: طهارة الولادة وحسن المنشأ، ولا يلهو ولا يلعب»**(٢).

ومعنى «لا يلهو» أي لا يغفل عن الحق ولا ينشغل عنه بغيره.

قال ابن منظور:

«يقال: لهوت بالشيء ألهو به لهواً، وتلهّيت به، إذا لعبت به وتشاغلت

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ج١٧ ص١٠٨، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) الكليني، الكافي: ج١ ص٢٨٤، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

وغفلت به عن غيره، ولهيت عن الشيء ـ بالكسر- ألهى ـ بالفتح ـ لهياً ولهياناً إذا سلوت عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه واشتغلت»[١].

وإذا كان الإمام من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله لا يلهو ولا يغفل ولا ينشغل عن الحق بغيره، فثبوت ذلك للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أوضح وأولى، لأنه سيد أئمة أهل البيت عليهم السلام وإمامهم.

إذن فالنبي صلى الله عليه وآله لا يلهو ولا يغفل ولا ينشغل عن الحق بغيره، وهذا هو معنى عدم السهو، فتقع المعارضة والمنافاة بين هذه الرواية وروايات السهو المتقدّمة.

٥- ما أخرجه الكليني في الكافي عن سماعة بن مهران، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه، فقال:**«اعرفوا العقل وجنوده والجهل وجنوده تهتدوا، قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلا ما علمتنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله خلق العقل** ـ إلى أن قال:- **ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فقال الجهل: يا رب هذا خلق مثلي فأعطني من الجند مثل ما أعطيته، فقال: نعم، فأعطاه خمسه وسبعين جنداً، فكان مما أعطى الله العقل من الخمسة والسبعين الجند الخير وجعل ضدّه الشر** ـ إلى أن قال:- **والتذكر وضدّه السهو، والحفظ وضدّه النسيان** ـ إلى أن ذكر باقي جنود العقل والجهل، ثم قال:- **فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلا في نبي أو وصي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، وأما سائر ذلك من موالينا فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتى يستكمل، وينقى من**

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ج١٥ ص٢٥٩، نشر أدب حوزة ـ قم.

جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء، وإنما يدرك ذلك بمعرفة العقل وجنوده وبمجانبة الجهل وجنوده، وفقنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته»[(١)].

وهذه الرواية صريحة في عصمة الأنبياء والأوصياء من السهو والنسيان، وأن علّة ذلك هو استجماعهم لجنود العقل ومجانبتهم للجهل وجنوده، فهم على تذكّر دائم بلا سهو ولا نسيان ولا غفلة، ومن ظرائف هذه الرواية أنها تنصّ على عصمة بعض الأولياء عن السهو من غير الأنبياء والأوصياء، وهو المؤمن الذي امتحن الله قلبه للإيمان.

٦- ما أخرجه الكليني أيضاً عن الإمام الرضا عليه السلام في بيان صفات الإمام في حديث طويل، قال:«**الإمام عالم لا يجهل، راع لا ينكل** ـ إلى أن قال:- **الإمام واحد دهره لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير، إن الأنبياء والأئمة يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق أهل زمانهم** ـ ثم قال:- **إن العبد إذا اختاره الله لأمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً، فلم يع بعده بجواب ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيّد موفق مسدّد، قد أمن من الخطأ والزلل والعثار، يخصّه الله بذلك ليكون حجّة على عباده»**[(٢)].

---

(١) الكليني، الكافي: ج١ ص٢٣، دار الكتب الإسلامية ـ طهران، كما أخرج هذه الرواية الشيخ الصدوق في كتابيه (الخصال) ص٥٩٠ و(علل الشرائع) ج١ ص١١٤.

(٢) الكليني، الكافي: ج١ ص٣٠٢، دار الكتب الإسلامية ـ طهران، وأخرج الشيخ الصدوق هذه الرواية في كتابه (الأمالي) ص٧٧٨ وكذا في كتابه (عيون أخبار الرضا عليه السلام) ج٢ ص١٩٩.

هذه الرواية صريحة أيضاً في كون الأنبياء والأوصياء معصومين عن الخطأ والزلل والعثار وموفقين ومسدّدين ومؤيدين من الله تعالى، وهذا على خلاف السهو أو الإسهاء من الله تعالى لأنبيائه، الذي دلت عليه روايات السهو، فإنه من الخطأ والزلل والعثار.

٧- ما أخرجه الكليني في الكافي عن صفوان، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن صاحب هذا الأمر، فقال: «**إن صاحب هذا الأمر لا يلهو ولا يلعب، وأقبل أبو الحسن موسى – وهو صغير ومعه عناق مكيّة، وهو يقول لها: اسجدي لربك– فأخذه أبو عبد الله عليه السلام وضمّه إليه، وقال: بأبي وأمي من لا يلهو ولا يلعب**»[(١)]، وتقريب الاستدلال بهذه الرواية على المعارضة مع روايات السهو، كما تقدّم في الرواية السابقة.

هذه الروايات وغيرها معارضة بمضمونها لروايات السهو، وهي لا تقلّ اعتباراً عن تلك الروايات، بل إن هذه الطائفة من الروايات النافية للسهو أصحّ سنداً من روايات السهو، فعند التعارض تقدّم الأصحّ سنداً، خصوصاً وأن الطائفة النافية للسهو موافقة للقرآن، بينما المثبتة له مخالفة لصريح الآيات القرآنية، فيقدم ما وافق كتاب الله تعالى ويطرح ما خالفه من الروايات.

---

(١) الكليني، الكافي: ج١ ص٣١١، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

خامساً: مخالفة روايات السهو لبعض الضرورات الفقهية

إنّ بعض الأمور والأحكام التي وردت في روايات السهو تنافي بعض الأحكام الفقهية الثابتة بالروايات الصحيحة وبإجماع المسلمين، ونشير فيما يلي إلى جملة من تلك المخالفات:

١- الحكم بعدم إبطال الكلام العمدي للصلاة

وهذا ما ورد في طائفة من روايات السهو، كما في الرواية الثالثة، حيث جاء فيها أن المأمومين سألوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعد أن سلّم في ركعتين: «**أحدث في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إنما صلّيت ركعتين، فقال: أكذلك يا ذا اليدين؟ فقال: نعم، فبنى على صلاته فأتم الصلاة أربعاً**». وبنفس المضمون ما ورد في الرواية السادسة أيضاً، فإن هذه الروايات تبيّن أن النبي صلى الله عليه وآله قد أتم صلاته من حيث قطعها بعد صدور الكلام العمدي منه، والكلام العمدي مبطل للصلاة بحسب ما هو ثابت بالضرورة الفقهية، ففي موثّق أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إن تكلّمت أو صرفت وجهك عن القبلة فأعد الصلاة**»[1]، وفي صحيح الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ابن على ما مضى من صلاتك ما لم تنقض الصلاة بالكلام متعمّداً، وإن تكلّمت ناسياً فلا شيء عليك**»[2]، وكذا ما في صحيح محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال

---

(١) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٣٦٦، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٢) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٣٦٧، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

في حديث لـه:«**فإن تكلّم فليعد الصلاة**»[(١)]، والروايـات الـصحيحة فـي هـذا المجال كثيرة وكلّها تثبت بطلان الصلاة بصدور الكـلام عمـداً، فتكـون روايات السهو المثبتة لصحة صلاة النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِه حتـى بعـد صـدور الكـلام عمداً في أثناء الصلاة معارضة لها، وتقدّم الروايات الدالة علـى الـبطلان لأقوائية السند، وأما كون روايات السهو مثبتة لصحة الصلاة عند الـتكلّم عمداً مع ظن الفراغ وجواز إتمامها فهو أول الكلام؛ لأنـه مترتـب علـى تمامية روايات السهو بعد عدم المعارضة.

٢- الحكم بسجدتي السهو بعد العلم بالإتيان بركعة خامسة

وهذا الحكم مخالف أيضاً للضرورة الفقهية، الدالة على أن من زاد في الصلاة وعلم ذلك فيما بعد وجب عليه إعادة صـلاته، وروايـات الـسهو دلّت على أن النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِه قد صـلّى بالنـاس خمـس ركعـات، ثـم بعـد أن أخبروه بذلك استقبل القبلة وكبّر وهو جالس وسـجد سـجدتي الـسهو، ومعنى ذلك أن النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِه علم أنه صلّى خمس ركعات، ومـع ذلـك بنـى على الصحة وأتى بسجدتي السهو، كما هو مضمون الرواية الثامنة، وهذا المضمون شاذّ بالنسبة إلى الروايات التي دلّت على بطلان صلاة من علم أنه صلاها بخمس ركعات؛ ولذا قال الشيخ الطوسـي بعـد أن أورد هـذه الرواية:«هذا خبر شاذ لا يعمل عليه، لأنا قد بيّنا أن مـن زاد فـي الـصلاة

(١) الكليني، الكافي: ج٣ ص٣٦٥، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

وعلمَ ذلك يجب عليه استيناف الصلاة»[١]، والروايات المعتبرة الدالّة على وجوب إعادة الصلاة في حال العلم بزيادة ركعة فيها كثيرة:

منها: صحيحة منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:«**سألته عن رجل صلّى فذكر أنه زاد سجدة؟ قال: لا يعيد صلاة من سجدة، ويعيدها من ركعة**»[٢].

ومنها: موثّق عبيد بن زرارة، قال:«**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل شكّ فلم يدر أسجد ثنتين أم واحدة، فسجد أخرى ثم استيقن أنه قد زاد سجدة؟ فقال: لا والله، لا تفسد الصلاة بزيادة سجدة، وقال: لا يعيد صلاته من سجدة، ويعيدها من ركعة**»[٣].

وهناك روايات عديدة في المقام أخرجها صاحب الوسائل في جملة من الأبواب[٤]، والفقهاء بكلّ طبقاتهم أفتوا بمضمون هذه الروايات، فتكون متقدّمة على روايات السهو الضعيفة، التي دلّت على أن النبي صلى الله عليه وآله أتم صلاته على خمس وسجد سجدتي السهو.

٣- الإتيان بسجدتي السهو بعد الكلام

إنّ الرواية الثامنة من روايات السهو دلّت على أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أتى بسجدتي السهو بعد أن تكلّم مع المأمومين عامداً، وهذا مخالف

---

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٤٩ ـ ٣٥٠، ط٤ ـ دار الكتب الإسلامية ـ قم.

(٢) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص١٥٦، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٣) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص١٥٦، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٤) انظر: الحر العاملي، وسائل الشيعة: ج٦ ب١٤ من أبواب الركوع وج٨ ب١٤ و١٩ من أبواب الخلل الواقع في الصلاة.

للنصّ والفتوى، فإن الفتاوى تبعاً للروايات صريحة في وجوب الإتيان بسجدتي السهو قبل الإتيان بالمنافي العمدي كالكلام، ففي صحيح ابن أبي يعفور، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يصلّي الركعتين من المكتوبة فلا يجلس فيهما حتى يركع؟ فقال: «**يتم صلاته ثم يسلّم ويسجد سجدتي السهو وهو جالس قبل أن يتكلم**»(١)، ومثلها صحيحة أبي العلاء(٢)، وفتاوى الفقهاء جرت على ذلك.

إذن فتكون الروايات الصريحة والصحيحة الدالة على أن محل سجدتي السهو بعد التسليم وقبل الكلام معارضة لروايات السهو التي دلّت على أن النبي صلى الله عليه وآله جاء بسجدتي السهو بعد الكلام، فتقدّم تلك الأقوى سنداً والأصرح دلالة على روايات السهو الأضعف سنداً ودلالة.

٤- الإتيان بسجدتي السهو جماعة

إن بعض روايات السهو ذكرت أن النبي صلى الله عليه وآله صلّى صلاة السهو جماعة بالناس، حيث ورد في بعضها أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**أتمّ بهم الصلاة وسجد بهم سجدتي السهو**» مع أنه من الواضح أن سجدتي السهو لا يؤتى بها جماعة.

---

(١) الشيخ الطوسي، الاستبصار: ج١ ص٣٦٣، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٢) الشيخ الطوسي، الاستبصار: ج١ ص٣٦٢، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

٥- الانصراف وترك الاستقبال لا يبطل الصلاة

إن الرواية التاسعة والعاشرة دلّتا على أن الصلاة لا تبطل بترك الاستقبال عمداً. وهذا الحكم مخالف أيضاً لما عليه الفتوى ونصريح الروايات الصحيحة[١]، بل هذا الحكم ينافي ما في بعض روايات السهو، التي علّلت عدم بطلان صلاة النبي صلى الله عليه وآله بعدم انصرافه من مكانه وبقائه على حالة الاستقبال.

٦- البناء على الصلاة حتى بعد انتقاض الوضوء بالحدث

وهذا الحكم هو مضمون بعض روايات السهو، وهو مناف لجملة فتاوى الفقهاء والروايات الصحيحة، التي دلّت على بطلان الصلاة وانتقاضها بذلك[٢].

٧- إسقاط القراءة الواجبة عمداً في الصلاة

وهذا هو ظاهر الرواية الثانية عشر من روايات السهو. حيث ظاهرها أن النبي صلى الله عليه وآله أسقط بعض القراءة الواجبة؛ ليمتحن انتباه أصحابه وتوجّه قلوبهم إلى الصلاة، فلمّا اتضح غفلتهم عمّا أسقطه من القراءة حاسبهم على ذلك، ومع ذلك حكمت الرواية بصحة الصلاة، ونحن نعلم أن حكم من أسقط القراءة الواجبة في الصلاة عمداً مبطل لها.

---

(١) لاحظ: جواهر الكلام، الشيخ الجواهري: ج١١ ص٧ وما بعد، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٢) لاحظ: مصباح الفقيه، آقا رضا الهمداني: ج٢ ص٤٠٠، انتشارات مكتبة النجاح ـ طهران.

هذه بعض الأحكام التي خالفت بها روايات السهو ما جاء في الروايات الصحيحة وما ثبت بالضرورة الفقهية، وهذا ما يكون موجباً لسقوطها عن الاعتبار؛ إذ لا يمكن الأخذ بمضمونها.

سادساً: التضارب والاختلاف بين مضامين روايات السهو

عندما نرجع إلى روايات السهو التي استعرضناها سابقاً، نجدها متضاربة المضامين، مختلفة في الأحكام الواردة فيها، ومتعارضة في نقلها لواقعة السهو الذي تزعم أنه صدر من النبي صلى الله عليه وآله، ونشير فيما يلي إلى جانب من ذلك التنافي:

١- إن إرجاع الحادثة إلى ذي اليدين أو ذي الشمالين، وتسمية الحديث باسم هذا الرجل يدلّ على اتحاد الحادثة، وأن النبي سها في صلاته ونبّهه على سهوه ذو اليدين، ولكن عندما نرجع إلى الواقعة التي تنقلها لنا روايات السهو، نلاحظ أن بعضها يذكر أن السهو وقع في ترك الركعتين الأخيرتين من صلاة الظهر أو العصر، وبعضها الآخر ينصّ على أن السهو إنما وقع في الركعة الرابعة، وأن النبي صلى الله عليه وآله جاء بركعة خامسة سهواً، وبعض ثالث ذكر أن السهو إنما كان بإسقاط قسم من القراءة.

٢- بعض الروايات ذكرت أن النبي صلى الله عليه وآله جاء بسجدتي السهو لأجل تكلّمه في الصلاة، وبعضها الآخر نصّ على أن سجدتي السهو لزيادة ركعة في الصلاة، وبعض ثالث لم يتعرّض لسجدتي السهو ولم يذكر أن النبي أتى بهما بعد إتمام صلاته، بل بعضها يصرّح بأن النبي انصرف من

دون أن يأتي بسجدتي السهو.

٣- بعض روايات السهو صريح في أن النبي صلى الله عليه وآله لم ينفتل ولم ينصرف من صلاته، ولو انصرف من موضعه لبطلت صلاته، ولكن روايات السهو الأخرى ذكرت أن النبي صلى الله عليه وآله انصرف من الصلاة وترك الاستقبال عمداً، ومع ذلك حكمت بصحة الصلاة، وفي هذه النقطة من الاختلاف لا يمكن أن يقال بتعدد الواقعة؛ لأن الانصراف والانتقال من موضع الصلاة إما أن يكون مبطلاً أو لا يكون كذلك، والجمع بينهما في روايات السهو موهن ومضعف لها.

وأما النقطتين الأولى والثانية من نقاط التنافي بين روايات السهو، فبعد استظهار وحدة الواقعة لا يمكن الجمع بين ما ورد فيها، وأما إذا قيل بتعدد الواقعة فهو يضعف روايات السهو أيضاً، لأن معناه أن النبي صلى الله عليه وآله كثير السهو في صلاته، وما انفك الأصحاب ينبّهونه على سهوه، وهذا ما ذمّه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾، وهذا طعن في شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومناف لمبدأ العصمة في الشريعة، ولو تكرر مثل هذا العمل من النبي لكان ذريعة لإرجاف النافقين وطعنهم في شخصيته الكريمة، مع أننا لم نسمع ولم يصلنا عن أحد من المنافقين أنه طعن بشخصية النبي من هذه الناحية.

قال الشيخ المفيد (قدس سره) في هذا المجال:

«على أنهم قد اختلفوا في الصلاة التي زعموا أنه عليه السلام سها فيها، فقال

بعضهم: هي الظهر، وقال بعضهم: هي العصر، وقال بعضهم: هي عشاء الآخرة، وهذا الاختلاف دليل على وهن الحديث، وحجّة في سقوطه ووجوب ترك العمل به واطّراحه»[١].

والحاصل: إن روايات السهو لا يمكن التمسّك بها، لضعف سندها وبطلان مضمونها، ولو فرض أن بعض تلك الروايات صادرة عن أهل البيت عليهم السلام، فيمكن تأويلها، بأن يكون صدورها مجاراة للرأي العام الذي كانت تديره السلطة الحاكمة على ضوء مذهب الطائفة السنية، والذي رسمته حكومة بني أمية، وقد حاولت هذه الحكومة والخلافة المنحرفة أن تقلّل من شأن النبي صلى الله عليه وآله وأن تتجاوز على شخصيته المباركة، لبغضهم الدفين لبني هاشم وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالخصوص، وكذلك ليسبغوا على قيادتهم المنحرفة طابع الشرعية، فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله مبتلى بالسهو والنسيان في الصلاة وغيرها ففي غيره من الولاة بطريق أولى، فكان الطابع العام للحكومة السياسية والقيادة الشرعية الازدراء بشخصية النبي صلى الله عليه وآله، ومن يحاول الوقوف أمام هذا الرأي العام يتعرّض للمسائلة والمتابعة القانونية، ومن هذا المنطلق جرى الأئمة عليهم السلام على ما جرى عليه الفهم العام، حفظاً للمذهب والطائفة من الوقوع تحت طائلة المتابعة الحكومية الجائرة آنذاك، وهذا ما يسمّى في المفهوم الشرعي بمبدأ التقية في بيان الأحكام الشرعية.

---

(١) الشيخ المفيد، رسالة عدم سهو النبي (صلى الله عليه وآله): ص٢٢، دار المفيد ـ بيروت.

المبحث الثالث: الشيخ الصدوق ونظرية الإسهاء الإلهي

كانت نظرية الإسهاء عند الشيخ الصدوق وأستاذه ابن الوليد عبارة عن محاولة جادّة للجمع بين أدلة العصمة المطلقة وبين روايات السهو.

أركان نظرية الإسهاء

ومن منطلق الجمع بين ذينك الأمرين ارتكزت نظرية الصدوق على ثلاثة أركان أساسية:

الأول: إن سهو النبي يختصّ بالأمور المشتركة بينه وبين الناس، سواء كانت من الأمور العبادية أم العادية، ولا يشمل السهو مهام النبوة والرسالة والتبليغ.

الثاني: إن سهو النبي صلى الله عليه وآله ليس كسهو سائر البشر، فإن سهو البشر من تأثير الشيطان وسلطانه، وأما سهو النبي فهو من الله تعالى وليس للشيطان سلطان على الأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[1].

الثالث: إن سهو عامة الناس يخلو عن الحكمة في أغلب الأحيان، وأما سهو النبي صلى الله عليه وآله فلأنه من فعل الله تعالى والله تعالى حكيم فيما يفعله،

---

(١) النحل: ٩٩ ـ ١٠٠.

فلابدّ أن يتضمّن إسهاء النبي صلى الله عليه وآله حكمة خاصّة وفائدة جليلة ترجع إلى الأمة، وقد ذكر الشيخ الصدوق فائدتين وملاكين لإسهاء النبي صلى الله عليه وآله:

ملاكات نظرية الإسهاء

١- اجتثاث جذور الغلو في ذات النبيّ من الوسط الإسلامي، وذلك بإبراز صفة البشرية في شخص النبي صلى الله عليه وآله وأنه بشر يسهو ويغفل.

٢- التأكيد على أهمية التعليم والتبليغ العملي والميداني للأحكام الشرعية، ومنها أحكام السهو في الصلاة، فإن المسائل النظرية إذا بلغت إلى حيز التطبيق تكون أكثر وقعاً وتأثيراً في نفوس الناس.

إذن فالشيخ الصدوق حاول من خلال إبراز تلك الركائز والأركان الثلاث لنظريته أن يجمع بين روايات السهو وبين عقيدة العصمة المطلقة، فقال بنظرية الإسهاء من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله، وهذا الإسهاء الإلهي في نظر الصدوق يفسر المراد من روايات السهو ويحفظ للأنبياء عصمتهم المطلقة، لأن الله تعالى إذا أسهاهم في أمر خارج عن نطاق النبوة والرسالة والتبليغ لحكمة خاصّة في ذلك ومن دون تأثير الشيطان في سهوهم، لا يكون ذلك منافياً لإطلاق عصمتهم.

وسواء أصابت هذه النظرية هدفها أم أخطأته فإنه لا يمكننا أن نضع الشيخ الصدوق وأستاذه في طائفة المنكرين لعصمة الأنبياء المطلقة.

ولكي نقف على حقيقة ما ذكرناه ونسبناه إلى الشيخ الصدوق لابدّ

من الوقوف على كلماته وأقواله في هذا المجال.

قال الشيخ الصدوق في كتابه المعروف (من لا يحضره الفقيه):

«إن الغلاة والمفوضة لعنهم الله ينكرون سهو النبي صلى الله عليه وآله، ويقولون: لو جاز أن يسهو عليه السلام في الصلاة لجاز أن يسهو في التبليغ، لأن الصلاة عليه فريضة كما أن التبليغ عليه فريضة.

وهذا لا يلزمنا، وذلك لأن جميع الأحوال المشتركة يقع على النبي صلى الله عليه وآله فيها ما يقع على غيره، وهو متعبّد بالصلاة كغيره ممن ليس بنبي، وليس كل من سواه بنبي كهو، فالحالة التي اختصّ بها هي النبوّة، والتبليغ من شرائطها، ولا يجوز أن يقع عليه في التبليغ ما يقع عليه في الصلاة، لأنها عبادة مخصوصة والصلاة عبادة مشتركة، وبها تثبت له العبودية وبإثبات النوم له[1] عن خدمة ربّه عزّ وجلّ من غير إرادة له وقصد منه إليه نفي الربوبية عنه، لأن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله الحي القيّوم، وليس سهو النبي صلى الله عليه وآله كسهونا، لأن سهوه من الله عزّ وجلّ، وإنما أسهاه ليعلم أنه بشر مخلوق فلا يُتّخذ ربّاً معبوداً دونه، وليعلم الناس بسهوه حكم السهو متى سهوا، وسهونا من الشيطان وليس للشيطان على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة (صلوات الله عليهم) سلطان ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ وعلى من تبعه من الغاوين، ويقول الدافعون لسهو النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) سيأتي الحديث لاحقاً حول مسألة نوم النبي صلى الله عليه وآله عن صلاة الصبح.

إنه لم يكن في الصحابة من يقال له ذو اليدين وإنه لا أصل للرجل ولا للخبر، وكذبوا، لأن الرجل معروف، وهو أبو محمد عمير بن عبد عمرو، المعروف بذي اليدين، وقد نقل عنه المخالف والمؤالف، وقد أخرجت عنه أخباراً في كتاب وصف قتال القاسطين بصفين.

وكان شيخنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رحمه الله يقول: أوّل درجة من الغلو نفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله ولو جاز أن تُردّ الأخبار الواردة في هذا المعنى لجاز أن نردّ جميع الأخبار، وفي ردّها إبطال الدين والشريعة»[1].

هذه هي نظرية الشيخ الصدوق في الإسهاء، فهو في ارتكازه المبتني على الآيات والروايات لا يريد أن ينفي عقيدة العصمة المطلقة. وإنما حاول أن يجمع بينها وبين روايات السهو، وكان في تصوره (قدس سره) أن القول بالإسهاء الإلهي القائم على الفائدة والحكمة والخالي من تأثير الشيطان ينسجم مع إطلاق العصمة وشمولها، وقد حاول أن يرسم هذه الفكرة على ضوء بعض ما ورد في روايات السهو، بعد أن اعتقد بصحتها، حيث اقتبس فكرة الإسهاء من رواية سعيد الأعرج عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «**إن الله هو الذي أنساه رحمة للأمة**»[2]، كما أن قول الصدوق: «وإنما أسهاه ليعلم أنه بشر مخلوق فلا يتخذ رباً معبوداً دونه»

---

(١) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٣٥٩ ـ ٣٦٠، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٢) الكليني، الكافي: ج٣ ص٣٥٧، ط٣ ـ دار الكتب الإسلامية ـ قم.

وقوله: «لأن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله الحي القيّوم» أخذه مما روي عن الإمام الرضا عليه السلام: «إن الذي لا يسهو هو الله الذي لا إله إلا هو»[(١)]، وأما ما ذكره من حكمة التعليم في الإسهاء فهو أيضاً مستنبط من بعض متون روايات السهو، كالمروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**فمن دخل عليه اليوم ذاك - أي السهو- قال: قد سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصارت أسوة**»[(٢)]، أو كالمروي عن أبي الحسن الأول عليه السلام: «**إنما أراد الله عزّ وجلّ أن يفقههم**»[(٣)].

إذن لم يحاول الشيخ الصدوق أن يخالف بفكرة الإسهاء صريح الآيات والروايات وإجماع الطائفة على عقيدة العصمة المطلقة، بل حاول أن يجمع بين الفكرتين، استناداً إلى قاعدة (الجمع مهما أمكن أولى من الطرح). كما أن القول بالإسهاء لم يكن من بنات أفكاره، وإنما اقتبسه من متون روايات السهو، التي اعتقد هو بصحتها سنداً ومضموناً.

ومن هنا نفهم أن قول الشيخ الصدوق مدركيّ، أي ليس هو شيئاً آخر وراء روايات السهو، بل هو عبارة عن نقل لروايات السهو مع حذف أسنادها وطرقها، وحينئذٍ فكلّ ما أوردناه على روايات السهو من حيث أسانيدها أو متونها ومضامينها يكون بعينه وارداً على قول الصدوق

---

(١) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١ ص٢١٩، تحقيق حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

(٢) الكليني، الكافي: ج٣ ص٣٥٧، ط٣ - دار الكتب الإسلامية - قم.

(٣) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج٢ ص٣٤٥، دار الكتب الإسلامية - قم.

ونظريته في الإسهاء.

وأما كلامه حول ذي اليدين والجدل الدائر حول هذه الشخصية، فلا يهمّنا البحث حوله بعد أن كانت روايات السهو مروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فإن هذه الروايات لو صحّت سنداً ومضموناً كان علينا الأخذ بها، ولا ينبغي لنا الالتفات إلى حال ذي اليدين، سواء توفّي في عهد رسول الله أم بقي إلى زمن معاوية، وسواء كان شخصية واحدة أو شخصيتين، وسواء كان معروفاً أم لم يكن.

الشيخ الصدوق يعتقد بالعصمة المطلقة

إن الذي حدا بنا للقول بأن الشيخ الصدوق لا يريد إنكار مبدأ العصمة المطلقة عدّة أمور، منها ما يلي:

١- اقتباس فكرة الإسهاء الإلهي من روايات السهو، ورفض جواز السهو البشري على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

٢- إخراج الشيطان عن دائرة التأثير في الإسهاء، وإبراز الحكمة الإلهية في ذلك.

٣- إن الشيخ الصدوق يصرّح في مواضع أخرى من كتبه بمبدأ العصمة المطلقة، ويرفض فكرة وقوع السهو من الأنبياء والأوصياء، وقد أخرج جملة من الروايات النافية للسهو والتي تقدّم ذكرها سابقاً.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الشيخ الصدوق في كتابه (كمال الدين وتمام

النعمة) عن ابن قبة الرازي في أجوبته على بعض ما أورد من الشبهات حول الإمامة، حيث قال في وصف الإمام:«وأن يكون إذا أمر ائتمر بطاعته، ولايد فوق يده، ولا يسهو ولا يغلط، وأن يكون عالماً ليعلّم الناس ما جهلوا، وعادلاً ليحكم بالحق، ومن هذا حكمه فلابد أن ينصّ عليه علام الغيوب على لسان من يؤدّي ذلك عنه»[1]، والصدوق نقل هذا القول في مقام الردّ على بعض ما أورد من شبهات حول الإمامة، ولم يعترض على ابن قبة بأنه مغالي أو ملعون أو غير ذلك، بل ظاهره ارتضاء ما ذكره ابن قبة، وإذا كان الإمام المعصوم لا يسهو فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي هو سيد الأئمة والأوصياء لا يسهو بطريق أولى.

وقال الصدوق أيضاً في وصف الأئمة عليهم السلام:«وأنهم معصومون من الخطأ والزلل»[2]، ولا شك أن السهو قسم من أقسام الخطأ عن غفلة، فنفي مطلق الخطأ نفي للسهو أيضاً، ونفيه عن الأئمة عليهم السلام نفي له عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالأولوية القطعية.

وقال أيضاً:

«اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة (صلوات الله عليهم) أنهم مطهّرون من كل دنس، وأنهم لا يذنبون ذنباً، لا صغيراً ولا كبيراً،

---

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: ص٦١، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٢) الشيخ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية: ص٩٤، دار المفيد للطباعة والنشر ـ بيروت.

ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ومن نفى عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهلهم، واعتقادنا فيهم أنهم موصوفون بالكمال والتمام والعلم من أوائل أمورهم إلى أواخرها، لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عصيان ولا جهل»(١).

وعبارته هذه نصّ في العصمة المطلقة عن كل نقص، ومنه السهو والغفلة التي تحصل من سائر البشر، نعم هو يعتقد أن الإسهاء من الله تعالى ليس نقصاً ولا منافياً لإطلاق العصمة وخارجاً تخصصاً عن مبدأ العصمة، وقد أخرجته الروايات وأوضحت كيفية انسجامه مع العصمة المطلقة، هذا ما يعتقده الصدوق في فكره الإسهاء، ولكن هل هذه الفكرة صحيحة أو لا؟ هذا ما سيتضح في العنوان اللاحق.

ما هو الإشكال في نظرية الإسهاء؟

قلنا إن نظرية الإسهاء عند الشيخ الصدوق وليدة جملة من المضامين الواردة في روايات السهو، وذكرنا أيضاً أن الإشكالات الواردة على روايات السهو سنداً ومضموناً ترد أيضاً على ما ذكره الشيخ الصدوق للتطابق في مؤدّاهما.

ولكن الضوء كان مسلّطاً في البحث السابق على مبدأ السهو البشري، وهذا ما حاول الشيخ الصدوق التخلّص منه أيضاً وتنزيه الأنبياء

---

(١) الشيخ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية: ص٩٦، دار المفيد للطباعة والنشر ـ بيروت.

والأوصياء عنه، وافترض أن روايات السهو ليست ناظرة إلى هذا القسم من السهو الشيطاني، وإنما نظرها إلى الإسهاء الإلهي، وحيث إننا نعتقد أن هذا القسم من السهو والإسهاء مرفوض أيضاً ومناف لأدلة العصمة المطلقة، فلابد من استيضاح بطلانه وإبرازه ببيان خاص وضمن النقاط التالية:

١- ضعف الروايات

إن الروايات التي اعتمدها الشيخ الصدوق في إبراز نظريته ضعيفة من حيث السند كما تقدّم، وتقدّم أيضاً أنها منافية لحكم العقل القطعي ومخالفة لصريح الآيات القرآنية ومعارضة بالروايات الموافقة للقرآن، كما أنها معارضة أيضاً بالروايات الخاصة التي تنفي السهو بكل أشكاله وأقسامه، مضافاً إلى مخالفة روايات السهو لبعض الضرورات الفقهية، مع التضارب والاختلاف بين نفس مضامينها.

٢- مخالفة الإسهاء لحكم العقل

إن الإسهاء كالسهو في منافاته لحكم العقل بالعصمة المطلقة، وذلك لأن الإسهاء يُفقد الناس أيضاً ثقتهم بنبيّهم، ويوجب الشكّ في نفوسهم بقدرته على إيصال الشريعة إليهم كاملة من دون نقص، خصوصاً وأن عامّة الناس لم يكونوا يفرّقوا بين الإسهاء وبين السهو، إلى أن جاء بعض العلماء كالصدوق وفرّق بينهما، وهذا يعني أن ما يترتّب على السهو من مفاسد في أذهان الناس كفقدان الثقة يترتّب على مبدأ الإسهاء أيضاً،

ويأتي فيه كل ما ذكرناه في منافاة السهو لحكم العقل، ولا شك أن هذه مفسدة عظيمة تفوق الفوائد التي ذكرها الصدوق في الإسهاء، لأنه يستلزم إنكار النبوة والرسالة، خصوصاً وأن ما ذكره الشيخ الصدوق من أن نفي الإسهاء يستلزم تشبيه النبي صلى الله عليه وآله بمن لا تأخذه سنة ولا نوم غير صحيح - كما سيأتي- ولا صلة له بمسألة الغلو، وأما حكمة التعليم فلا يمكن القول بها في مورد يوجب فقدان ثقة الناس بأنبيائهم وإنكار النبوات والشرائع، فإن هذا من أسوأ أقسام نقض الغرض المنافي للحكمة الإلهية.

٣- منافاة نظرية الإسهاء للقرآن الكريم

إن الآيات التي تقدّم ذكرها في مبحث الأدلة على العصمة المطلقة لا تنسجم مع نظرية الإسهاء أيضاً، فقوله تعالى في حقّ جميع الأنبياء: ﴿**وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾، وقوله تعالى في حقّ نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾، فإن معناه أن النبي صلى الله عليه وآله لا يخرج عن الصراط المستقيم، وليست أفعاله وأقواله وكلذ ما يصدر عنه إلا وحيّاً يوحى، وحينئذٍ كيف يمكننا أن نتصور الإسهاء، الذي يعني أن الله تعالى يُخرج نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله عن صراط الحقّ ويجعله في معرض الخطأ والغفلة والإخفاق عن إصابة الواقع؟! فهل هذا ينسجم مع مفهوم الهداية الإلهية المطلقة إلى الصراط المستقيم، وهل أن تجنيب النبي صلى الله عليه وآله إصابة الحق والواقع وحي من الله يوحى؟!

والحاصل: إن الإسهاء إخفاق الواقع وإن كان من الله تعالى، وهو يتنافى مع الهداية المطلقة على صراط الحق المستقيم، التي يثبتها القرآن الكريم للأنبياء عليهم السلام، كما يتنافى أيضاً مع قوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ حيث حصر أقوال النبي صلى الله عليه وآله وأفعاله، بل وذاته المباركة بكونها وحياً يوحى من الله تعالى، وهذا لا ينسجم أيضاً مع الإسهاء والإخفاق عن إصابة الواقع.

٤- الذهن العرفي لا يفرّق بين السهو والإسهاء

إنّ الشيخ الصدوق (قدس سره) كان ملتفتاً إلى أن الإسهاء في تبليغ الشريعة لا يجوز، وذلك لأنه يوجب عدم ثقة الناس بما يبلّغه النبي من الأحكام، لاحتمال وقوع السهو والإسهاء فيها، وهذا المحذور الذي يترتّب على الإسهاء في التبليغ يتحقق أيضاً في حال وقوع الإسهاء في العبادات المشتركة، لأن عموم الناس لا يفرّقون بين الموردين، ويرون أن وقوع الإسهاء في أحدهما يستلزم جواز وقوعه صلى الله عليه وآله في الآخر.

قال الحرّ العاملي في رسالته (التنبيه بالمعلوم):

«وأما الفرق بين العبادة المشتركة والتبليغ، الذي هو عبادة محضة، فمما لا يوافقه عليه أحد، وأكثر الناس لا يفهمون الفرق، بل كلّ من ثبت عنده سهوه صلى الله عليه وآله يتطرّق إلى تجويزه في التبليغ»[1]، ونضيف إلى ما ذكره

(١) الحر العاملي، التنبيه بالمعلوم: ص٨٨ المطبعة العلمية ـ قم.

الحرّ العاملي أن مجمل الإشكالات التي ذكرت على القول بالسهو تـأتي على نظرية الإسهاء أيضاً؛ لعدم التفريق بينهما في ذهن المخاطبين.

العصمة عن السهو وشبهة الغلو:

ذكر الشيخ الصدوق فيما تقدّم من كلامه أن إنكار سهو النبي صلى الله عليه وآله من فعل الغلاة والمفوّضة، وأن الله تعالى أسهى نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله ليُعلم أنه بشر مخلوق فلا يُتخذّ رباً معبوداً دونه، ثم نقل كلاماً لشيخه ابن الوليد يقـول فيه:

«أوّل درجة في الغلو نفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله».

وقد اختار هذا القول جملة من علماء السنة، وحاول بعض السلفية أن يُورد بهذا القول إشكالاً على عقيدة الإمامية بالعصمة المطلقة للأنبياء[(١)].

ثم إنه قد يعضد قول الصدوق ما تقدّم عن الإمام الرضا عليه السلام، حيث أخرج الصدوق بسند ضعيف ـ تقدّم تحقيقه ـ عن أبي الصلت الهروي قال:«قلت للرضا عليه السلام: يـا ابـن رسـول الله إن فـي سـواد الكوفـة قومـاً يزعمون أن النبي صلى الله عليه وآله لم يقع عليه السهو في صلاته، فقال: كـذبوا لعـنهم الله، إن الذي لا يسهو هو الله الذي لا إله إلا هو»[(٢)].

---

(١) القفاري، أصول مذهب الشيعة: ج٢ ص٩٤٢ ـ دار الرضا ـ الجيزة.

(٢) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١ ص٢١٩، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

الجواب عن شبهة الغلو:

نحن بعد أن أثبتنا عصمة الأنبياء عن مطلق السهو والإسهاء، نجيب عن هذه الشبهة ضمن النقاط التالية:

النقطة الأولى: النقوض الواردة على فكره الغلو

إنّ دعوى ترتب الغلو على الإيمان بعصمة الأنبياء عن السهو منقوضة بأمرين:

النقض الأول: عصمة الملائكة عن مطلق السهو

إنّ الأبحاث العقلية والفلسفية أثبتت أنّ السهو والغفلة والذهول من أحكام عالم المادة وخصائص نشأة الدنيا، فالإنسان إنّما يدرك جملة وافرة من الأشياء في هذا العالم بصورها الذهنية وعن طريق معانيها ومفاهيمها، ولا تكون تلك الأشياء حاضرة بذواتها لدى النفس الإنسانية، ومن هنا يكون الإنسان محكوماً بقانون الغفلة والسهو، بل إنّ الأمور الحاضرة عند الإنسان بحقائقها قد يغفل عنها أيضاً، وذلك للتزاحم وعدم إمكان الالتفات لمتضادات هذا العالم في وقت واحد، فقد يغفل الإنسان عن الألم الذي أصابه إذا انشغل بما هو أهم منه.

وأما عالم الملائكة والمجردات فهو خال عن قوانين التزاحم الدنيوية، فالملائكة يدركون ذواتهم ويعلمون بما يدور حولهم علماً حضورياً شهودياً لا يشوبه الشك ولا الغفلة ولا النسيان، ويكون هذا الأمر أوضح في الملائكة المقربين الذين أُوكل إليهم تدبير أعقد المعادلات الكونية،

فلا يمكن أن يتطرّق السهو إلى ساحتهم، فهم معصومون عن السهو في إبلاغ الوحي أو قبض الأرواح أو توزيع الأرزاق أو غير ذلك مما يشكّل مجمل دائرة أفعالهم الصادرة عنهم.

وقد أكّد القرآن الكريم وكذا الروايات المباركة على هذه الحقيقة الواضحة.

قال تعالى: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١).

وقال عزّ وجلّ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى أيضاً: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ﴾(٣).

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره لهذه لآية المباركة:

«ويمكن أن يقرر معنى الآية باستمداد من التدبّر في آيات أخر أن ظرف الحياة المادية، أعني هذه النشأة الدنيوية، ظرف يختلط فيه الحق والباطل من غير أن يتمحّض الحقّ في الظهور بجميع خواصّه وآثاره، كما يشير إليه قول تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾(٤) ـ إلى أن قال:- والظرف ظرف الامتحان والاختيار، ولا اختيار إلا مع إمكان التباس الحق والباطل، واختلاط الخير والشر بنحو، حتى يقف الإنسان على

---

(١) التحريم: ٦.
(٢) الأنبياء: ٢٧.
(٣) الحجر: ٨.
(٤) الرعد: ١٧.

ملتقى الطريقين ومنشعب النجدين، فيستدلّ على الخير والشر، بآثارهما وأماراتهما، ثم يختار ما يستحقّه من السعادة والشقاوة.

وأما عالم الملائكة وظرف وجودهم، فإنما هو عالم الحقّ غير مشوب بشيء من الباطل كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، فمقتضى الآيات وما في معناها أنهم في أنفسهم مخلوقات شريفة ووجودات طاهرة نورانية، منزّهة عن النقص والشين، لا تحتمل الشر والشقاء وليس عندها إمكان الفساد والمعصية والتقصير، فلا يحكم فيها هذا النظام المادّي المبني على أساس الإمكان والاختيار وجواز الصلاح والفساد والطاعة والمعصية والسعادة والشقاء جميعاً»[1].

وقال في موضع آخر تفسيراً لقوله تعالى في حقّ الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2]:

«يخافون ربّهم من فوقهم... فهذه المخافة هي المخافة منه تعالى، وهو وإن لم يكن عنده إلا الخير، والخوف إنما يكون من شر مترقّب، إلا أن حقيقته التأثّر والانكسار والصغار، وتأثر الضعيف قبال القوي الظاهر بقوته، وانكسار الصغير الوضيع أمام الكبير المتعال القاهر بكبريائه

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن:ج١٢ ص٩٩ـ١٠٠، مؤسسة إسماعيليان ـ قم.
(٢) النمل: ٥٠.

وتعاليه ضروري، فمخافتهم هي تأثرهم الذاتي عمّا يشاهدونه من مقام ربّهم ولا يغفلون عنه قط.

ويؤيّد ما ذكرناه تقييد قوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ بقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ فإنه فيه إشارة إلى كونه تعالى فوقهم قاهراً لهم متعالياً بالنسبة إليهم هو السبب في مخافتهم، وليس هذا إلا الخوف من مقامه تعالى لا من عذابه، فهو خوف ذاتي، ويرجع إلى نفي الاستكبار عن ذواتهم.

وأما قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فإشارة إلى عدم استكبارهم في مقام الفعل، وقد تقدّم أنه إذا لم يستكبر عليه تعالى في ذات لم يستكبر عليه في فعل، فهم لا يعصون الله سبحانه في أمر، بل يفعلون ما يؤمرون، وفي إتيان قوله: "يؤمرون" مبنيّاً للمجهول من التعظيم والتفخيم ما لا يخفى.

فتبيّن أن الملائكة نوع من خلق الله تعالى لا تأخذهم غفلة عن مقام ربّهم ولا يطرأ عليهم ذهول ولا سهو ولا نسيان عن ذلك ولا يشغلهم عنه شاغل، وهم لا يريدون إلا ما يريده»[1].

ومن آيات عصمة الملائكة عن الغفلة والسهو قوله تعالى حكاية لحديث الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[2]، فهذه الآيات المباركة تثبت أن مقامات الملائكة معلومة لا

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ج١٢ ص٢٦٧ ـ ٢٦٨، مؤسسة إسماعيليان ـ قم.

(٢) الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦.

يتطرق إليها جهل أو سهو أو نسيان ولا يقع لهم في صلاتهم وتسبيحهم أي غفلة أو ذهول، بل هم على علم تام بمقاماتهم وما يصدر عنهم من أفعال.

هذا بالنسبة إلى الآيات الدالة على عصمة الملائكة عن الغفلة والسهو.

وأما الروايات النافية لمطلق السهو عن الملائكة فهي كثيرة نشير إلى بعضها:

١- ما أخرجه المفيد في (الاختصاص) عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله في أجوبته عن مسائل اليهود، قال في وصف جبرئيل عليه السلام: «**لا يأكل ولا يشرب ولا يمل ولا يسهو، قائم بوحي الله إليه إلى يوم القيامة**»(١).

٢- ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف خلقة الملائكة، حيث قال عليه السلام: «**وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك، فليس فيهم فترة ولا عندهم غفلة ولا فيهم معصية، هم أعلم خلقك بك، وأخوف خلقك منك، وأقرب خلقك إليك وأعملهم بطاعتك، لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان**»(٢).

٣- ما جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية في وصف الملائكة، حيث قال عليه السلام: «**اللهم وحملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك، ولا يسئمون من تقديسك، ولا يستحسرون من عبادتك، ولا يؤثرون التقصير**

---

(١) الشيخ المفيد، الاختصاص: ص٤٥، دار المفيد ـ بيروت.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة الأولى. ص١٤، دار الذخائر ـ قم، علي ابن إبراهيم القمي، تفسير القمي: ج٢ ص٢٠٧، مطبعة النجف ـ ١٣٨٧هـ

على الجدّ في أمرك، ولا يغفلون عن الوله إليك _ إلى أن قال:- **ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات، ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات، الخشّع الأبصار»**(١).

إذن الأبحاث الفلسفية والآيات والروايات الصريحة تثبت عصمة الملائكة وعالم المجردات عن الغفلة والسهو بكل أشكاله وصوره، وهذا ما أجمع عليه علماء الإمامية الإثني عشرية، فإذا لم يلزم من القول بعصمة الملائكة عن السهو أي غلو أو تفويض فكذلك لابدّ أن يقال في عصمة الأنبياء عن الغفلة والسهو بكل صوره.

ثم إن هذا النقض الذي ذكرناه يصلح دليلاً أيضاً على إثبات عصمة الأنبياء عن مطلق السهو، لأن الأدلة الصريحة دلّت على أن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة، وهذا عليه إجماع الشيعة الإمامية أيضاً، قال الشيخ الصدوق:«اعتقادنا في الأنبياء والرسل والحجج صلوات الله عليهم أنهم أفضل من الملائكة»(٢).

وإذا كان الأمر كذلك فلابد من الإيمان بعصمة الأنبياء المطلقة وتنزيههم عن نقص الغفلة والسهو، وإلا لما كانوا في ذواتهم أفضل من الملائكة المعصومين عن السهو.

هذا تمام الكلام في النقض الأول.

---

(١) الإمام علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية: ص٣٤، مؤسسة النشر الإسلامي _ قم.
(٢) الشيخ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية: ص٨٩، دار المفيد _ بيروت.

النقض الثاني: عصمة الأنبياء المطلقة عن السهو في التبليغ

أجمع المسلمون بكافّة فرقهم على عصمة الأنبياء عليهم السلام عن السهو في التبليغ وإيصال الأحكام إلى الناس، وقد تقدّم نقل الأقوال والتصريح بالإجماع في كلمات الأعلام في الأبحاث السابقة.

قال الفخر الرازي في معرض بيانه للأقوال في عصمة الأنبياء بين المسلمين:

«ما يتعلّق بجميع الشرائع والأحكام من الله تعالى، وأجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة في هذا الباب لا بالعمد ولا بالسهو، وإلا لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع»[1]، والشيخ الصدوق أيضاً آمن بعصمة الأنبياء عن مطلق السهو في مقام التبليغ كما تقدّم نقل عبارته.

فالأنبياء معصومون عن مطلق السهو وبكلّ صوره فيما يتعلّق بنبوتهم وتبليغ الشرائع السماوية، وإذا كان نفي السهو عن شخص بقيد ووصف من الأوصاف لا يستلزم الغلو، كذلك لا يستلزم الغلو أيضاً إذا كان مقيداً بوصف آخر، وهو وصف العبودية والفقر والحاجة إلى الله تعالى، فكما أن الأنبياء لا يسهون بقيد كونهم في حال إبلاغ الرسالة الإلهية ولا يلزم من ذلك غلو أو تفويض في الدين، كذلك الأنبياء بقيد كونهم فقراء وعبيداً لله تعالى لا يسهون ولا يغفلون بفضل الله تعالى وجوده وحكمته،

---

(١) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء: ص٧، مطبعة الشهيد ـ قم.

من دون أن يترتب على ذلك غلو ومغالاة في ذوات الأنبياء.

النقطة الثانية: العصمة عن السهو بإذن الله تعالى

الغلو في اللغة: مجاوزة الحدّ والقدر في كل شيء والإفراط فيه[(١)].

وأما في الاصطلاح العام: فهو أن يتجاوز الشخص الحدّ في بعض المخلوقين كالأنبياء والأوصياء، فيرفعهم من درجة العبودية والحاجة والفقر الذاتي وينسبهم إلى الربوبية والاستقلال والغنى الذاتي، وأنهم آلهة أو شركاء لله تعالى في أمره، وقد ورد هذا المعنى الاصطلاحي للغلو في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً * لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا﴾[(٢)]، فمن يشرك المسيح أو غيره مع الله تعالى في الألوهية يكون مغالياً كافراً؛ لأنه أفرط وتجاوز الحدّ في وصف عيسى عليه السلام، فمع أن عيسى عليه السلام كان عبداً لله تعالى ولن يستنكف عن عبادته عزّ وجلّ، ولكن النصارى كفروا وغلوا في دينهم ونسبوا عيسى عليه السلام إلى الإلوهية والربوبية.

---

(١) لاحظ: لسان العرب، ابن منظور: ج١٥ ص١٣١ ـ ١٣٢ مادة (غلا).

(٢) النساء: ١٧١ ـ ١٧٢.

وأما في الاصطلاح الخاص: فقد أطلق الغلو على من ادّعى الألوهية أو الربوبية لأمير المؤمنين علي عليه السلام أو بقية الأئمة من ولده عليهم السلام، أو يعتقد أن الله فوّض إليهم تدبير الأمور بنحو الاستقلال والانعزال عن القدرة والسلطان الإلهي.

ومن الواضح أن هذا الاصطلاح الثاني يرجع إلى الاصطلاح الأول، وليس الاختلاف إلا في تعيين المصداق والأفراد الذين يُغالى فيهم، كما أن الاصطلاح الأول أيضاً لا يختلف عن المعنى اللغوي إلا في التطبيق، فهو الإفراط وتجاوز الحدّ أيضاً ولكن بنحو خاص، وهو تجاوز الحدّ في الاعتقاد بالأنبياء والأوصياء.

والذي نسب الغلو إلى من قال بعصمة الأنبياء عن مطلق السهو، إنما عنى به الغلو في اصطلاحه العام الأول، فهو يدّعي أن الذي لا يسهو هو الله تعالى بنحو الحصر والاختصاص، ومن يقول بعصمة الأنبياء عن السهو إنما وصف المخلوق بصفات الخالق تبارك وتعالى، وهذا هو الغلو الذي وقع فيه النصارى، ونهت عنه الآيات والروايات.

ولكن غاب عن صاحب هذه الشبهة أن الذي يقول بعصمة الأنبياء عن السهو لا زال يؤمن بأن الأنبياء وكذا الأوصياء عبيد مربوبون فقراء ومحتاجون إلى الله تعالى، وأن كل صفة كمال اختصّوا بها إنما نالوها من فيض الله تعالى وفضله، ولو لم يأذن الله تعالى بذلك لارتفعت عنهم العصمة من الأساس، ولكن الله تعالى ـ وبمقتضى الأدلة المتقدّمة ـ شاء وأراد لهم العصمة المطلقة ونزّههم عن كلّ سهو وإسهاء بمشيئته وقضائه وقدره، ولم يدلّ دليل على امتناع اتصاف المخلوق بهذه الصفة،

بل الدليل على عدمه.

ولهذه الحقيقة التي ذكرناها نظائر كثيرة في القرآن الكريم، فصفة الخالقية من صفات الله تعالى، ولكن مع ذلك نسب الله تعالى هذه الصفة إلى نبيّه عيسى عليه السلام بإذنه وسلطانه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي﴾[1]، فهذه الآية الكريمة صريحة في أن نسبة الخالقية وإحياء الموتى إلى الأنبياء لا محذور فيه إذا كان بإذن الله تعالى وإرادته، نعم إذا كانت النسبة إلى عيسى عليه السلام بنحو الاستقلال والغنى الذاتي فهو غلو وكفر بالله تعالى كما فعل النصارى ذلك.

وفي الوقت الذي نرى أن الله تعالى يخصّ توفي الأنفس بذاته المقدسة، حيث يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[2]، كذلك ينسب هذه الخاصية إلى ملك الموت، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[3]، ولا تنافي بين الآيتين المباركتين، لأن الله تعالى هو الذي يتوفّى الأنفس بنحو الاستقلال والغنى الذاتي، ولا متوفّي للأرواح بهذه الصفة غيره، ولكن ملك الموت يتوفّى الأنفس أيضاً بإذن الله تعالى ومشيئته، ويكون دوره دور الوسائط التي ليس لها من ذاتها شيء، وإنما هي مرايا تعكس فيض الله تعالى على المخلوقات النازلة في الوجود، التي لا قدرة

(١) المائدة: ١١٠.

(٢) الزمر: ٤٢.

(٣) السجدة: ١١.

لها في ذاتها الضعيفة على تلقّي الفيض مباشرة من الله تعالى.

إذن فالقول بعصمة الأنبياء عن السهو بنحو الاستقلال عن الله تعالى يعدّ من الغلو الذي يوجب الكفر والخروج عن الإسلام؛ لأن معناه أن الله تعالى خرج عن ملكه وسلطانه ولا قدرة له على إسهاء الأنبياء، وهذا من الغلو والتفويض الباطل الذي لا يقول به أحد من المسلمين، وأما إذا قلنا إن الله تعالى عصم أنبياءه من السهو والإسهاء واصطفاهم لذلك بقدرته وإرادته من أجل حفظ شرائعه من الخطأ والتحريف وإيصال الحجة تامة إلى الخلق، ولئلا يرتاب المبطلون، فهذه عقيدة توحيدية قرآنية لا إشكال فيها، ولا تمت إلى مبدأ الغلو أو التفويض بصلة.

وأما الرواية التي أخرجها الصدوق عن الإمام الرضا عليه السلام، والتي تثبت الغلو بنفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله فهي ضعيفة السند جدّاً ولا يمكن التمسّك بها وطرح الآيات والروايات الصريحة التي دلّت على عصمة الأنبياء عن مطلق السهو، ثم إن روايات السهو أيضاً ضعيفة سنداً ومضموناً كما تقدّم، فلا يصح ما ذكره ابن الوليد (قدس سره) من أنه «لو جاز أن تردّ الأخبار الواردة في هذا المعنى ـ أي السهو ـ لجاز أن تردّ جميع الأخبار، وفي ردّها إبطال للشريعة».

والحاصل: إن القول بالعصمة عن السهو ليس من فعل الغلاة، ولا يتضمّن أي مرتبة من مراتب الغلو، بل هو مقتضى ومفاد الآيات والروايات، وأما قول الصدوق: «أسهى نبيّه ليعلم أنه بشر مخلوق لا يتخذّ

ربّاً معبوداً دونه» فلا دليل عليه، إلا بعض الروايات الضعيفة المعارضة بما هو أصحّ منها سنداً ومضموناً، والمخالفة لحكم العقل ومحكم الآيات القرآنية.

ثم إن القرآن الكريم صرّح في آيات عديدة بأن النبي صلى الله عليه وآله عبد الله تعالى وبشر يوحى إليه، ولا حاجة لاسهائه حتى يُعلم إنه بشر مخلوق، فهل أن من أنكر سهوه اتخذه ربّاً معبوداً من دون الله تعالى؟! وهل كان هناك جملة من المسلمين يؤمنون بربوبية النبي صلى الله عليه وآله كي تكون هناك حاجة للإسهاء؟!

أقوال العلماء في نفي مطلق السهو:

١- هشام بن الحكم (متوفى ١٩٩هـ)

قال هشام بن الحِكم في بعض مناظراته مع مخالفيه:«لابدّ لهم [أي الناس] من عالم يقيمه الرسول لهم لا يسهو ولا يغلط ولا يحيف، معصوم من الذنوب، مبرّئ من الخطايا، يحتاج الناس إليه ولا يحتاج إلى أحد»[1].

فإذا كان من يقيمه الرسول صلى الله عليه وآله لا يسهو ولا يغلط ولا يحيف، فكذلك النبي صلى الله عليه وآله بالأولوية القطعية.

---

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: ص٣٦٥، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

٢- ابن قبة الرازي (من أعلام القرن الثالث)

قال ابن قبة فيما أخرجه عنه الشيخ الصدوق في (كمال الدين) في بيان صفات الإمام:«وأن يكون إذا أمر ائتمر بطاعته، ولا يد فوق يده، ولا يسهو ولا يغلط»(١)، هذا ما ذكره في وصف الإمام، فثبوته في النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بنحو أجلى وأوضح.

٣- الشيخ المفيد (متوفى ٤١٣هـ)

قال الشيخ المفيد في كتابه (النكت الاعتقادية):

«فإن قيل: ما الدليل على أنه [أي النبي] معصوم من أول عمره إلى آخره؟

فالجواب: الدليل على ذلك أنه لو عهد منه في سالف عمره سهو أو نسيان لارتفع الوثوق من إخباراته، ولو عهد منه خطيئة لنفرت العقول من متابعته، فتبطل فائدة البعثة»(٢).

وقد ألّف الشيخ المفيد رسالة خاصّة في عدم سهو النبي صلى الله عليه وآله، أشرنا إلى جملة من مطالبها سابقاً.

٤- الشيخ الطوسي (متوفى ٤٦٠هـ)

قال الشيخ الطوسي في بعض رسائله:

---

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: ص٦١، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٢) الشيخ المفيد، النكت الإعتقادية: ص٣٧، دار المفيد ـ بيروت.

«نبيّنا محمّد ﷺ معصوم من أول عمره إلى آخره، في أقواله وأفعاله وتروكه، عن الخطأ والسهو والنسيان، بدليل أنه لو فعل المعصية لسقط محلّه من القلوب، ولو جاز عليه السهو لارتفع الوثوق من إخباراته، فتبطل فائدة البعثة وهو محال»(١).

وقال في مقدمة كتابه (المبسوط) في وصف أهل البيت عليهم السلام:

«وجعلهم معصومين من الخطأ مأمونين عليهم السهو والغلط، ليأمن بذلك من يفزع إليهم من التغيير والتبديل والغلط والتحريف، فيكون بذلك واثقاً بدينه قاطعاً على وصوله إلى الحقّ الذي أوجبه الله تعالى عليه وندبه إليه»(٢).

٥- القاضي ابن البراج (متوفى ٤٨١هـ)

قال القاضي ابن البراج في جواهر الفقه:

«جميع الأنبياء كانوا معصومين مطهّرين عن العيوب والذنوب كلّها، وعن السهو والنسيان في الأفعال والأقوال، من أول الأعمار إلى اللحد، بدليل أنهم لو فعلوا المعصية أو يطرأ عليهم السهو لسقط محلّهم من القلوب، فارتفع الوثوق والاعتماد على أقوالهم وأفعالهم، فتبطل فائدة النبوة»(٣).

---

(١) الشيخ الطوسي، الرسائل العشر: ص٩٧، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٢) الشيخ الطوسي، المبسوط: ج١ ص١، المكتبة المرتضوية.

(٣) القاضي ابن البراج، جواهر الفقه: ص٢٤٨، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

٦- الشيخ نصير الدين الطوسي (متوفى ٦٧٢هـ)

قال الشيخ نصير الدين الطوسي في (تجريد الاعتقاد):

«ويجب في النبي العصمة، ليحصل الوثوق، فيحصل الغرض، ولوجوب متابعته وضدّها، وللإنكار عليه.

وكمال العقل والذكاء والفطنة وقوّة الرأي وعدم السهو، وكلّ ما ينفر عنه»(١)

٧- العلامة الحلّي (متوفى ٧٢٦هـ)

قال العلامة الحلّي في كتابه (الرسالة السعدية):

«البحث الثاني: في أنه لا يجوز عليه السهو.

اختلف المسلمون هنا، فذهب طائفة إلى أن النبي صلى الله عليه وآله لا يجوز عليه الخطأ ولا السهو، وذهبت طائفة أخرى إلى جواز ذلك...

والحق الأول لوجوه:

فإنه لو جاز عليه السهو والخطأ، لجاز ذلك في جميع أفعاله ولم يبق وثوق بإخباراته عن الله تعالى، ولا بالشرائع والأديان، لجواز أن يزيد فيها وينقص سهواً، فتنتفي فائدة البعثة»(٢).

٨- العلامة المجلسي (متوفى ١١١١هـ)

قال العلامة المجلسي في البحار في مبحث عصمة الأنبياء:

---

(١) نصير الدين الطوسي، تجريد الاعتقاد: ص٢١٣، مكتب الإعلام الإسلامي ـ طهران.

(٢) العلامة الحلّي، الرسالة السعدية: ص٧٦، كتابخانة عمومي مرعشي نجفي- قم.

«مذهب علمائنا الإمامية: وهو أن لا يصدر عنهم الذنب لا صغيرة ولا كبيرة، ولا عمداً ولا نسياناً، ولا لخطأ في التأويل ولا للإسهاء من الله سبحانه، ولم يخالف فيه إلا الصدوق وشيخه محمد بن الحسن بن الوليد رحمهما الله، فإنهما جوّزا الإسهاء لا السهو الذي يكون من الشيطان»(١).

٩- القاضي عياض (متوفى ٥٤٤هـ)

قال القاضي عياض في كتابه (الشفا):

«وأما أقواله [أي النبي] من إخباره عن أحواله وأحوال غيره، ما يفعله أو فعله، فقد قدّمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه في كلّ حال، وعلى أيّ وجه، من عمد أو سهو أو صحّة أو مرض أو رضا أو غضب، وأنه معصوم منه (صلى الله عليه وسلّم)»(٢).

١٠- القسطلاني (متوفى ٩٢٣هـ)

قال القسطلاني في معرض تعداد مناقب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«ومنها: أنه معصوم من الذنوب كبيرها وصغيرها وعمدها وسهوها وكذلك الأنبياء»(٣).

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار: ج١١ ص٩٠، مؤسسة الوفاء ـ بيروت.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص١٩٣، دار الأرقم ـ بيروت.

(٣) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، بشرح الزرقاني: ج٧ ص٣٢٧ ـ ٣٢٨، ط١ ـ

١١- العلامة الزرقاني (متوفى ١١٢٢هـ)

قال العلامة الزرقاني في شرحه للمواهب اللدنّية:

«ومنها: أنه معصوم من الذنوب بعد النبوة وقبلها، كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها على الأصح، في ظاهره وباطنه وسرّه وجهره ومزحه ورضاه وغضبه، كيف؟ وقد أجمع الصحب على اتّباعه والتأسّي به في كل ما يفعله، وكذلك الأنبياء»(١).

إذن هذه الأقوال من الفريقين تنصّ مع أدلتها على أن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يقع منه السهو في شؤونه المعيشية الدنيوية، فضلاً عن وقوع ذلك في الواجبات أو المحرمات.

دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(١) المصدر السابق.

المبحث الرابع: روايات نوم النبي صلى الله عليه وآله عن صلاة الصبح

هناك جملة من الروايات دلّت على أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نام عن صلاة الصبح حتى فاتته، وقضاها بعد فوات وقتها، وهذه الروايات وإن كانت خارجة عن مبحث السهو، إلا أنها مرتبطة ـ كما سيتضح ـ بعصمة النبي صلى الله عليه وآله المطلقة.

والأحاديث المروية في هذا المجال عن طريق الطائفة السنية كثيرة جدّاً، وقلنا سابقاً إننا لسنا مسؤولين عن البحث في هذه الروايات، لا سنداً ولا مضموناً، لأننا نعتقد أنها روايات ضعيفة، توافق اليهود مع الحكومة الأموية الحاقدة على وضعها، وذلك من أجل توهين شخصية نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله الذي أرغم أنوف سادات قريش، وهزم اليهود وأفشل مخططاتهم التوسّعية، ومن الضروري أن يتصدّى أعلام الطائفة السنية لتنقية تراثهم من الأيادي الإسرائيلية والأموية.

والذي يهمّنا في البحث بعض الروايات الضعيفة ـ كما سيتضح ـ الواردة من طرقنا، والتي تذكر مسألة نوم النبي صلى الله عليه وآله عن الصلاة، وفيما يلي نستعرض تلك الروايات مع التعرض لقيمتها سنداً ومضموناً ضمن البحثين التاليين:

البحث الأول: الدراسة السندية لروايات النوم

الرواية الأولى: رواية الكليني عن سماعة بن مهران

أخرج الكليني في الكافي عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن عثمان بن عيسى عن سماعة بن مهران، قال: **«سألته عن رجل نسي أن يصلّي الصبح حتى طلعت الشمس، قال: يصلّيها حين ذكرها، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله رقد عن صلاة الفجر حتى طلعت الشمس، ثم صلاها حين استيقظ، ولكنّه تنحى من مكانه ذلك ثم صلّى»**[(١)].

المناقشة: تقدّم الكلام في حال عثمان بن عيسى وسماعة بن مهران، وأنه لا يمكن الاعتماد عليهما في الرواية، خصوصاً إذا كانت في المسائل العقائدية، وذلك بسبب الزيغ الذي حصل لهما في العقيدة، فلاحظ.

مضافاً إلى ذلك فإن الرواية مضمرة، لا يعلم من هو المروي عنه، فقد يكون المروي عنه هو الإمام عليه السلام وقد يكون غيره، وحينئذٍ تكون الرواية ساقطة عن الاعتبار من حيث السند.

الرواية الثانية: رواية الكليني عن سعيد الأعرج

أخرج الكليني أيضاً في كتابه الكافي، عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن علي بن النعمان عن سعيد الأعرج، قال: **«سمعت أبا عبد**

---

(١) الكليني، الكافي: ج٣ ص٢٩٤، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

الله عليه السلام يقول: نام رسول الله صلى الله عليه وآله عن الصبح، والله عزّ وجلّ أنامه حتى طلعت الشمس عليه، وكان ذلك رحمة من ربك للناس، ألا ترى لو أن رجلاً نام حتى تطلع الشمس لعيّره الناس، وقالوا: لا تتورع لصلواتك، فصارت أسوة وسنة، فإن قال رجل لرجل: نمت عن الصلاة، قال: قد نام رسول الله صلى الله عليه وآله فصارت أسوة ورحمة رحم الله سبحانه بها هذه الأمة»(١).

المناقشة: إن سند هذه الرواية ينطبق تماماً مع رواة الحديث الثاني من أحاديث السهو المتقدّمة، وقد سلف في ذلك الموضع النقاش في سلسلة السند المذكور، وذلك من جهة سعيد الأعرج، حيث لم يوثّق بهذا العنوان وإن ذكر بعض الأعلام اتحاده مع سعيد بن عبد الرحمن الذي وثّقه النجاشي، وكذلك من جهة الاحتمال القوي في وجود الواسطة بين أحمد بن محمد بن عيسى وبين علي بن النعمان، فراجع.

الرواية الثالثة: رواية الصدوق عن سعيد الأعرج

أخرج الصدوق عن الحسن بن محبوب عن الرباطي عن سعيد الأعرج، قال: **«سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله تبارك وتعالى أنام رسوله صلى الله عليه وآله عن صلاة الفجر حتى طلعت الشمس، ثم قام فبدأ فصلّى الركعتين اللتين قبل الفجر، ثم صلّى الفجر»**(٢).

---

(١) الكليني، الكافي: ج٣ ص٢٩٤، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٢) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٣٥٨، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

المناقشة: إن هذه الرواية ضعيفة أيضاً بالحسن الرباطي، إذ لم يرد فيه توثيق أو مدح، مضافاً إلى ما تقدّم من الكلام في سعيد الأعرج.

الرواية الرابعة: رواية الشيخ الطوسي عن عبد الله بن سنان

أخرج الشيخ الطوسي في التهذيب عن الحسين بن سعيد عن النضر بن سويد عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**سمعته يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله رقد، فغلبته عيناه فلم يستيقظ حتى آذاه حرّ الشمس، ثم استيقظ فركع ركعتين، ثم صلّى الصبح، فقال: يا بلال، مالك؟ فقال بلال: أرقدني الذي أرقدك يا رسول الله، قال: وكره المقام، وقال: نمتم بوادي شيطان**»[1].

المناقشة: إن طريق الشيخ إلى الحسين بن سعيد ضعيف بالحسين بن الحسن بن أبان، إذ لم يرد في حقّه أي توثيق في كتبنا الرجالية، وأما وقوعه في أسناد كامل الزيارات فلا يكفي في توثيقه، وتوثيق ابن داود له في رجاله لا يفي بالغرض بعد كونه من المتأخرين، كما أن الطريق ضعيف أيضاً بأحمد بن محمد بن الحسن بن الوليد وابن أبي الجيد، وقد تقدّم تحقيق ذلك في طريق الرواية الرابعة من روايات السهو.

الرواية الخامسة: رواية الشهيد الأول في الذكرى عن زرارة

روى الشهيد الأول في الذكرى عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دخل وقت صلاة مكتوبة فلا صلاة نافلة حتى يبدأ بالمكتوبة**»،

---

(١) الشيخ الطوسي، التهذيب: ج١ ص٢٨٧، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

قال: فقدمت الكوفة فأخبرت الحكم بن عتيبة وأصحابه فقبلوا ذلك منّي، فلمّا كان في القابل لقيت أبا جعفر عليه السلام، فحدّثني:«**إن رسول الله صلى الله عليه وآله عرّس في بعض أسفاره، فقال: من يكلؤنا؟ فقال بلال: أنا، فنام بلال وناموا حتى طلعت الشمس، فقال: يا بلال، ما أرقدك؟ فقال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بأنفاسكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قوموا فتحوّلوا من مكانكم الذي أصابكم فيه الغفلة، وقال: يا بلال أذّن، فأذّن، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله ركعتي الفجر، وأمر أصحابه فصلّوا ركعتي الفجر، ثم قام فصلّى بهم الصبح، ثم قال: من نسي شيئاً من الصلاة فليصلّها إذا ذكرها، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾** - إلى أن قال:- **وإن ذلك كان قضاء من رسول الله صلى الله عليه وآله**»[(١)].

المناقشة: إن هذه الرواية كما هو واضح مرسلة لا سند لها، فإن الشهيد لم يذكر الواسطة بينه وبين زرارة، والبون بينهما شاسع جدّاً، وتعبير الشهيد بـ(الصحيح) لا يفيد توثيقاً بعد جهالة الرواة، وبعد كون الشهيد من المتأخرين، فلا يمكن الاعتماد على هذه الرواية.

ثم إن النبي صلى الله عليه وآله في الرواية قال لأصحابه:«**قوموا فتحوّلوا من مكانكم الذي أصابكم فيه الغفلة**» ولم يقل: أصابنا، وهذا شاهد على أن الغفلة إنما أصابت الأصحاب فحسب.

هذه هي الروايات الواردة من طرقنا في مسألة نوم النبي صلى الله عليه وآله عن

---

(١) الشهيد الأول، الذكرى: ج٢ ص٤٢٢، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ قم.

صلاة الصبح، واتضح أنها جميعاً لا تخلوا عن المناقشة في السند.

والملاحظة الجديرة بالالتفات أن بعض الرواة الذين ناقشنا في حالهم وإن أمكن تحسين حالهم أو توثيقهم كسعيد الأعرج، استناداً إلى بعض القرائن، إلا أن هذا لا يكفي في اعتبار الرواية والأخذ بمضمونها في مجال العقائد؛ لأن هذا المقدار من الجهالة أو ثبوت بعض الانحرافات العقائدية عند بعض الرواة يسقط اعتبار الرواية في مجال العقائد؛ فإن الراوي قد يدعو إلى ضلالته في المسائل الاعتقادية بما لا يدعو إليه في مجال الفقه، فتحسين حال الراوي مع انحرافه عقائدياً أو مع وجود بعض جهات الإجمال والجهالة في حاله لا يكفي في الاستناد إلى روايته والاعتماد عليها في الأمور الاعتقادية، خصوصاً إذا كانت تتعرض لمسألة مهمّة وحسّاسة كمسألة العصمة.

البحث الثاني: الدراسة المضمونية لروايات النوم

إن مسألة نوم الأنبياء عن الواجبات لا تختلف في طبيعتها عن مسألة السهو والغفلة والنسيان، فيرد عليها كلّ ما أوردناه سابقاً من مناقشات مضمونية على تلك المسألة، مضافاً إلى أن هناك جملة من المناقشات المضمونية حول روايات النوم نشير فيما يلي إلى بعضها:

المناقشة الأولى: فقدان الناس ثقتهم بنبيّهم

إنّ إثبات مسألة نوم النبي صلى الله عليه وآله وتركه لبعض الواجبات بسبب النوم

معناه إمكان صدور ذلك منه في سائر الواجبات الأخرى، وهذا يعني بحسب المشاكلة بين الواجبات أن النبي ﷺ يمكن أن يترك بعض الأمور التي يجب تبليغها أو التي يجب تلقّيها عن الله تعالى بسبب النوم، ولا شكّ أن ذلك يوجب فقدان الثقة عند عموم الناس وشكّهم في إيصال النبي ﷺ الرسالة كاملة إليهم؛ لأنه يمكن أن تكون هناك جملة من الأحكام لم يتلقّها النبي ﷺ تامّة عن الله تعالى، وذلك لاحتمال تأثير نومه، خصوصاً في الوحي الذي كان ينزل على قلب النبي ﷺ أثناء النوم والرؤيا، إذ لو كان النوم يؤثر في نفس النبي ﷺ ويؤدّي إلى ترك الواجبات، فقد يؤثّر سلباً أيضاً على كيفية تلقّي الوحي، أو يؤدّي إلى تعذّر أخذه عن الله تعالى وإيصاله إلى الناس.

ومجرّد تطرق هذا الاحتمال إلى أذهان عامة الناس كاف لأن يكون موجباً لفقدان ثقتهم في قدرة نبيّهم على إبلاغ الوحي كاملاً إليهم، فلا تكون الحجّة لله تعالى تامة على خلقه، وهذا خلاف صريح الآيات والروايات.

وتتجلّى هذه الفكرة أكثر إذا التفتنا إلى وجود المنافقين في ذلك الحين وتربصهم بالنبي ﷺ وتتبّعهم الدقيق لجزئيات حياته، لكي يطعنوا في نزاهة النبي ﷺ، فلو كانت مسألة النوم من الأمور الصحيحة والواقعة لكانت ذريعة بيد المنافقين يُدخلون بإشاعتها الشكّ والريب في قلوب المسلمين.

وهذا الذي ذكرناه إنما هو بيان آخر للدليل العقلي الذي تقدّم ذكره

في أدلة العصمة وفي المناقشة الأولى لروايات السهو.

إذن الدليل العقلي على عصمة الأنبياء دالّ على بطلان مضمون الروايات الدالة على أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نام عن صلاة الصبح.

المناقشة الثانية: منافاة فكرة النوم للآيات المباركة

مع فرض تأثير مسألة النوم على مبدأ العصمة في الواقع وفي نفوس الناس كما بيّناه، تكون هذه الفكرة منافية للآيات المباركة التي دلّت وبوضوح على عصمة الأنبياء المطلقة وأنهم من المخلصين المصطفين المبعدين عن كل ما يوجب السوء والدنس والشكّ والريب، والتي دلّت أيضاً على وجوب اتباعهم المطلق، وغيرها من الآيات، التي كان هدفها إبعاد كل تهمة وشكّ عن ساحة الأنبياء، لتكون الحجّة لله تعالى تامّة على خلقه.

ولعلّه إلى هذا المعنى يشير قول الشيخ المفيد (قدس سره) في هذا المجال، حيث قال:

«والخبر المروي أيضاً في نوم النبي صلى الله عليه وآله عن صلاة الصبح من جنس الخبر عن سهوه في الصلاة وإنه من أخبار الآحاد، التي لا توجب علماً ولا عملاً، ومن عمل عليه فعلى الظن يعتمد في ذلك دون اليقين»[1]، فإن اليقين الثابت بالدليل العقلي والنقلي القطعي لا يمكن رفع اليد عنه

---

(١) الشيخ المفيد، عدم سهو النبي صلى الله عليه وآله: ص٢٧، دار المفيد ـ بيروت.

بالروايات الظنّية، إذ لا يُنقض اليقين بالشك.

وقريب مما ذكرناه قول الشيخ مرتضى الأنصاري (قدس سره) في بعض رسائله الفقهية، حيث قال:

«والإنصاف إن نوم النبي صلى الله عليه وآله أو أحد المعصومين (صلوات الله عليهم) عن الواجب ـ سيما آكد الفرائض ـ نقص عليهم، ينفيه ما دلّ من أخبارهم على كمالهم وكمال عناية الله تعالى بهم في تبعيدهم من الزلل، بل الظاهر بعد التأمل أن هذا أنقص من سهو النبي صلى الله عليه وآله عن الركعتين في الصلاة، وما تقدّم من صاحب رسالة نفي السهو ممنوع، بل العقلاء يشهدون بكون السهو عن الركعتين في الصلاة أهون من النوم عن فريضة الصبح، وأن هذا النائم أحقّ بالتعيير من ذلك الساهي، بل ذاك لا يستحقّ تعييراً، وكون نفس السهو نقصاً دون نفس النوم، لا ينافي كون هذا الفرد من النوم أنقص، لكشفه عن تقصير صاحبه ولو في المقدمات، وبالجملة فصدور هذا مخالف لما يحصل القطع به من تتبع متفرّقات ما ورد في كمالاتهم وعدم صدور القبائح منهم فعلاً وتركاً، في الصغر والكبر، عمداً أو خطئاً»[(١)].

المناقشة الثالثة: الفرق بين نوم الأنبياء ونوم سائر الناس

إنّ الروايات المباركة تصرّح بالفرق بين نوم الأنبياء ونوم سائر الناس.

---

(١) الشيخ الأنصاري، رسائل فقهية: ص٣٢٣، المؤتمر العالمي المئوي لميلاد الشيخ الأنصاري- طهران.

١- نوم سائر الناس

حيث ذكرت الروايات أن نوم عموم الناس يغلب على عقولهم ويخالط قلوبهم، وقد وردت هذه الحقيقة في جملة من روايات نواقض الوضوء:

منها: ما أخرجه الصدوق في حديث الاربعمائة عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**إذا خالط النوم القلب وجب الوضوء**»[١].

ومنها: ما أخرجه الطوسي بسنده عن محمد بن عبيد الله وعبد الله بن المغيرة، قالا: «**سألنا الرضا عليه السلام عن الرجل ينام على دابته، فقال: إذا ذهب النوم بالعقل فليعد الوضوء**»[٢].

ومنها: ما أخرجه الشيخ الطوسي أيضاً عن زرارة، قال: «**قلت له: الرجل ينام وهو على وضوء، أتوجب الخفقة والخفقتان عليه الوضوء؟ فقال: يا زرارة قد تنام العين ولا ينام القلب والأذن، فإذا نامت العين والأذن والقلب فقد وجب الوضوء**»[٣].

إذن فالنوم عند عامة الناس بحسب هذه الروايات هو ما يغلب على العقل ويخالط القلب، وهذا ما تؤكّده كتب اللغة أيضاً.

قال ابن منظور في اللسان:

---

(١) الشيخ الصدوق، الخصال: ص٦٢٩، منشورات جماعة المدرسين ـ قم.

(٢) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج١ ص٦، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٣) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام: ج١ ص٨، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

«والسنة: نعاس يبدأ في الرأس، فإذا صار إلى القلب فهو نوم»[(١)].

وقد أكّد هذا المعنى فقهاء الفريقين أيضاً.

قال الشيخ المفيد في المقنعة:

«ما يوجب الطهارة من الأحداث عشرة أشياء: النوم الغالب على العقل...»[(٢)].

وقال الشريف المرتضى في الناصريات:

«وعندنا أن النوم الغالب على العقل والتمييز ينقض الوضوء»[(٣)].

وقال السيد الخوئي في معرض ذكره لنواقض الوضوء:

«الرابع: النوم الغالب على العقل»[(٤)].

وفي كتاب المصنف لابن أبي شيبة الكوفي، قال:

«حدثنا وكيع عن سعيد عن قتادة عن سعيد بن المسيب والحسن قالا: إذا خالط النوم قلبه قائماً أو جالساً توضّأ»[(٥)].

وقال الشافعي في كتابه الأم:

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ج١٣ ص٤٤٩، مادة وسن.

(٢) الشيخ المفيد، المقنعة: ص٣٨، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٣) الشريف المرتضى، الناصريات: ص١٣٢، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ـ قم.

(٤) السيد الخوئي، منهاج الصالحين: ج١ ص٤٢، نشر مدينة العلم ـ قم.

(٥) ابن أبي شيبة الكوفي، المصنف: ج١ ص١٥٨، دار الفكر ـ بيروت.

«والنوم الذي يوجب الوضوء على من وجب عليه الوضوء بالنوم الغلبة على العقل»[١].

وقال ابن قدامة في الشرح الكبير:

«والنوم الغلبة على العقل، فمن لم يغلب على عقله فلا وضوء عليه، وقال بعض أهل اللغة في وقوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ السنة ابتداء النعاس في الرأس، فإذا وصل إلى القلب صار نوماً»[٢].

وقال البهوتي في كشف القناع:

«والنوم رحمة من الله على عبده ليستريح بدنه عند تعبه، وهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء»[٣].

هذا كله في نوم عامة الناس.

وحاصله: إن نوم عموم الناس هو ما وصل إلى القلب وخالطه وغلب على العقل ومنع عن معرفة الأشياء وتمييزها.

٢- نوم الأنبياء

وأما نوم الأنبياء، فإن روايات الفريقين تؤكّد على أنه يختلف عن حقيقة النوم الذي يعتري سائر الناس، حيث تصرّح بأن الأنبياء تنام

---

(١) الشافعي، كتاب الأم: ج١ ص٢٧، دار الفكر ـ بيروت.

(٢) ابن قدامة، الشرح الكبير: ج١ ص١٨٣، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(٣) البهوتي، كشف القناع: ج١ ص١٤٧، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

أعينهم ولا تنام قلوبهم، وأن قلوبهم في يقظة دائمة، لا تعتريها الغفلة بسبب النوم، والروايات في هذا المجال متضافرة، وقد تقدّم استعراض بعضها في مبحث الأدلّة الروائية على العصمة المطلقة. ونشير فيما يلي إلى بعضها:

١- ما أخرجه الشيخ الطوسي عن أبي عبد الله عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خطابه لأبي ذر: «**أما علمت أنّي أرى أعمالكم في منامي كما أراكم في يقظتي، إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي**»(١).

وهذه الرواية مهمّة جدّاً، لأنها تثبت أن النبي صلى الله عليه وآله يرى في منامه كما يرى في يقظته.

٢- ما أخرجه الكليني عن الأقرع، قال: «**كتبت إلى أبي محمد أسأله عن الإمام هل يحتلم؟ وقلت في نفسي بعد ما فصل الكتاب: الاحتلام شيطنة وقد أعاذ الله تبارك وتعالى أولياءه من ذلك.**

فورد الجواب: حال الأئمة في المنام حالهم في اليقظة، لا يغيّر النوم منهم شيئاً، وقد أعاذ الله أولياءه من لمّة الشيطان كما حدّثتك نفسك»(٢).

ولا شك أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إمام الأئمة وسيّدهم، فحاله في المنام كحاله في اليقظة ولا يغيّر النوم منه شيئاً.

٣- ما أخرجه الكليني أيضاً بسنده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**للإمام عشر**

(١) الشيخ الطوسي، اختيار معرفة الرجال: ج١ ص١٢٦، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ قم.
(٢) الكليني، الكافي: ج١ ص٥٠٩، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

علامات: يولد مطهراً مختوناً ـ إلى أن قال:- وتنام عينه ولا ينام قلبه»(١).

وفي لفظ آخر ما أخرجه الصدوق عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:«**عشر خصال من صفات الإمام: العصمة والنصوص ـ إلى أن قال:- وتنام عينه ولا ينام قلبه»**(٢).

وفي لفظ ثالث عن الصدوق أيضاً، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام، قال:«**للإمام علامات، يكون أعلم الناس وأحكم الناس ـ إلى أن قال:- وتنام عينه ولا ينام قلبه»**(٣).

وإذا كان نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله سيّد الأئمة عليهم السلام، فهو تنام عينه ولا ينام قلبه.

٤- ما جاء في البصائر عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنا معاشر الأنبياء تنام عيوننا ولا تنام قلوبنا، ونرى من خلفنا كما نرى من بين أيدينا»(٤).

٥- ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أبي سلمة عن عبد الرحمن، أنه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله في رمضان؟ قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلّي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم

---

(١) الكليني، الكافي: ج١ ص٣٨٨، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

(٢) الصدوق، الخصال: ص٤٢٨، منشورات جماعة المدرسين ـ قم.

(٣) الصدوق، الخصال: ص٥٢٨، منشورات جماعة المدرسين ـ قم.

(٤) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات: ص٤٤، منشورات الأعلمي ـ طهران.

يصلّي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلّي ثلاثاً، فقالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال:

«يا عائشة إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي»[١].

٦- ما أخرجه السيوطي في الجامع الصغير بسند صحيح عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، قال: **«إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»**[٢]، وقد صحح الألباني هذا الحديث، وأدرجه في صحيح الجامع[٣].

وحاصل هذه الروايات: أن نوم الأنبياء يختلف عن نوم غيرهم، فنوم سائر الناس يخالط القلب ويغلب على العقل ويمنع عن معرفة الأشياء وإدراكها وتمييزها، وأما نوم الأنبياء، فليس هو إلا نوم العين مع يقظة القلب، فهم في حال نومهم يدركون ويرون ما يدور حولهم، ولا يغيّر النوم من حالهم شيئاً، كما أنهم يرون ما خلفهم كرؤيتهم لما بين أيديهم، ومن هنا لم يكن نوم النبي صلى الله عليه وآله يؤثّر على صلاة الوتر ولا يؤدي إلى فواتها كما كانت تتوهّم عائشة.

ولذا نرى أن الفقهاء من الفريقين بنوا على أن نوم النبي صلى الله عليه وآله لا يوجب انتقاض وضوئه[٤]، مما يعني أنهم يؤمنون أن نومه صلى الله عليه وآله كيقظته بلا فرق

---

(١) البخاري، صحيح البخاري: ج٢ ص٤٨.

(٢) السيوطي، الجامع الصغير: ج١ ص٣٨٧، دار الفكر ـ بيروت.

(٣) الألباني، صحيح الجامع الصغير: ج١ ص٤٠٦ ح٢٢٨٧، المكتب الإسلامي.

(٤) لاحظ: كشف اللثام، الفاضل الهندي: ج٧ ص٤٠، الحدائق الناضرة، المحقق البحراني: ج٢٣ ص١٠٧، إعانة الطالبين، الدمياطي: ج١ ص٧٤، حاشية رد المحتار، ابن عابدين: ج١ ص١٥٤.

في الإدراك والشعور، وإذا كان حال النبي صلى الله عليه وآله في نومه كحاله في يقظته من جهة العلم والإدراك والشعور، فهو على هذا البيان يدرك وقت حلول الواجبات، وحينئذٍ كيف يمكن أن نتصور أن النبي صلى الله عليه وآله علم بدخول الوقت ولم ينهض إلى الصلاة؟!

وهل يكفيه نوم عينيه صلى الله عليه وآله في تركه للواجب مع علمه به؟!

✓ وقد بين الإمام الصادق عليه السلام الأسباب التي على ضوئها اختلفت قلوب الأنبياء والأوصياء عن قلوب سائر الناس، وذلك في حديث طويل له مع ابن بكير، حيث قال عليه السلام: **«يا بن بكير إن قلوبنا غير قلوب الناس، إنا مطيعون مصفّون مصطفون، نرى ما لا يرى الناس ونسمع ما لا يسمعون، وإن الملائكة تنزل علينا في رحالنا وتتقلّب في فرشنا** ـ إلى أن قال:- **وما من يوم ولا ساعة ولا وقت صلاة إلا وهي تنبهّنا لها، وما من ليلة تأتي علينا إلا وأخبار كل أرض عندنا وما يحدث فيها، وأخبار الجن وأخبار أهل الهوى من الملائكة، وما من ملك يموت في الأرض ويقوم غيره إلا أتانا خبره، وكيف سيرته في الذين قبله، وما من أرض من ستة أرضين إلى السابعة إلا ونحن نؤتى خبرهم»**[1].

وهذا يعني أن للاصطفاء والتطهير دوراً خاصاً في اختلاف قلوب الأنبياء والأوصياء عن قلوب الناس وهو ما يوجب عصمتهم المطلقة في حال النوم وغيره.

---

(١) جعفر بن محمد بن قولويه، كامل الزيارات: ص٥٤٢، مؤسسة نشر الفقاهة ـ قم.

قال صاحب كتاب (جواهر الكلام) في هذا المجال:« فالإنصاف أنّه لا يُجترئ على نسبته [النوم عن الصلاة] إليهم (عليهم السلام)، لما دلّ من الآيات والأخبار- كما نقل- على طهارة النبيّ وعترته (عليهم الصلاة والسلام) من جميع الأرجاس والذنوب وتنزّههم عن القبائح والعيوب، وعصمتهم من العثار والخطل في القول والعمل، وبلوغهم إلى أقصى مراتب الكمال، وأفضليّتهم ممن عداهم في جميع الأحوال والأعمال، وأنّهم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، وأن حالهم في المنام كحالهم في اليقظة، وأن النوم لا يغيّر منهم شيئاً من جهة الادراك والمعرفة، وأنّهم لا يحتلمون، ولا يصيبهم لمّة الشيطان، ولا يتثاءبون ولا يتمطّون في شيء من الأحيان، وأنّهم يرون من خلفهم كما يرون من بين أيديهم، ولا يكون لهم ظلّ، ولا يرى لهم بول ولا غائط، وأن رائحة نجوهم كرائحة المسك، وأمرت الأرض بستره وابتلاعه، وأنهم علموا ما كان وما يكون من أول الدهر إلى انقراضه، وأنهم جعلوا شهداء على الناس في أعمالهم، وأن ملائكة الليل والنهار كانوا يشهدون مع النبي صلى الله عليه وآله صلاة الفجر، وأن الملائكة كانوا يأتون الأئمة عليهم السلام عند وقت كلّ صلاة، وأنّهم ما من يوم ولا ساعة ولا وقت صلاة إلا وهم ينبّهونهم لها ليصلّوا معهم، وأنّهم كانوا مؤيّدين بروح القدس يخبرهم ويسدّدهم، ولا يصيبهم الحدثان، ولا يلهو ولا ينام ولا يغفل، وبه علموا ما دون العرش إلى ما تحت الثرى، ورأوا ما في شرق الأرض وغربها، إلى غير ذلك ممّا لا يعلمه إلا الله، كما ورد أنهم لا يعرفهم إلا الله ولا يعرف الله حقّ المعرفة

إلا هم»[(١)].

والحاصل: إن روايات النوم تعارض بمضمونها الروايات الصحيحة والصريحة في أن الأنبياء لا تنام قلوبهم ولا يتغيّر بالنوم إدراكهم عن حال يقظتهم.

المناقشة الرابعة: النوم في وادي الشيطان

إنّ بعض روايات السهو كالرواية الرابعة والخامسة أشارت إلى أن فوات صلاة الصبح كان بسبب تأثير الشيطان؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه باتوا ليلتهم في وادي الشيطان، ولذا تذكر روايات النوم أن النبي صلى الله عليه وآله تحوّل عن المكان الذي كان فيه هو وأصحابه، ثم قضى صلاة الصبح مع نافلتها، ولكن هذا المعنى يتنافى مع ما تقدّم من صريح الآيات والروايات التي نصّت على أن الشيطان لا سلطان له على عموم الأنبياء، وكذا سيّدهم محمد صلى الله عليه وآله الذي استسلم شيطانه على يديه.

وأما بخصوص الروايات التي أشارت إلى أن الله تعالى أنام نبيّه عن الصلاة رحمة بالأمّة ولئلا يعيّر بعضهم بعضاً إذا فاتته الصلاة، فهي مع ضعف سندها كما بيّنا، منافية لحكم العقل بانتفاء ثقة الناس بنبيّهم في إبلاغ الوحي تامّاً إليهم، وإذا كان أمرها كذلك تعود منافاتها لآيات الاصطفاء وعموم وجوب الطاعة. والروايات التي دلّت على أن قلوب

---

(١) الشيخ الجواهري، جواهر الكلام: ج ١٣ ص٧٢-٧٦، دار الكتب الإسلامية- طهران.

الأنبياء دائمة اليقظة بلا غفلة أو نوم.

ومن هنا يتضح وهن قول الصدوق (قدس سره):«وبإثبات النوم له عن خدمة ربّه عزّ وجلّ من غير إرادة له وقصد منه إليه نفي الربوبية عنه؛ لأن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله الحيّ القيوم»(١).

فإن الله تعالى هو الذي أثبت لأنبيائه بمشيئته وإرادته اليقظة الدائمة، فلا تأخذهم سنة ولا نوم في قلوبهم بإذن الله تعالى، وقد بيّنا في مسألة السهو أن هذا لا إشكال ولا شبهة فيه، خصوصاً وأن الحكمة التي ذكرها وهي نفي الربوبية عن النبي صلى الله عليه وآله لم يرد لها ذكر في روايات النوم، وإنما الحكمة المذكورة في الروايات هي الأُسوة برسول الله صلى الله عليه وآله، وهي لا تنهض لدفع الإشكالات السنديّة والمضمونية الواردة عليها، مع أنها حكمة معكوسة، فكيف يجعل النبي صلى الله عليه وآله أسوة في تركه الصلاة الواجبة؟!

---

(١) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٣٥٩، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

الخاتمة

صفات النبي صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم

لقد أولى القرآن الكريم سيرة الأنبياء وكيفية تعاطيهم مع المجتمعات التي كانوا يعيشون في أوساطها مبشرين ومنذرين عناية خاصّة.

وجاء الاستعراض القرآني لسيرة الأنبياء عليهم السلام على أسس فكرية وعلميّة تسترعي انتباه القارئ، وتفتح أمام تفكيره آفاقاً جديدة تصبّ في جدول حركته التكاملية في الحياة.

قال تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[2]، وهكذا قال تبارك وتعالى مخاطباً نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[3].

فالقرآن الكريم يؤكّد على التأثير المباشر لقصص الأنبياء والرسل في المجتمعات الواعية التي تجعل عظماءها رمزاً وأسوة تقتدي بهم للسير قدماً في مدارج الرقي والكمال، سواء على المستوى الفكري والعقائدي أو على المستوى الأيديولوجي والنُظم الأخلاقية، ولذا أمر الله عزّ وجلّ الأمة الإسلامية جمعاء باتخاذ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قدوة وأسوة وقدوة في رقيّها وسيرها التكاملي، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ**

---

(١) الأعراف : ١٧٦.

(٢) يوسف : ١١١.

(٣) هود : ١٢٠.

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

ومن هنا كان من الحريّ بأولي الألباب أن يتفكّروا في العناية الخاصة والمزايا الاستثنائية التي بيّنها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الأنبياء عليهم السلام بصورة عامة وللنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بالخصوص، سواء على المستوى الفكري والسياسي والقيادي والاجتماعي والأخلاقي أوغيرها.

وإليك نبذة يسيرة عن المزايا الخاصّة التي أثبتها القرآن الكريم لرسول الله محمّد صلى الله عليه وآله :

١ـ علّمه شديد القوى

لعلّ من نافلة القول الحديث عن الجانب العلمي في شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فلا شكّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله من الراسخين في العلم والمطهّرين الذين وقفوا على حقيقة الكتاب الذي فيه تبيان كلّ شيء، قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾**(٢)، وقد أوضحت الآيات الأخرى المراد من الراسخين في العلم الذين يمسّون الكتاب ويقفون على حقائقه، كما في قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾**(٣)، حيث كشفت هذه الآيات عن

(١) الأحزاب : ٢١.

(٢) آل عمران : ٧ .

(٣) الواقعة : ٧٧ ـ ٧٩ .

حقيقة مهمّة تساهم في معرفة الراسخين في العلم، وأنهم لابدّ أن يكونوا من المطهّرين، وعندما نعيد النظر في الآيات المباركة نجدها قد نصّت في موضع آخر وشخّصتهم في آية التطهير، حيث قال تعالى فيها: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[1]، وذلك لأن الله تعالى قد وصف ذلك الكتاب والصحف بأنها مطهّرة كما في قوله تعالى: ﴿**رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً**﴾[2]، والصحف المطهّرة والكتاب المطهّر لا يمسّه إلاّ المطهرون، فلابدّ من السنخية والتشاكل في الطهارة والنزاهة.

ولا يشكّ ذو مسكة أن سيّد آية التطهير ورائدها هو رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم أهل بيته كما قال هو صلى الله عليه وآله: «**نزلت هذه الآية فيّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة**»[3]، ومن هنا كان قلب رسول الله صلى الله عليه وآله عرش ذلك الكتاب المبين الذي فيه كلّ حقائق الأشياء ومقاماتها ومراتب وجودها وخلقها، ولذا قال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾[4].

ويمتاز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن باقي المطهّرين والراسخين في العلم أنه حاز على قصب السبق في الوقوف على أمّ الكتاب وحقائقه، حيث لا

---

(١) الأحزاب : ٣٣ .

(٢) البينة : ٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، ج١١ ص١٣؛ بحار الأنوار: ج٣٥ ص ٢٣٢، شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص ٤٥، تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٤٩٤ .

(٤) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥ .

يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق، ومن غير أن يشذّ عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، فعلم الكتاب كلّه عند رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو منبع الفيض على أهل بيته الذين أوقفهم على علم الكتاب كلّه بإذن الله وفضله، فرسول ا لله صلى الله عليه وآله هو الذي دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، وما أروع الآيات التي سطّرها القرآن الكريم، والتي يترنّم بتلاوتها المسلمون بكرة وعشياً، وهي تؤكّد على المنزلة العلمية والمقام العظيم والقرب الإلهي الذي حازه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾[(١)].

وهكذا تستمر الآيات القرآنية في إثبات أروع وأعظم المقامات العلمية والدرجات الرفيعة التي حازتها البشرية على هذه الأرض عن طريق ما وصل إليه نبيّ الإسلام، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾[(٢)].

وبذلك ختم رسول الله صلى الله عليه وآله علم النبوّات والرسالات فلا شريعة بعده، حيث أكملت الشريعة المحمدية الدين الإسلامي وهيمنت على باقي

---

(١) النجم : ١ ـ ١٠ .

(٢) النجم : ١٣ ـ ١٨ .

الشرائع السابقة؛ لما قامت عليه من أسس علمية ومقامات عالية، من القرب الإلهي والدرجات الرفيعة، التي لم يبلغها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا عبد امتحن الله قلبه للإيمان.

٢. السراج المنير

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(١).

أثبت الله تعالى لنبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله مقام الهداية للناس، بعد أن فتح عليه أبواب العلم والمعرفة، ونال من الله المقامات الرفيعة، فعلّمه شديد القوى ورأى من آيات ربه الكبرى، وكان أوّل الراسخين في العلم وأوّل المسلمين بين يدي الله تبارك وتعالى، وفاتحاً لعلم الكتاب كلّه، الذي فيه تبيان لكل شيء، فهو صلى الله عليه وآله عالم بحقائق الأشياء كلّها ظاهرها وباطنها؛ ولذا كانت شريعته خاتمة ومهيمنة على باقي الشرائع الأخرى ومتمّمة لمكارمها وأحكامها، قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(٢).

والرسول الأكرم هو النور الذي بُعث بالكتاب المبين والشريعة المحمّدية السمحاء، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

---

(١) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) الصف: ٩.

بإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

ويعتبر مبدأ الهداية من أبرز الانعطافات المهمّة في حياة الأنبياء، فبعد أن يستخلصهم الله عزّ وجلّ بخالصته، ويصلون إلى المقامات العالية من القرب والرسوخ في العلم، ويحظون بالعصمة والطهارة، يبعثهم الله عزّ وجلّ إلى الخلق مبشّرين ومنذرين، ولكن الجدير بالذكر أن السراج المنير لم يجعل وساماً في القرآن الكريم لنبي من الأنبياء غير الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله تجلّى فيه الذكر والكتاب الإلهي من جميع جوانبه، وصار وجوده المبارك سراجاً وهّاجاً ومصدر اشعاع وهداية للبشرية جمعاء في فكره ومنطقه وسلوكه وخُلقه وصفاته الكريمة الأخرى التي وصفه بها الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم، وذلك ما يشهد به التاريخ، حيث خبت مشاعل الهداية التي نصبها الأنبياء السابقون للظروف التحريفية التي مرّت بها شرائعهم المقدسة، وأما مقابس الهداية المحمّدية فلا زالت وهّاجة تنير الدرب أمام الأجيال، فالشريعة المحمّدية السمحاء باقية إلى أن يظهرها الله عزّ وجلّ على الدين كلّه على يد خاتم الأوصياء الإمام المهدي عليه السلام، قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾**(٢).

ومن هذا المنطلق راحت دعوى النبي صلى الله عليه وآله تملأ الآفاق وأخذ الناس

---

(١) المائدة : ١٥ ـ ١٦ .

(٢) سبأ : ٢٨ .

يدخلون في دين الله أفواجاً، وأسلمت مكّة وقبائل العرب وغيرها في مختلف أرجاء الجزيرة، بحيث صارت الجزيرة العربية بكاملها تحت سلطة الإسلام، ومضى صلى الله عليه وآله في سبيل الهداية يعلّم الناس ما يتلقّاه من وحي السماء وأحكام الإسلام وتعاليمه ومعارفه الأخلاقية، ولم تفارق روحه المباركة الدنيا حتى نصب هداة وأئمة وخلفاء من بعده كلّهم يعمل بالهدى ودين الحق، ورثوا منه العلم والفهم والحلم والعصمة والطهارة، تهتدي بهم الأمة إذا تمسّكوا بهم وبالقرآن الكريم.

٢. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى

لقد حاز نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله أسمى درجات القرب التي ما وطئها ملك مقرّب ولا نبي مرسل بالعبودية الخالصة إلى ربّه، تلك العبودية التي كانت درجتها العالية والمصفاة من كل شائبة مختصّة بنبيّ الإسلام، حتى عُرّف في المنطق القرآني بسمة العبد بلا أي قيد أو توضيح، قال تعالى: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾**(١)، وكذا قوله تعالى: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾**(٢) وقوله عزّ وجلّ: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ**

---

(١) الإسراء : ١ .

(٢) البقرة : ٢٣ .

عِوَجاً * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[(١)] وهكذا قوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾[(٥)] وهذه منزلة امتاز بها الرسول الأكرمﷺ على جميع الأنبياء والرسل، حيث أطلق القرآن الكريم لفظ (العبد) وأراد به النبيﷺ في كثير من الموادِ من دون ذكر قيد أو شرط، وهذا ما لم يُعهد في القرآن الكريم لنبي من الأنبياء، وإنما يؤتى بلفظ يبين المراد من العبد كما في قوله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[(٦)].

وليس ذلك إلاّ بسبب الغاية القصوى التي بلغها النبي الأكرم في عبادته لربّه، وقد خاطبه عزّ وجلّ قائلاً: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[(٧)] رحمة منه تبارك وتعالى وشفقة ورأفة بنبيه الأكرمﷺ لكثرة ما رآه منه من شدّة العبادة وكثرة التهجّد والسجود ومواصلته وقلّة النوم

---

(١) الكهف : ١ .
(٢) الفرقان : ١ .
(٣) الزمر : ٣٦ .
(٤) النجم: ١٠ .
(٥) الحديد: ٩ .
(٦) مريم: ٢ .
(٧) طه: ١ ـ ٢ .

وسهر الليالي في الذكر والتنمّر في ذات الله.

وقد ورد في شأن نزول هذه الآية المباركة عن ابن مردويه عن الإمام علي عليه السلام قال: «لما نزل على النبي صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1] قام الليل كلّه حتى تورّمت قدماه، فجعل يرفع رجلاً ويضع رجلاً، فهبط عليه جبرئيل، فقال: طه يعني طأ الأرض بقدميك يامحمد ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يارسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: ياعائشة ألا أكون عبداً شكوراً.

قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾»[3].

وهكذا جاء عن الإمام موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) عن الحسين بن علي عليه السلام عن أمير المؤمنين في محاججة له مع أحد علماء اليهود، وذلك عندما قال اليهودي: هذا داود بكى على خطيئته حتى سارت الجبال معه لخوفه.

فقال له علي عليه السلام: «لقد كان كذلك، ومحمد صلى الله عليه وآله أعطي ما هو أفضل من هذا، إنه كان إذا قام إلى الصلاة سمع لصدره وجوفه أزيز كأزيز

(١) المزمل: ١ ـ ٢.

(٢) الدر المنثور ـ السيوطي: ج ٤ ص ٢٨٨.

(٣) أصول الكافي: ج٢ ص ٩٥.

المرجل على الأثافي من شدّة البكاء، وقد آمنه الله عزّ وجلّ من عقابه، فأراد أن يتخشّع لربه ببكائه، فيكون إماماً لمن اقتدى به، ولقد قام ﷺ عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورّمت قدماه واصفرّ وجهه، يقوم الليل أجمع، حتى عوتب في ذلك، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿**طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ بل لتسعد به، ولقد كان يبكي حتى يغشى عليه، فقيل له يارسول الله: أليس الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: بلى أفلا أكون عبداً شكوراً»(١)، وقد وردت روايات أخرى تحكي عن تلك الحالات للنبي الأعظم ﷺ(٢).

٤ ـ وإنك لعلى خلق عظيم

وهذه حقيقة أخرى يسجلها القرآن الكريم، وسجيّة ومنقبة خصّ الله عزّ وجلّ بها نبيّه الأكرم ﷺ، حيث لم يصف الله عزّ وجلّ عبداً من عباده بأنه على خلق عظيم.

ثم إن مفهوم الخُلق شامل لكلّ الأعمال الفاضلة والعادات الحسنة وكاشف عن عظمة الصفات النبويّة الشريفة وكيفية التعاطي على المستوى الشخصي والفردي، أو العائلي والأسري، أو على المستوى الاجتماعي والقيادي، وقد شهد التاريخ على ذلك، وكان النبي ﷺ

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي: ج١ ص ٣٢٦.

(٢) انظر: مسند احمد، ج٤ ص٢٥١؛ ج٤ ص٢٥٥؛ ج٦ ص١١٥؛ صحيح البخاري، ج٦ ص٤٤؛ ج٧ ص١٨٣، صحيح مسلم، ج٨ ص١٤١، سنن ابن ماجه، ج١ ص٤٥٦؛ سنن الترمذي، ج١ ص٢٥٨ نيل الأوطار: الشوكاني، ج٢ ص٣٤٦، ج٣ ص٩٣،سنن النسائي، ج٣ ص٢١٩.

مضرباً للمثل في سمو الخلق في المجتمع العربي حتى قبل البعثة، وذلك لأن الرسول الأكرم ترعرع منذ نعومة أظفاره في أحضان التربية الإلهية الخاصّة، لما يحمله من استعداد استثنائي لتقبّل الفيوضات الإلهية والمقامات الربانية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»[1]، وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿**إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾»، وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام قال: «إن الله أدّب نبيّه حتى إذا أقامه على ما أراد قال له: ﴿**وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾، فلما فعل ذلك له رسول الله صلى الله عليه وآله زكّاه فقال: ﴿**إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، فلما زكّاه فوّض إليه دينه، فقال: ﴿**مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ فحرّم الله الخمر وحرّم رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ مسكر، فأجاز الله ذلك كلّه، وإن الله أنزل الصلاة وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وقّت أوقاتها فأجاز الله ذلك له»[2]، ولذا بعث نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله ليتمّم مكارم الأخلاق، وجاء ليرتفع بالبشرية من الحضيض الأخلاقي الذي كانت تعيش فيه على جميع مستوياته، فيرتفع بها إلى الخلق الإلهي والقرآني وذلك بالتأسّي به صلى الله عليه وآله، حيث قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي**

---

(١) نهج البلاغة: ص ١٥٧، مناقب ابن شهرآشوب: ج٢ ص ٢٨ .

(٢) بصائر الدرجات: ص ٣٩٩ .

رَسُول اللَّه أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١] التأسّي برسول الله صلى الله عليه وآله الذي وصفه الله عزّ وجلّ في قرآنه الكريم بقوله: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾**[٢]، وقد وصفته بعض نسائه عندما سئلت عن خلقه صلى الله عليه وآله بأنه: (كان خلقه القرآن)[٣].

وكان الرسول صلى الله عليه وآله يحثّ أصحابه وأمّته على التخلّق بأخلاقه التي هي خلق الله في قرآنه الكريم، حيث ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أخبركم بأشبهكم بي خلقاً؟ فقيل بلى يارسول الله، فقال: أعظمكم حلماً، وأكثركم علماً، وأبرّكم بقرابته وأشدّكم حبّاً لأخوانه في دينه، وأصبركم على الرضا والغضب»[٤].

وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام - أديب رسول الله صلى الله عليه وآله - بعض محاسن الأخلاق السامية التي كان يتحلّى بها صلى الله عليه وآله ويعيش بها في وسط الأمّة، حيث قال عليه السلام: «ما صافح رسول الله صلى الله عليه وآله أحداً قطّ فنزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، وما فاوضه أحد قطّ في حاجة أو حديث فانصرف حتى يكون الرجل ينصرف، وما نازعه الحديث حتى يكون هو الذي يسكت، وما رئي مقدّماً رجله بين يدي جليس له قطّ، ولا عرض

---

(١) الأحزاب: ٢١ .

(٢) آل عمران: ١٥٩ .

(٣) مسند أحمد: ج ٦ ص ٩١ .

(٤) أعلام الدين، الديلمي: ص ١١٩ .

له قط أمران إلاّ أخذ بأشدّهما، وما انتصر لنفسه من مظلمة حتى يُنتهك محارم الله فيكون حينئذٍ غضبه لله تبارك وتعالى، وما أكل متكئاً قطّ حتى فارق الدنيا، وما سئل شيئاً قطّ فقال: لا، وما ردّ سائلاً حاجة إلاّ بها أو بميسور من القول، وكان أخفّ الناس صلاة في تمام، وكان أقصر الناس خطبة وأقلّه هذراً، وكان يعرف بالريح الطيب إذا أقبل... وكان يقول: إن خياركم أحسنكم أخلاقاً... وكان المحدّث عنه يقول: لم أرَ بعيني مثله قبله ولا بعده صلى الله عليه وآله »(١).

وهكذا أخذ المسلمون يتتبّعون آثار الرسول صلى الله عليه وآله في كل صغيرة وكبيرة ودوّنوها في كتبهم، فتتبعوا مأكله ومشربه ولباسه وتختّمه ونعله وفي فراشه ونومه ودعائه وصلاته وسواكه وتعامله مع أسرته وأصحابه، وغير ذلك من الأمور التي دوّنت في كتب الفريقين من الشيعة والسنة، وليس ذلك إلا لأجل التخلق بأخلاقه صلى الله عليه وآله القرآنية والربانية.

٥ ـ ولاية النبي صلى الله عليه وآله وحاكميته في القرآن الكريم

من العقائد التوحيدية التي يجب على كل فرد مسلم الاعتقاد بها والإيمان بمضمونها هي عقيدة التوحيد في الحاكمية الإلهية، وأن الحاكم على هذه الأرض على نحو الدوام والاستمرار هو الله عزّ وجلّ، وهذه الحاكمية الإلهية المستمرّة على الأرض تجلّت على يد خليفته الذي جعله أميناً على هذه الأرض، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي**

---

(١) البحار: ج ١٦ ص ٢٣٧ .

جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وأما اعتراض الملائكة فهو لعلمهم بأن الله عزّ وجلّ لا يريد الفساد، فقالوا لابدّ أن يكون الخليفة غير مفسد في الأرض ولا سفّاك للدماء، وهذا ما قبله الله عزّ وجلّ منهم، ولكن أجابهم بـ ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾، وقد علّم آدم الأسماء كلّها وأوقفه على حقائق الأشياء وجعله مؤهّلاً لتحمّل الخلافة الإلهية من أجل دفع الفساد الذي يأتي على البشرية جمعاء، فيدير الحكومة الإلهية العالمية بما يوجب ديمومة الحياة وحفظها لإدامة الحركة التكاملية التي قدّرها الله عزّ وجلّ للإنسان على هذه البسيطة.

واستمرّت تلك الخلافة والحاكمية الإلهية على يد الأنبياء والرسل والأولياء وعباد الله بعد نبيّ الله وصفيه آدم، وسوف تبلغ ذروتها من دون ظلم أو حيف أو فساد على يد المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله، ولكن لم تشهد البشرية دولة إلهية وقيادة ربّانية كما شهدته في حياة النبي الأكرم، حيث أوجد بحكومته الرشيدة وقيادته الحكيمة مجتمعاً يحمل مقوّمات الحضارة التي رضخت لها الحضارات الأخرى في ذلك الزمان، وكان الله تعالى هو الحاكم آنذاك على يد رسوله الأكرم، حيث كانت التوجيهات الإلهية مستمرّة في شأن تلك القيادة في كل صغيرة وكبيرة.

وقد هيئأ الله عزّ وجلّ الأرضية لذلك بتوجيه المجتمع الإسلامي تجاه الطاعة المطلقة والايمان بولاية الأمر للرسول الأكرم تبعاً لولاية الله عزّ

وجلّ على الخلق، قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(١) وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(٢).

وهكذا استمرّ الحثّ الإلهي في القرآن الكريم للمسلمين باطاعة الرسول الأكرم في صغائر الأمور وكبائرها، على جميع المستويات الفردية والاجتماعية، وكان على المسلمين أن يسلّموا لما يحكم به نبيّ الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(٣)، بل شدّد القرآن الكريم على هذه المسألة، وافترض أن قوام الدين والإيمان متوقّف على الطاعة والتسليم والتبعية المطلقة لقيادة المعصوم، قال عزّ وجلّ: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٤).

ثم أنّ الآيات المباركة تتابع هذا الأمر الهام والخطير، وتؤكّد على أن الذين يمتثلون تلك الأوامر ويُسلّمون أمام حاكمية الله على يد الأولياء المعصومين إنما هم ثلّة قليلة، حيث جاء بعد تلك الآية المذكورة قوله

---

(١) الأحزاب: ٥ .

(٢) المائدة: ٥٥ .

(٣) النساء: ٥٩ .

(٤) النساء: ٦٥ .

تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيماً * وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً﴾[1].

وهذه ملحمة عظمى يسطّرها القرآن الكريم ويكشف عن معالمها، ويبين أن رقي المجتمع الإسلامي وبناء حضارته العالمية إنما يتمّ عن طريق الطاعة والولاية والتسليم لحاكمية الله عزّ وجلّ على يد أنبيائه وأوصيائه وأوليائه الصالحين، وأنها مستمرّة إلى يوم القيامة، ومؤثّرة في مجريات الأمور ومسار البشرية بصورة عامة، وهذا ما آمنت به الشيعة الإمامية في عصرنا، حيث آمنت أن تلك الحاكمية لا زالت جارية في الخلق على يد الإمام المهدي عليه السلام ولكن بنحو الغيبة والخفاء[2]، إذ لا

---

(١) النساء: ٦٦ ـ ٧٠.

(٢) إنّ الإمام المهدي (عليه السلام) يمارس أدواره التي لا تتقاطع مع غيبته، فهو (عليه السلام) يمارس دوره الاجتماعي، والسياسي بالمباشرة، أو بتوسط مجموعة من رجال الغيب، الذين يُصطلح عليهم بالأبدال، والسيّاح، الذين يديرون حكومته الخفيّة، ويتصرفون في مقادير الأمّة، بل البشرية جمعاء، من أجل درئها عن الانحراف، وحفظها عن الزيغ، والضلال، والوقوع في الهاوية، وهذا ما تشير إليه الروايات الواردة من طرق الفريقين.(الدر المنثور: ج١ص٣٢١ ، ص ٣٢٢؛ مجمع الزوائد: ج١٠ ص٦٢ ـ ٦٣؛ عون المعبود: ج٨ ص١٥٣)

ولا يخفى أن الإدارة الخفيّة أقوى، وأشد تأثيراً في الواقع من الإدارة الظاهرة، كما هو الحال في ما نشاهده اليوم من التحكم بمقادير الأمور، وإدارة العالم بواسطة أجهزة المخابرات.

يعقل أن تلك القيادة والحاكمية الإلهية التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، والمؤثرة في جزئيات الأمور وكلّياتها تنقطع عن عالمنا بين ليلة وضحاها، وتوكل إلى عامّة المسلمين.

٦ـ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم

لقد تجلّت الرحمة الإلهية الواسعة في النبيّ الأكرم بأعلى مقاماتها ودرجاتها، ولذا كان صلى الله عليه وآله لرحمته الواسعة حريصاً على المؤمنين رؤوفاً بأُمته، يحرص على تمسك الأمة بالشريعة السمحاء وثباتها على الحق وتدرّجها في مدارج الكمال والرقي على جميع المستويات الفردية والاجتماعية، ومن هنا لا نجد نبيّاً من الأنبياء تحمّل من الأذى في سبيل هداية الأمة ما تحمّله النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، حتى ورد عنه في هذا المجال

فالإمام المهدي (عليه السلام)، الذي هو خليفة الله في الأرض، يمارس دوراً كبيراً في حياة البشرية، وان لم يتقلد الحكومة الرسمية الظاهرة، فهو (عليه السلام) كما هو الحال في الخضر (عليه السلام)، الذي هو وليّ من أولياء الله تعالى، وعبد من عباده، قلّده مناصب عالية، وحكومة رائدة، يديرها بالسر والخفاء.

ولا عجب في ذلك فإن القوى السياسية المهيمنة في عالمنا المعاصر ليست هي الحكومات المعلنة والرسمية، بل هي الحكومات الخفيّة، كتنظيم المخابرات الأمريكية والغربية، والماسونية الصهيونيّة وغيرها من القوى الخفيّة. فالخفاء لا يعني عدم الوجود، أو انتفاء القدرة، بل يعني شدّة النفوذ، وسعة التواجد. غاية الأمر أن عمله (عليه السلام) السرّي - الذي يُدار من وراء الستار- لا قدرة للبشرية على اكتشافه، أو الوقوف على كنهه.

وقصّة الخضر (عليه السلام)- الذي هو عبد من مجموعة عباد جعلهم الله أوتاداً للأرض- ذكرها الله عزّ وجلّ في قرآنه الخالد، عظة وعبرة لنا، وليست هي مجرد قصة لا واقع لها، وإنما الغاية من هذه القصّة هي الاعتقاد بوجود أولياء وحجج لله تعالى، يقومون بمهام إلهية، ويديرون دفّة الحكم الإلهي في الأرض.

إذن، ليست الغيبة بمعنى التعطيل والجمود، كما قد يتخيلها البعض.

قوله ﷺ: «**ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت**»(١)، فالأنبياء عليهم السلام بكلّ ما فُضّلوا به من المقامات الإلهيّة العالية والقرب الإلهي والعصمة والعلم والرأفة والرحمة، وما حملوه من هموم هداية البشرية، مع كلّ ذلك نجد بوناً شاسعاً بين الخُلُق المحمّديّ في هذا المجال وبين كيفية تعاطي باقي الأنبياء عليهم السلام مع أُممهم الذين بعثوا لهدايتهم، ففي الوقت الذي نرى فيه بعض الأنبياء ـ عندما يبلغ به السيل الزبى من شدّة ما يلاقيه من قومه من الإنكار والتكذيب والإيذاء ـ يدعو على قومه بالهلاك ونزول العذاب الإلهي كما هو الحال مع نوح عليه السلام عندما دعا على قومه بالعذاب، أو يهرب من قومه مغاضباً كما في يونس عليه السلام، وهكذا بقية الأنبياء، ولكن عندما يمرّ القرآن الكريم على محطّة النبيّ الأكرم ﷺ يقف وقفة إجلال وتبجيل للرحمة النبوية المحمّديّة بالبشرية جمعاء، وحرصه الشديد على دخول الجميع في الدين الإسلامي، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢) وهذه صفات ثلاثة عظيمة في شخصية النبي الأكرم ﷺ لم تجتمع في نبيّ من أنبياء الله، فكان يعزّ على النبي ﷺ ما كانت تمرّ به الأمّة من العناء في سبيل الله، ومن أجل نشر تعاليم الشريعة الإسلامية وكان يألم لذلك، وفي الوقت ذاته كان يحرص على تلك الأمّة والبشرية بصورة عامة أن تدخل في الإسلام وتستقيم على صراطه وهداه، مع سعة

(١) المناقب، ابن شهر آشوب، ج٣ ص٤٢.
(٢) التوبة: ١٢٨ .

الرحمة والعطف والحنو على المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

ومن تلك المنطلقات كان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله يجهد نفسه ويبذل كلّ ما بوسعه من طاقة من أجل هداية البشريّة ودخول الكلّ في الشريعة الحقّة ونيلهم الدرجات السامية التي أعدت للمؤمنين والمتقين، قال عزّ وجلّ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٢)، وهكذا قوله سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(٣)، وقال تعالى أيضاً: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(٤).

ومن هنا كان دعاؤه الدائم صلى الله عليه وآله: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاَء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ* فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٥).

وليس ذلك إلا امتثالاً منه صلى الله عليه وآله لأوامر ربّه في تحمّل أعباء الرسالة الخاتمة، قال تبارك وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(٦)، ففرق بين صاحب الشريعة الخاتمة

---

(١) التوبة: ٦١ .

(٢) النحل: ١٢٧ .

(٣) الكهف: ٦ .

(٤) فاطر: ٨ .

(٥) الزخرف: ٨٨ ـ ٨٩ .

(٦) القلم: ٤٨ .

وبين صاحب الحوت، وهو الذي أُرسل رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[١].

٧. خصائص أُخرى ذكرها القرآن الكريم

إن الخصائص التي امتاز بها نبيّ الإسلام لا يمكن حصرها في بحث أو كتاب، وذلك طبقاً للدرجة العلمية الرفيعة التي بلغها رسول الله ﷺ، فكانت رسالته خاتمة ومهيمنة ودائمة، وفاق ﷺ البشر بأخلاقه وصفاته التي كانت تحت الإشراف الإلهي المباشر، ولكن نشير فيما يلي إلى بعض الآيات المباركة التي خصّت جملة من الكمالات الرفيعة برسول الله ﷺ على نحو التعداد والفهرسة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾[٢].

وقد أنجز له الله عزّ وجلّ ما وعده في قوله: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾[٣].

فالنبي الأكرم صاحب الكوثر في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا كوثره فاطمة عليها السلام، فهي الكوثر التي كان انتشار ذريته بواسطتها عليها السلام، وهي منبع الإمامة والوصاية.

وفي الآخرة كوثره ﷺ حوض في الجنّة لا يرده إلاّ مؤمن.

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) الضحى: ٥.

(٣) الكوثر: ١ ـ ٣.

الثانية: قوله تعالى: **﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾**[١].

وهذه ملحمة قرآنية أخرى، حيث أتسّع ذكره صلى الله عليه وآله وانتشر في الخافقين وهزّ عروش الظالمين.

الثالثة: قوله تعالى: **﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾**[٢].

وهذا قانون إلهي في كيفية الاصطفاء وتلقّي مواريث النبوّة لا يسع المجال لبحثه هنا.

الرابعة: قوله تعالى: **﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾**[٣].

وهذا بيان لأعلى درجات العصمة التي اختص بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وفي الآية إشارة إلى أن العصمة ركيزتها الأساسية العلم الإلهي الراسخ.

الخامسة: قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾**[٤]، وهكذا قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾**[٥].

السادسة: قوله تعالى: **﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**[٦]، فلم يقسم الله عزّ وجلّ بحياة نبي من الأنبياء في القرآن الكريم إلاّ النبيّ

---

(١) الانشراح: ٤.
(٢) طه: ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٣) النمل: ٧٩.
(٤) الزمر: ١١ ـ ١٢.
(٥) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٦) الحجر: ٧٢.

الأكرم ﷺ في هذه الآية المباركة، حيث أن الله عزّ وجلّ يقسم بحياة نبي الإسلام بقوله تعالى: (لعمرك).

وغير ذلك من مكارم الصفات التي اختصّها القرآن الكريم بالرسول محمد ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العلمين

فهرست المصادر

- القرآن الكريم
- نهج البلاغة، دار الذخائر، قم.
- الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين (عليه السلام)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١. ابن أبي شيبة الكوفي، المصنف، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، مؤسسة إسماعيليان، قم.

٣. ابن الجوزي، زاد المسير، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

٤. ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، دار المعرفة، بيروت.

٥. ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، دار الوفاء، المنصورة.

٦. ابن حبان، صحيح بن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٧. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، دار السلام، الرياض.

٨. ابن حجر، الإصابة، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩. ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، دار الفكر، بيروت.

١٠. ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار النشر ودار القلم، بيروت.

١١. ابن خمير السبتي الأموي المالكي، تنزيه الأنبياء، تحقيق الدكتور محمد رضوان الدّاية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق.

١٢. ابن داود الحلّي، رجال ابن داود منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

١٣. ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

١٤. ابن طيفور، بلاغات السناء، مكتبة بصيرتي، قم المقدسة.
١٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
١٦. ابن فارس، معجم المقاييس في اللغة، دار الفكر، بيروت.
١٧. ابن قتيبة، غريب الحديث ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨. ابن قدامة، الشرح الكبير، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٩. ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام، دار العروبة، الكويت.
٢٠. ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢١. ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت.
٢٢. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت.
٢٣. ابن كثير، قصص الأنبياء، دار الكتب الحديثة، بيروت.
٢٤. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥. أبو الحسن الأشعري، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٦. أبو الحسن الماوردي، أعلام النبوة، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٧. أبو السعود، تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٨. أبو الفتح الكراجكي، كنز الفوائد، مكتبة المصطفوي، قم.
٢٩. أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
٣٠. أبو بكر الحداد، تفسير الحداد، دار المدار الإسلامي، بيروت.
٣١. أبو بكر الرازي الجصاص، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢. أبو حنيفة، الشرح الميسّر على الفقهين الأبسط والأكبر، مكتبة الفرقان، عجمان.

٣٣. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤. أبو سعيد عبد الرحمن النيسابوري، الغنية في أصول الدين، مؤسسة الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت.

٣٥. أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، جماعة المدرسين، قم.

٣٦. أحمد بن حنبل، المسند، ط ١، دار الحديث، القاهرة.

٣٧. أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٨. أحمد بن محمد البرقي، المحاسن، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٣٩. أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٠. الأزهري، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث، بيروت.

٤١. إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت.

٤٢. إعانة الطالبين، الدمياطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٤٣. آقا رضا الهمداني، مصباح الفقيه، انتشارات مكتبة النجاح، طهران.

٤٤. الألباني، الحاشية على كتاب السنة لعمرو بن أبي عاصم، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

٤٥. الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض.

٤٦. الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

٤٧. الآلوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٨. الأنصاري، رسائل فقهية، المؤتمر العالمي المئوي لميلاد الأنصاري، طهران.

٤٩. البحراني، الحدائق الناضرة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المشرفة.

٥٠. البخاري، التاريخ الكبير، المكتبة الإسلامية، ديار بكر.

٥١. البخاري، الجامع الصحيح، ط ١، دار الفكر، بيروت.

٥٢. بدر الدين العيني، عمدة القاري، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٣. البغوي، معالم التنزيل، دار المعرفة، بيروت.

٥٤. البهوتي، كشف القناع، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٥. البيضاوي، تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت.

٥٦. البيهقي، شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٧. الترمذي، سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٨. الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٥٩. الثعلبي، الكشف والبيان، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦٠. جعفر بن محمد بن قولويه، كامل الزيارات، مؤسسة نشر الفقاهة، قم.

٦١. جمال الدين مقداد بن عبد الله السيوري، اللوامع الإلهية، ط ٢، دفتر تبليغات إسلامي، قم.

٦٢. جواهر الكلام، الجواهري، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٦٣. حاشية رد المحتار، ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٦٤. الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ط ٢، دار المكتب العلمية،

بيروت.

٦٥. الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، مع تعليقات الذهبي في التلخيص، ط ١، الكتب العالمية، بيروت، ١٩٩٠م.

٦٦. الحر العاملي، التنبيه بالمعلوم، تحقيق السيد مهدي الآجوردي، المطبعة العلمية، قم.

٦٧. الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم المشرفة.

٦٨. الحلّي، الألفين، مكتبة الألفين، الكويت.

٦٩. الحلّي، الرسالة السعدية، كتابخانة عمومي مرعشي نجفي، قم.

٧٠. الحلّي، خلاصة الأقوال، ط ٢، المطبعة الحيدرية، النجف.

٧١. الحلّي، مختلف الشيعة، ط ١، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران.

٧٢. الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

٧٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ط ٩، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٧٤. الراغب الاصفهاني، مفردات القرآن كريم، ط ١، دار الشامية، بيروت.

٧٥. الزبيدي، تاج العروس، مكتبة الحياة، بيروت.

٧٦. الزرقاني، شرح الزرقاني، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٧. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت.

٧٨. الزمخشري، الكشاف، ط ٢، منشورات البلاغة، قم.

٧٩. سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، ط ١، منشورات الشريف الرضي.

٨٠. السيد التستري، إحقاق الحق وإزهاق الباطل، منشورات مرعشي النجفي، قم.

٨١. السيد الخوئي، معجم رجال الحديث.

٨٢. السيد الخوئي، منهاج الصالحين، نشر مدينة العلم، قم.

٨٣. السيد المرتضى، الفصول المختارة، دار المفيد، بيروت.

٨٤. السيد شرف الدين الموسوي، أبو هريرة، انتشارات أنصاريان، قم.

٨٥. السيوطي، الجامع الصغير، دار الفكر، بيروت.

٨٦. السيوطي، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت.

٨٧. السيوطي، الديباج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، السعودية.

٨٨. السيوطي، تفسير الجلالين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

٨٩. السيوطي، شرح سنن ابن ماجة، قديمي كتب خانة، كراتشي.

٩٠. الشافعي، كتاب الأم، دار الفكر، بيروت.

٩١. الشريف المرتضى، الشافي في الإمامة، ط٢، مؤسسة إسماعيليان، قم.

٩٢. الشريف المرتضى، مسائل الناصريات، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، طهران.

٩٣. الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات ، ط١، انتشارات ناصر خسرو، طهران.

٩٤. الشهيد الأول، الذكرى، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.

٩٥. الشوكاني، الفوائد المجموعة، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

٩٦. الشوكاني، فتح القدير، ط١، دار ابن حزم، لبنان، بيروت.

٩٧. الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت.

٩٨. الصدوق، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم.

٩٩. الصدوق، الخصال ، منشورات جماعة المدرسين، قم.

١٠٠. الصدوق، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف.

١٠١. الصدوق، عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، تحقيق حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٠٢. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١٠٣. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، تحقيق علي أكبر غفاري، ط٢، جماعة المدرسين، قم.

١٠٤. الطبراني، المعجم الأوسط، دار الحرمين، القاهرة.

١٠٥. الطبراني، المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الموصل.

١٠٦. الطبرسي، الاحتجاج، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف.

١٠٧. الطبرسي، مجمع البيان، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

١٠٨. الطبري، جامع البيان، دار الفكر، بيروت.

١٠٩. الطوسي، الفهرست، تحقيق جواد قيومي، ط١، مؤسسة نشر الفقاهة، قم.

١١٠. الطوسي، اختيار معرفة الرجال، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.

١١١. الطوسي، الاستبصار، دار الكتب الإسلامية، طهران.

١١٢. الطوسي، التبيان، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران.

١١٣. الطوسي، الرسائل العشر، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١١٤. الطوسي، المبسوط، المكتبة المرتضوية.

١١٥. الطوسي، تهذيب الأحكام، تحقيق السيد حسن الخرسان، ط٤، دار الكتب الإسلامية، قم.

١١٦. الطوسي، رجال الطوسي، تحقيق القيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١١٧. عبد الرحمن السعدي، تفسير السعدي، ط١، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

١١٨. عبد الله بن أسعد اليافعي، مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة، ط١، دار النشر ودار الجيل، لبنان، بيروت.

١١٩. عضد الدين الإيجي، المواقف، ط١، دار النشر ودار الجيل، لبنان، بيروت.

١٢٠. علي ابن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مطبعة النجف، ١٣٨٧هـ.

١٢١. عمرو بن أبي عاصم، كتاب السنة، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢٢. العياشي، تفسير العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

١٢٣. الفاضل الهندي، كشف اللثام، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المشرفة.

١٢٤. الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت.

١٢٥. الفخر الرازي، عصمة الأنبياء، مطبعة الشهيد، قم.

١٢٦. الفراهيدي، كتاب العين ط ٢، مؤسسة دار الهجرة، بيروت.

١٢٧. الفيض الكاشاني، الأصفى، ط١، مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، إيران.

١٢٨. الفيومي، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت.

١٢٩. القاضي ابن البراج، جواهر الفقه، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١٣٠. القاضي الجرجاني، شرح المواقف، ط١، مطبعة السعادة، مصر.

١٣١. القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١٣٢. القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الأرقم، بيروت، لبنان.

١٣٣. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣٤. القفاري، أصول مذهب الشيعة، دار الرضا، الجيزة.

١٣٥. القفاري، مسألة التقريب، ط٦، دار طيبة، السعودية.

١٣٦. القمي، تفسير القمي، ط٣، مؤسسة دار الكتاب، قم.

١٣٧. الكليني، الكافي ، دار الكتب الإسلامية، طهران.

١٣٨. المباركفوري، تحفة الأحوذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٩. مجاهد، تفسير مجاهد، المنشورات العلمية، بيروت.

١٤٠. المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت.

١٤١. محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات، منشورات الأعلمي، طهران.

١٤٢. محمد بن سليمان الكوفي القاضي، مناقب أمير المؤمنين، ط١، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية.

١٤٣. محمد بن علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤٤. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة اسماعيليان، قم.

١٤٥. محمد طاهر بن عاشور المالكي، التحرير والتنوير.

١٤٦. محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير، ط١، دار الكتب العلمية،

بيروت.

١٤٧. محيي الدين النووي، روضة الطالبين، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٨. المزي، تهذيب الكمال، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٤٩. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ط ١، دار الفكر، بيروت.

١٥٠. المغني، ابن قدامة، دار الفكر، بيروت.

١٥١. المفيد، الاختصاص، دار المفيد، بيروت.

١٥٢. المفيد، المقنعة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١٥٣. المفيد، النكت الإعتقادية، دار المفيد، بيروت.

١٥٤. المفيد، عدم سهو النبي، ط ٢، دار المفيد، بيروت.

١٥٥. المقداد السيوري، إرشاد الطالبين، مكتبة المرعشي العامة، إيران، قم.

١٥٦. المقريزي، إمتاع الأسماع، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٧. ملا علي القاري، شرح مسند أبي حنيفة، ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٨. المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ط ١، دار الفكر المعاصر، بيروت.

١٥٩. المناوي، فيض القدير، ط ١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

١٦٠. النجاشي، رجال النجاشي، تحقيق السيد الزنجاني، ط ٥، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١٦١. النحاس، معاني القرآن، ط ١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

١٦٢. النسفي، تفسير النسفي.

١٦٣. نصير الدين الطوسي، تجريد الاعتقاد، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران.

١٦٤. النووي، شرح صحيح مسلم، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٦٥. الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الفكر، بيروت.

١٦٦. الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار القلم ، الدار الشامية - دمشق ، بيروت.

١٦٧. يحيى بن معين، تاريخ بن معين، دار المأمون للتراث، دمشق.

فهرست المحتويات

الفصل الأول

تعريف العصمة وبيان حقيقتها :

الفصل الثاني

عصمة الأنبياء حدودها وأبعادها

الفصل الثالث

عصمة الأنبياء منذ الولادة

الفصل الرابع

العصمة المطلقة وظواهر بعض الآيات المتشابهة

الفصل الخامس

سهو واسهاء النبي الأكرم

الفصل السادس

روايات سهو النبي الأكرم

النقطة الأولى: النقوض الواردة على فكره الغلو ٣٤١

المناقشة الرابعة: النوم في وادي الشيطان ٣٧٥

عصمة الأنبياء

لقد أدرج الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة في القرآن الكريم، وأوضح تأريخها وأكد عليها وكررها في جملة من آيات القرآن ومحكماته، ليتبيَن للناس أن هناك وسائط بين الله تعالى وبينهم، يبلغون دينه وشرائعه كاملة بلا نقص أو حيف أو انحراف، لتكون الحجة لله تامة لا ريب فيها، فلا يختلج في دخيلة أحد أن العلاقة بين الله وبين خلقه مقطوعة، أو يتوهم متوهم أن الوسطاء المبعوثين إلى الناس قد يتطرق إلى ساحتهم الذنب أو الخطأ أو السهو أو النسيان أو غير ذلك مما يخرج الأمة عن الصراط المستقيم.

وقد حرصت مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية إظهار كتاب العصمة بهذه الهيئة الأنيقة ، لتساهم في إثراء المكتبة الإسلامية، ولتضيف لبنة مهمة في بنائها الفكري الشامخ.

* علماً بأن مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية في مدينة قم المقدسة هي مؤسسة عقائدية تهدف إلى تبليغ العقائد الإسلامية ومبادئ مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ورد الشبهات المثارة حول الفكر الإسلامي الأصيل بأسلوب علمي تحقيقي رصين توظف في ذلك أحدث الوسائل المعاصرة للنشر من قبيل شبكة المعلومات العالمية (الانترنت) والمجلة وإقامة الدورات والقاء المحاضرات ورعاية المبلغين والمشاركة في معارض الكتب الدولية وغيرها.